



بول وفرجيني

للكاتب الفرنسي الشهير

برناردين دي سان بيير

ملخصة بقلم

مصطفى لطفي المنفلوطي

تشتمل على ٣٨ رسماً

الطبعة الاولى

ذو الحجة سنة ١٣٤١ هـ — اغسطس سنة ١٩٢٣ م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بمصر

وبقية المكاتب

المطبعة الرحمانية

بالخرنفش بمصر رقم ٣٥



المؤلف

برْناردين دى سانْ پيير



پول وقرژینی



الشيخ

اهداء الرواية

يعجبنى من الفتى الشجاعة والاقدام ، ومن الفتاة الأدبُ والحياء ، لان شجاعة الفتى مِلاك أخلاقه كلها ، ولان حياءَ الفتاة جمالها الذى لا جمال لها سواه ، فانا أهدى هذه الرواية الى فتيان مصر وفتياتها ، ليستفيد كل من فريقيهما الصفة التى أحب أن أراها فيه ، وليضعا حياتهما المستقبلة على أساس الفضيلة كما وضعها پُول وفِرچينى ؟

مصطفى لطفى
المنفلوطى

ترجمة المؤلف

بقلم العالم الفاضل والكاتب البارع
الاستاذ محمود خيرت المحامى

— ١ —

فى سنة ١٨٥٢ احتفلت حكومة الجمهورية الفرنسية باقامة تمثال من البرنز (صنعه داڤيد الشهير) فى احدى ميادين ثغر الهاڤر لرجل جليل عظيم الهيبة تتألق ملامحه بالبشر والنور وتفيض عيناه بالوداعة واللطف وهو ممسك باحدى يديه قرطاسا وبالاخرى قلماً وعند قدميه صبى وصبية عاريان يتصافحان تحت ظل شجرة من أشجار المناطق الحارة

من هما ذانك الصبيان المتصافحان ؟ وما معنى تلك الشجرة التى ليست من نبات هذه البلاد ؟ وما عسى أن

يكون ذلك الرجل الذى كتب له الحظ أن يكون محلا لعناية « داڤيد » واهتمام الجمهورية ؟

أرادت فرنسا بأسرها أن تخلد ذكرى رجل من أبنائها قضى حياته محبا للحرية واستقلال الرأى ، وان ناله بسببهما الاذى ، منقباً عن الحكمة وهو يتفانى فى تمجيدها ، عاشقاً للطبيعة وهو يتغنى بمحاسنها ، ينسق قلمه القدير كل يوم للادب اكليلا يانعاً من أزاهير الجمال وتسمو به نفسه الطاهرة الابية الى سماء الانسانية للعمل على تخفيف ويلات البشر وآلامه ، فكان رجلا ذكيا عالى الهمة حكيما كبير النفس يعرف للطبيعة حقها وفضلها كاتباً فذا جم الشعور ملأت فراغ قلبه فيوض الرحمة بالبشر الى حد يجعله فى صف القديسين

وما كان هذا الرجل بحاجة الى أثر يخلده وفى رأسه وقلمه ونفسه مثل تلك الآثار الخالدة يحيى بها على تعاقب السنين

— ٢ —

ولد برناردين دى سان پيير فى التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٧٢٧ بالهاڤر من أبوين كانا يدعيان اتصالهما بالنبيل أوستاش دى سان پيير حتى انه ولع من صغره بهذه النسبة فانتحل لنفسه لقب (شڤالييه) وأخذ يحلى صدره بأوسمة يصنعها بنفسه تتفق مع شرف هذا اللقب

ولقد كان فى صباه رقيق المشاعر عصبى المزاج كثير الجرى وراء الخيال حتى طمحت نفسه الى تأسيس جمهورية واسعة من طائفة العاثرين البائسين يكون هو واضع شريعتهم ومنظم حياتهم ليضمن لهم سعادة العيش فكان فى هذا الخاطر مثل چان چاك ، الا أن هذا كان يرى أن يعود الناس الى فطرتهم الاولى طاهرين من الارجاس خالصين من الأدران فيعيشون عيشة صافية هنية فى ظل شريعة الكون العامة التى سنها الخالق ، أما برناردين

فكان يرى أن يضع لهم نظاما جديداً يحارب به قسوة الحياة الحالية وويلاتها

ولكنه كان لا يزال طفلا قليل الحول والحيلة حتى أن أحد أعمامه وكان قبطاناً لسفينة تجارية أخذه معه الى جزر المارتينيك ولكنه عاد منها مثقلا بالهموم وكراهية العيش فسامه أبوه لجزويت كاين

وعند ذلك عادت تلك الفكرة السامية الى رأسه الصغير لما كان يسمعه من أحاديث المبشرين عن رحلاتهم فى البلاد المتوحشة حتى تمنى لو أنه يقفو أثرهم فيهدى الى سبيل السعادة فريقامن عباد الله الاشقياءالجاهلين

على أن أباه عجل بنقله الى مدرسة روين ثم الى مدرسة الهندسة ثم التحق بعد ذلك بالجيش ولكنه كما ذكرنا كان عنيداً لا يسمع غير صوت نفسه وان خرج فى ذلك عن حدود الواجب حتى أن رئيسه عقد مجلساً لتأديبه ثم أوقفه

ولقد أراد بعد ذلك أن يقصد مالطه لتامس الرزق فيها ولـكنها كانت مهددة باغارة من جانب الاتراك فعاد أدراجه وأخذ يعيش من بعض دروس فى الحساب يعطيها لمريديه

وهكذا أحـدق به الهم وعضه الفقر والتوى عليه سبيل الهناء ولم يجد عند أحد صدراً يسعه فى محنته ولا قلباً يحنو عليـه فى كربته فاحتقر الحياة وكره الناس وآثر العزلة على البقاءفى هذا العالم القاسى قائلا : « إن العزلة جبل عال تريني قمته الناس صغاراً »

على انه لم يعدم صدراً آخر يفيض عليـه من حنوه الابدى الخالد هو صدر الطبيعة فاستنام اليها وأحبها وفنى فى عشقها

ولقد حببها اليه أيضاً انه رأى ذات يوم عوداً هزيلا من «الفراولة» نبت على حافة نافذته فلما أخذ يتأمله قام فى نفسه أن يصفه بكل دقائقه ويصف ما حوله من حشرات

صغيرة وذباب ولكن ذلك استعصى عليه وقد رأى تلك الحشرات تصغر شيئاً فشيئاً الى حد أعجزه عن متابعتها ، وعند ذلك أدرك مقام الطبيعة وعظمتها فهام بها

وان نفساً مثل نفس برناردين لا تعرف اليأس فعزم على الهجرة من وطنه الى غيره من بلاد الله وهو مع ذلك لا يكرهه ولا يحقد عليه : « لان من أحب وطنه تغرب فى سبيله » كما قال فى ترجمة حياته

وكانت فكرة إصلاح المجتمع قد اختمرت فى رأسه فسافر الى روسيا لعله يجد عند ملكتها كاترين مايساعده على اخراجها الى نور الوجود على شواطىء بحر قزوين ولكن سهمه طاش فارتحل الى فنلندا ثم الى پولونيا فألمانيا فصحارى أمريكا العليا فمدغشقر حتى انتهى به المطاف عند جزيرة « موريس » التى كتب عنها روايته ، ولكنه فى كل هذه الأدوار كان سوء الحظ حليفه فاضطر الى العودة لوطنه ثانياً وهو ينوء تحت حمل الأحزان والديون ذاهباً الى أن العيب

لم يكن على النظم التى تشرع للناس ولكن على نفس القائين بها

وكان فى أسفاره لا يكاد يرفع طرفه عن الطبيعة التى طالما أحبها وشغف باكتناه أسرار جمالها ولكنه كان يغلب عليه فى تفهمها مزاجه الشعرى وهو يعتقد أن خواطره ليست هى التى تتجه الى الطبيعة ولكنها هى التى توجه اليها آلاف الاشكال المختلفة الرائعة ، وهكذا كان يغرس على طول طريقه بذور خيالاته فيحظى من الطبيعة بكل ثمرة شهية وهو يرى فى كل ذرة من ذراتها نفساً حية ناطقة حتى صهره البحث وأنضجته التجربة

ولكن شقاء الحظ جرعه آخر ما فى كأسه فعاد كما ذكرنا وهو يقول فى نفسه : «لقد أصبح الناس لا يعرفون قدر الاحسان فكيف رفعتهم الأقدار ، ولكن حسبى أن التجربة أصارتنى هرماً فأصبحت لا أطمع فى غير الراحة »

نعم أنه أحس بعزمه قد وهن ، وكأن الشاب الطامح

الى لقاء الحوادث ومجالدتها قد ذاب فيه وفنى وهو مع ذلك لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، أضف الى ذلك ما آلت اليه حاله من الفاقة والبؤس ففكر فى وضع كتاب عن تلك الجزر التى زارها وما شاهد فيها ودون فى مذكراته عنها

ولكن كتابه الذى كان يظن أنه وضع به أساس مجده لم يصادف الا نجاحا قليلا لانه أفسد عليه قلوب الحكام بما ذكره فيه عن خلل إدارة المستعمرات وفساد نظامها

الا أن هذا السفر قد أكسبه الاتصال بكتاب عصره وفلاسفته فعرفوه وعرفهم ولكنه لم يلبث أن أنكرهم لانه أدرك انهم كغيرهم قوم لا يعرفون معنى العدل والحق الذين كانا دعامة خلقه حتى أنه قاطعهم وهجرهم لان ألم شوكة واحدة كما كان يقول تنسى المرء لذة مائة وردة يشمها ، ولذلك عمد الى مادونه من ابحاثه فى الطبيعة فجمعها فى كتاب نشره على الناس على مابها من التفكك وعدم الارتباط ،

ولكن هذا الكتاب الناقص أو تلك الاطلال الدوراس كما كان يسميها كانت وحدة معنوية حية خيراً مائة مرة من أية وحدة عامية لانها تمثل جلال القدرة حاضرة دائما في الذهن ماثلة للعين حتى أن نجاحه كان فوق ما أمله فعرف الناس قدره وأحبوه

وهكذا أمكنه أن يزحزح عن نفسه شيئاً من أحمال شقائه فابتاع منزلا صغيراً اختاره في طريق ضيق يسكنه الفقراء حتى يشعر أنه بيز أفراد عائلته الطبيعية وعلى مقربة من حديقة الحيوانات كي لا يحرم من متابعة أبحاثه



ولقد كان من نتائج تلك التجاريب الطويلة الشاقة أن برناردين اعتقد أن سعادة الانسان قائمة على سلوك سبيل الحياة حسبما تتطلبه الطبيعة والفضيلة وأن الفضيلة العامة مهما بلغ من اتساعها فان مكانها المكان الاول في نفس كل فرد ، ولذلك عدل عن فكرة الجمهورية التي حاول انشاءها

واقتصر على وصف حياة بعض الاسر المنزوية فى ظلال الوحدة تتذوق طعم النعيم فى حجر الطبيعة وعند بساطة الفضيلة

وهكذا ظهر سفره الخالد (پول وڤرجينى) فهز أوتار المشاعر وملك أزمة القلوب وكان فجراً لليل الادب وتاجا على رؤس الاقلام وشعلة صافية باردة فاض بها فؤاده الذى غمرته الفضيلة والصبر والرحمة ، وكان لظهوره تأثير عظيم فى جميع انحاء فرنسا فابكى كل عين وصعَّد كل زفرة، ولم تبق أسرة ولد لها ولد الا سمته پول أو ابنة الا سمتها ڤِرجينى

وكان أكبر ما أثر فى نفوس الناس من هذه الرواية أن حوادثها صحيحة ليس فيها من الخيال الا النسق والترتيب، فقد قال مؤلفها فى مقدمتها « إنى لم أتخيل قصة روائية أصور فيها حياة سعيدة تمتعت بها أسرة أوربية فى وسط ذلك القفر، بل يمكننى أن أقول ان أشخاص هذه الرواية قد عاشوا حقيقة فى تلك الاصقاع وتمتعوا بالسعادة التى وصفتها وإن تاريخهم فى مجمله صحيح شهد به كثير من سكان

تلك الجزيرة ولم أضف عليه الا بعض جزئيات ليست بذات بال »

وقد تنبأ بمبلغ تأثير روايته فى النفوس قبل ظهورها فقال « أردت عند ماوضعت هذه الرواية أن أعرف مقدار تأثيرها فى القراء على اختلاف درجاتهم ومراتبهم ومشاربهم وميولهم ، فتلوتها على بعض السيدات الجميلات المتأنقات فبكين ، ثم تلوتها على بعض الشيوخ المحافظين الرزينين فبكوا ، فعلمت أنى قد كتبتها للناس جميعاً ، وأرضانى هذا الحكم الصامت كل الرضا » على أن هذا السفر اذا كان قد هزّ عالم البيان الى هذا الحد فانه لم يكن ابن يومه ، وانما كان ثمرة مجهود بطىء طويل حتى خرج للناس من ظلمات الفكر الى فضاء الحقيقة وعليه ثوب ذلك الشباب القشيب فهو كأنه ليس من عمله بل من عمل الطبيعة التى تضع بذورها فى السكون وتنضجها فى الظل فاذا وافى اليوم الذى تظهر ثمرتها فيه أخذت بالالباب والابصار

وكثيراً ما كان يسأله الناس كيف وضعه وكيف انتهى منه فيقول لهم حسبكم انه أعجبكم فلا تضعوا بهذه الاسئلة غشاوة على أعينكم تحجب عنها لذة السرور الذى شعرت به والا كان مثلكم كالطفل يقع نظره على وردة فيذهب خاطره الى محاولة الاهتداء لكيفية صنعها وعند ذلك ينثرها ورقة ورقة حتى اذا بلغ غايته لا يرى أمامه شيئاً

على أن جمال الكتاب يجعل الحيارى من السائلين فى حل من موقفهم هذا فهم معذورون اذا تساءلوا عن زهرة هذا السفر القيم كيف نشأت وعلى أى طريقة نبتت وبماء أى خاطر متقد سقيت وتحت أى مؤثر من مؤثرات النفس أينعت ففاضت على الاجيال بالاريج والالوان والجمال

ولكن عناصر مثل هذا العمل الكبير دفينة فى نفس حياة الكاتب اذا صح أن كل مؤلف يتمثل فى سطوره

على أن برناردين اذا كان لم يخلق كاتباً فان المشاهدة والتجربة والدرس هذبت قلمه وأنضجته حتى اذا انقضت

حياته هزيلة بائسة طائرة فى مهاب الحوادث وقد أحاطتها الايام باطار من الشيخوخة لم ير له بديلا منها الا نفثات قاله بين سطور هذا السفر الفياض، ولذلك قال عنه بعض قارئيه : «ليست هذه الرواية أثراً للكاتب وانما هى أثر خالد للغة الفرنسية »

على أن الرواية وان كانت لم تقم الا على وصف الطبيعة الجافة الخشنة فان القارىء لا يكاد ينتهى منها حتى يشعر بدبيب النشوة فى مفاصله لا لترتيب أشخاصها أو غرابة حوادثها ولكن لقدرة برناردين على وصف أخلاق أهل القرى السهلة بعباراته الساحرة الجذابة فهى التى أنطقت الطبيعة الجامدة وجعلت من الكمال تمثالا حياً قدسياً خالداً حتى ان بعض قرائه صاح وقد هزه الطرب « إننى لا أرى هنا غير أكواخ بسيطة وأعواد خشنة ولكننى أرى حولها وجوها ضاحكة مستبشرة وقلوبا تسيل سعادة وهناء » وحتى قال

شاتوبريان « ان السحر الذى يتشعع من سطور هذا الكتاب ليس غير عظمة تتلألأ فى ثناياه تحكى تألق القمرفوق عزلة مزدانة بالزهور »

ولقد كان ختام كفاح برناردين بعد ماحاربته الليالى وخاصمه الحظ أن عرف قدره أولئك الذين جهلوه حتى توجهت اليه عناية لويز السادس عشر فقلده إدارة حديقة النباتات ومتحف التاريخ الطبيعى ، واذا كانت الثورة قد أفقدته هذا المركز وسلبته تلك النعمة التى أصبح فيها فان نابوليون بونابرت شمله برعايتـه وغمره بأحسانه فأنساه مرارة الايام الماضية كما أنه قلده وسام الشرف فلم يعد فى حاجة الى تلك الاوسمة الخيالية التى كان يحلم بها فى صباه، وكان اذا قابله قال له « متى تؤلف لنا يابرنادين رواية ثانية »

هذه هى رواية بول وفرجينى وهـذا هو كاتبها الذى كان يقول فى أول أمره « إن انكار النـاس لجميلى والاحزان التى لاتفارقنى وضآلة مرتزقى وآمالى الضائعة ،

كل هذه المصائب تجمعت لتحاربني فأفسدت على صحتي وأزاغت صوابي حتى أن كل ما يقع تحت بصري أصبحت أراه متحركا مضاعفا كأنني أوديب الملك أرى شمسين »

فأصبح يقول : « هكذا بعد ماقاست سفينة حياتي من زعازع الحوادث أخذت تتقدم آمنة مطمئنة الى بر السعادة »

محمود خيرت

١
جزيرة موريس

هى احدى الجزر الافريقية الواقعة فى المحيط الهندى على مقربة من جزيرة « مدغشقر » وعلى مدى غير بعيد من جزائر «سيشيل » وهى جزيرة قفراء بلقع الا قليلا من السكان السود متفرقين فى جبالها وغاباتها يستعبدهم بضعة أفراد من المهاجرين الاوروبيين النازلين بينهم ويسخرونهم فى حراثة الارض واستنباتها واستخراج معادنها واستنباط أمواهها وتقليم أشجارها كما هو شأن المستعمرين الاوروبيين فى جميع الاصقاع التى يعيشون فيها

***

يَرى المقبل على هذه الجزيرة شرقيَّ الجبل القائم خلف عاصمتها « پورلويس » وادياً مستطيلا مسوّراً بسور طبيعى من الاكام والصخور قد تراءت فى وسطه أطلالُ كوخين دارسين لم يبق منهما إلا أنصاف جدرانهما وبضعة جذوع ناخرة سوداء متناثرة حولهما ، ويرى الأرض

المحيطة بهما مختلفةَ الالوان ما بين سوداء وخضراء وصفراء، مختلفةَ السطوح ما بين أنجاد وأغوار ، وأحافير وأخاديد ، ومنعرَجات ومستدَقات ، الى كثير من الجداول والغُدران القائمة والمتداعية ، كأنما كان يعيش فيها قبل اليوم قومٌ يتولون حرثها وزرعها وتقسيمها وتخطيطها ، ثم ضربها الدهر بضرباته فرحل عنها ساكنوها أو رحلوا عن العالم بأجمعه

ولم يكن لذلك الوادى على اتساعه وانفراجه الا فَجوة[1] واحدة من ناحيته الشمالية، وعلى يساره ذلك الجبل العظيم الذى يسمونه جبل الاكتشاف، لانهم كانوا يرقبون من قِمته السفن القادمة الى الجزيرة ، وبسفحه تقع مدينة « بورلويس » قصبةُ الجزيرة ومقر حاكمها الفرنسى ، وهى مدينة صغيرة نصفُ متحضرة يتفرع من يمينها طريق لاحب[2] عريض ينتهى بضاحية « بَمپلِمُوس » وهناك الكنيسة المسماة

(١) الفجوة الفتحة (٢) اللاحب الواضح

بهذا الاسم قائمةٌ بمماشيها المتدرجة المتصاعدة المحفوفة بأشجار الخيزُران وسَطَ سهل أفيحَ فسيح ، ثم الحرَجاتُ والآجام بعد ذلك منبسطة ممتدة الى ساحل البحر ، حيث يُرى هناك خليج « تومبو » أى خليج القبر ، وعلى يمينه رأس يسمى « كابماليرو » أى الرأس البائس، كأنما هو يشبه هذه الصورة فى شكله ، ثم الخضمُّ الفسيحُ بعد ذلك تنتشر على صفحته عدة جزر صغيرة مقفرة كأنها السفن السابحة على سطح الماء ، وأكبر ما فيها جزيرة « كوان دمير » تتهادى بينها كأنها البرج العظيم

*
* *

ولا يزال يَسمع المقبل على ذلك الوادى حين يدنو منه عصفَ الرياح الضاربةِ فى بطون الجبال وأحشاء الغابات وذوائب الاشجار ، ودمدمةَ الامواج المتوثبة على صخور الشاطىء وهضابه ، حتى إذا وصل الى مَكان الكوخين انقطع عن سمعه كل شىء ، فلا يحس الا صدىً ضعيفاً

لحفيف سعف النخل ، ولا يسمع الا وسوسة الامطار المتساقطة برفق ولين على رءوس الصخور الملساء فترسم على جوانبها المكسوة بالطُحلب ألوان الطيف[1] ثم تنحدر عنها متسلسلةً الى حيث تَسقى أحواض الازهار المهملة التى لا تمتد اليها يد، ولا يقتطفها مقتطف ، ثم تفضى بعد ذلك الى الغُدران والاقنية فتمدها بالجمّ الكثير من أمواهها، وإلى خمائل الاشجار ولفائف الاعشاب فتنسرب فى أحشائها انسراب الافاعى الرقطاء فى بطون الرمال ، ولا يَرى بين يديه إلا هضاباً شماء قد نبتت فى سفوحها وعلى قممها وبين فروجها مجاميع الاشجار الباسقة التى تعابث أشعةُ الشمس أوراقها الخضراء المترعرعةَ وتكسوها بما شاءت من ضروب الالوان ذهبيّها وفضيّها وأُرجوانيّها وناريّها، ولا تنحدر الى قاع الوادى وتتبسّط فى أرجائه الا وقت الظهيرة ، فاذا أدبر النهار وطفَلت[2] الشمس للاياب كان منظر الاصيل

---

(١) الوان الطيف هى الالوان المنحلة عن أشعة الشمس

(٢) طفلت الشمس أى دخلت فى الطفل بالفتح أي الاصيل

أبدعَ منظر رآه الرائى فى جمال ألوانه، وانسجام ظلاله، ورقة أضوائه، وتلهب أُفقه، وذَهاب العين بين أرضه وسمائه فى أبهى من الحلة السِيَراء[1]، والروضة الغناء، فاذا انحدرت الشمس الى مغربها خيم السكون على كل شىء من ماء وهواء وكوكب ونجم، واستحال المنظر الى وحشة مخيفة كوحشة القبور، لا نأمةَ فيها ولا حركة، ولا بارقَ ولا خافق …

٢
الشيخ

كان يلذ لى كثيراً ان اختلف الى هذا المكان الجميل صباحَ مساءَ، وان استريح الى منظره الهادىء الساكن، فانى لجالس ذات يوم على صخرة من صخوره العالية أقلبُ الطرف بين أرضه وسمائه وأُفكر فى شأن هذين الكوخين الدارسين وفيما تنطق به آياتهما من العظات

(١) السيراء المخططة

والعبر ، وآثارهما من الاحاديث والسير ، إذ مر بى شيخ هرم من سكان تلك الجزيرة قد نيّف على السبعين من عمره ، يعتمد على عصا عجراء [1] في يده ويلبس سراويل واسعة وصداراً ريفيا بسيطاً وقبعة عريضة من الخوص كشأن سكان تلك الاصقاع ، وله شعر أبيض مستطيل مسترسل على كتفيه ، وقد تلألأ وجهه الابيض النحيف الضارب الى السمرة بذلك النور الساطع الذى يتلألأ دائماً فى وجوه الريفيين الاتقياء ، نور البساطة والطهارة ، والنبل والشرف ، فأنِست به وبمنظره الجميل الانيق وبدأته بالتحية فرفع رأسه الىّ متوسماً وألقى علىّ نظرة هادئة مطمئنة ثم رد تحيتى رداً جميلا ، وكأنما شعر لى بمثل الذى شعرت له به من العطف والود فاقبل نحوى باسما متهللا وجلس على صخرة محاذية للصخرة التى أجلس عليها وألقى عصاه تحت قدميه ووضع قبعته بجانبه فاقبلت عليه وقلت له لعلك تعيش فى هذه الجزيرة ياسيدى

---

(١) عصا عجراء ذات عجر أى عقد فى وسطها



« الشيخ »

منـذ زمن طويل ، قال نعم طويت فيها رداء شبابى ، وهاءنذا أطوى فيها رداء شيخوختى ، وستبرد عظامى غداً تحت صخورها وجنادلها ، قلت هل لك أن تحدثنى قليلا عن شأن هذين الـكوخين الدارسين وعن من كان يسكنهما قبل ان تعبث بهما يد البلى ، وتعصف بهما عواصف الدهر وأرزاؤه ، فوجم قليلا وظل صامتاً لا يقول شيئاً وقد انتشرت على جبينه اللامع المتلألئ غمامة رقيقة من الهم والاكتئاب ثم تنهد تنهدة طويلة اختلفت لها أعضاؤه وقال

نعم يا بنى إن هذا الوادى الذى تراه اليوم خراباً يباباً لا يمر به المارّ إلا ليقف على ربوعه وأطلاله وقفة المتأمل المعتبر كان منذ عشرين عاماً روضة غناء يعيش فيها أقوام سعداء باخلاقهم وفضائلهم ما كان يخطر ببالهم ولا ببال من يراهم أن مصيرهم سيكون هذا المصير الذى تراه اليوم ، وان قصتهم لقصة غريبة مؤثرة تستثير الاشجان ، وتستذرف الدموع ، الا أن أبطالها ليسوا ملوكا ولا قادة ، ولا من أصحاب القصور والدور ، والحدائق والبساتين ، والمسارح

والملاعب ، والوقائع العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، كما هو شأن أبطال الروايات التى تقرؤونها ، بل قوما فقراء مغمورين تقتحمهم العيون ، وتتخطاهم الانظار ، ومن كان هذا شأنهم لا يحفل بهم أحد من الناس ولا يُعنَى بسماع شىء من أخبارهم وتواريخهم ، لأن الناس لا يستطيعون أن يفهموا السعادة الا من الطريق الذى ألفوه واعتادوه ، فهم لا يصدقون ان قوماً فقراء متقشفين يعيشون فى أرض قفرة جرداء منقطعة عن العالم باجمعه قد استطاعوا ان يكونوا سعداء من طريق الفضيلة والبساطة

فاكبرتُ الرجل فى نفسى وأعظمته وعلمت انه يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة سامية تختلف صورتها عن صورة هذه الاسمال الحقيرة التى يلبسها ، وقلت له نعم ياسيدي اننى أعترف لك أننا معشر الاوروبيين لا نفهم من معنى السعادة الا ذلك المعنى الذى تقوله ولا نُعجَب بالقصة إلا اذا كان أبطالها أولئك الملوكَ الظلمة والقوادَ

السفاكين ، ولكننا نستطيع ان نُصغيَ في بعض الاحايين بلذة وسرور الى أحاديث الفقراء والبائسين ، ومهما بلغت القسوة بالقلب الانساني وغمرت الشهواتُ شعوره ووجدانه فلا بد أن تهب عليه من حين الى حين نفحة من نفحات الفطرة الألهية تنعشه وتوقظ شعوره فيستطيع ان يعود الى نفسه قليلا وأن يفهم أن فى العالم صنوفاً من السعادة غير التى يعرفها ويألفها ، وربما أكبرها وأعظمها وتمناها لنفسه وود لو طال استمتاعه بها

فقص على قصتك ياسيدى فما انا لو علمتَ الا رجل بائس مسكين قد اخطأته السعادة حيث طلبها فى المدن والحواضر بين الدور والقصور ، فلعله يجدها فى القفر الموحش بين الهضاب والصخور

فوضع يده على جبينه المغضّن كأنما هو يفتش فى طياته عن بعض الذكريات القديمة أو يستجمع ما تفرق من شواردها وأنشأ يحدثني ويقول

٣

مدام دي لاتور

فى عام ١٧٢٦ قدم هـذه الجزيرة فتى من « نورماندى » اسمه « مسيو دى لاتور » ليطلب رزقه فى هذه الجزيرة المقفرة بعد ما أعياه طلبه فى فرنسا وعجز عن ان يجـد له فيها معيناً حتى من أهله وذوى رحمه ، وكانت تصحبه زوجته وهى فتاة نبيلة جميلة الصورة كريمة الخلق طيبة العنصر أحبها وأحبتـه وأراد أن يخطبها الى قومها فأبوها عليه لانه كان فقـيراً مقلا ولانهم كانوا من المدلّين بأنفسهم وبوفرهم وثرائهم ومكانتهم فى الهيئة الاجتماعية فلم يكن مما يهون عليهـم أن يُصهروا [1] الى رجل ليس من اكفائهم ولا نظرائهـم فتزوجها سراً بدون مهر وهاجر بها الى هذه الجزيرة عله يجد

(١) أصهر اليه صاهره



« مدام دی لاتور »
(هیلین)

سبيلا الى العيش فيها ، فتركها هنا وسافر الى جزيرة « مدغشقر » ليبتاع منها طائفة من الزنوج يستعين بهم عند عودته على استصلاح بعض الاراضى المهجورة فيقتات منها هو وزوجته فلم يُتَح له الحظ الذى أراد لانه سافر الى « مدغشقر » فى الفصل الذى يَوْبأُ [1] فيه مناخُها ويمتلئ فيه جوها بالحميات والرياح السامة القاتلة فلم يلبث ان اشتكى شَكاةً ذهبت بحياته ، وكان يحمل معه بعض الاثاث وشيئاً من المال فتناهبته الايدي هناك كما هو الشأن دائماً فى تراث الغرباء من الاوربيين الذين يموتون بعيداً عن أوطانهم فى تلك الجزر النائية ، فأصبحت امرأته من بعده أرملة مسكينة لاسند لها ولا عضد ولا من يعينها على أمرها الا جارية زنجية كانت قد ابتاعتها عند حضورها ببعض دريهمات ، ولم تكن تعتمد على ما يعتمد عليه أكثر المهاجرين المقيمين في هذه الجزيرة

(١) وبئت الارض توبأ كثر فيها الوباء

من عون الحاكم ومساعدته أو الصلة ببعض أصحاب الجاه والنفوذ ، لانها كانت أجل فى نفسها من ذلك، ولانها لم يكن يعنيها بعد أن فقدت ذلك الزوج الكريم الذى كان موضع آمالها ووجهة حياتها أن تكون لها صلة مع أحد من الناس كائنا من كان

فأكسبها يأسها هذا قوة وجلدا ، وصحت عزيمتها على أن تعتمد فى حياتها على نفسها وأن تتخذ لها قطعة من الارض تستصلحها بيدها هى وجاريتها علها تجد فيها قوتها ومرتزقها

والارض في هذه الجزيرة على جدبها وإقفارها لا يعدم أن يجد فيها الانسان بضع قطع خصبة صالحة للنماء وللاستثمار ، ولكنها كانت تريد العزلة والانفراد والفرار بنفسها عن أبصار الناس وأسماعهم ، فتركت المواضع الخصبة المَيْثاء وأوغلت فى المجاهل البعيدة تفتش عن قطعة أرض معتزلة فى سفح جبل أو بطن غور أو وراء منقطَع لا يطرقها طارق ، ولا

يمر بها سابل [1] حتى وصلت الى هذا المكان الذى نحن فيه ، فاعجبها منظره الهادئ المنفرد وسكنت نفسها اليه سكون الطائر الغريب الى العُش المهجور ، وكذلك شأن البائسين المنكوبين يشعرون دائماً بحاجتهم الى الفرار بأنفسهم من ضوضاء العالم وجلبته الى المتزلات النائية القصية والمواطن الخشنة الوعرة كأنما يخيل اليهم أن صخورها وهضابها قلاع حصينة يعتصمون بها من كوارث الدهر وارزائه ، أوكأنما يتوهمون أن هدوءها وسكونها يسرى الى قلوبهم وأفئدتهم فيروح عنها بعض ما بها ويملؤها راحة وسكونا

إلا ان العناية الالهية التي تتولى حراسة الانسان وتمده بلطفها وعنايتها من حيث لا يقدّر ولا يحتسب وتَرى له دائماً خيراً مما يَرى لنفسه أبت أن تُسلمها الى وحشتها وكآبتها فأتاحت لها صديقة كريمة تؤنس وحشتها وتعينها على أمرها

---

(١) السابل المار فى الطريق المطروقة جمعه سوابل وسابلون

٤

مرغريت

كانت تعيش فى هذه الارض قبل عام واحد من حضور « مدام دى لاتور » امرأة صالحة كريمة رقيقة الحال اسمها « مرغريت » وفدت اليها على أثر نكبة حلت بها فى مسقط رأسها « بريتانيا » وخلاصتها أن نبيلا من النبلاء الاصطلاحيين ، أى الذين اصطلح الناس على تلقيبهم بهذا اللقب ، نزل بلدتها للاصطياف بها فرآها فأحبها وكانت فتاة غريرة ساذجة تصدق كل ما يقال لها فصدقت ماحدثها به عن الحب والزواج والسعادة والهناء كأنما خيل اليها أن العظماء عظماء فى أحاديثهم وعهودهم ، كما هم عظماء فى مظاهرهم وأزيائهم ، لايخلفون إذا وعدوا ، ولا ينكثون إذا عاهدوا ، فاتصلت به اتصال الزوجة بزوجها حينما وعدها أن يتزوج منها عند عودته إلى وطنه واستئذان أبويه



« مرغريت »

وما هي إلا أيام قلائل حتى ملها واجتواها [1] كمامل الكثيرات من أمثالها من قبلها ، فرحل عنها فجأة أعظم ما كانت غبطة به وأملا فيه ، وترك لها تحت وسادتها شيئاً من المال خُيل اليه أنه الثمن الذي يقوم لها بوفاء مابذلت من عرضها وشرفها ، فجُنَّ جنونها وهرعت الى فُرضة البحر التى عامت أنه سيسافر منها فلم تر من سفينته الماخرة على سطح الدأماء إلا ما يرى الرائي من أعقاب النجم المغرِّب [2] ، فبكت ما شاء الله أن تفعل ثم عادت الى منزلها دامية العين قريحة القلب ، ولم تلبث الا قليلا حتى شعرت أنها تحمل جنيناً فى أحشائها فأُسقِط فى يدها [3] وعامت أنه قد استحال عليها البقاء بين أهلها وقومها بعد ما فقدت تلك الجوهرة الثمينة التى هى كل ما تملك العذراء من حياتها وكل ما تستطيع أن تقدمه مهراً لزوجها ، فأزمعت الرحيل

---

(١) اجتوى الشيء كرهه (٢) المغرب المنحدر الى مغربه (٣) أسقط فى يده على صيغة المبنى للمجهول تحير وندم

الى إحدى المستعمرات النائية لتوارىَ في هوتها العميقة سوأتها وعارها ، فوفدت الى هذه الجزيرة بعد عناء كثير وعقبات عظمى ، واستطاعت بمعونة بعض المحسنين الراحمين



مرغريت واقفة على شاطئ البحر
تندب أملها الضائع

أن تبتاع لها خادماً زنجياً يعينها على أمرها ويساعدها على حراثة الارض التى آوت اليها واستخراج ثمراتها

وعاشت هنا عيش الصالحات القانتات لا تعرف أحداً من الناس ولا يعرفها أحد سواى ، وكانت تجلس دائماً على هذه الصخرة العالية أمام كوخها ترضع ولدها وتنسج نسيجها فلما وفدت هيلاين « مدام دى لاتور » رأتها جالسة فى مكانها الذى اعتادت الجلوس فيه فعجبت لامرها وأنست بمرآها أُنساً عظيما ، لانها ما كانت تتصور قبل أن تراها أن فى العالم إنساناً له حال تُشبه حالها فدنت منها وحيّتها ثم جلست بجانبها وأخذت تسائلها عن شأنها فقصت عليها مرغريت قصتها كما وقعت وكشفت لها بشجاعة وإخلاص عن مكان المصرع الذى زلت فيه قدمُها ، ولم تكتمها من أمرها شيئاً ، ثم ختمت حديثها بقولها : إن الله لم يظلمنى ولم يقسُ علىّ فيما فعل ، بل عاقبنى على جريمتى التى اقترفتها عقاباً عادلا شريفاً ، فله العُتبى[1] معطياً وسالباً ، وله الحمد على نعمائه وبأسائه .

---

(١) له العتبى أى له الرضى

فرثت لها هيلين « مدام دى لاتور » وأَوَت[1] اليها وأعجبها منها اخلاصها وصراحتها، وقوة يقينها وإيمانها ، فلم تر بدا من أن تمنحها من بنات قلبها[2] مثل ما منحتها، فافضت اليها بسرها وحدثتها حديثها من مبدئه إلى منتهاه ، فقالت لها مرغريت أما أنا ياسيدتى فقد لاقيت عقوبتي التي أستحقها بما أسرفتُ على نفسى وفرطت فى أمرى ، فما شأنك أنت وأنت فتاة صالحة شريفة لاذنب لك ولا جريرة!!!

ثم دعتها إلى كوخها الحقير فلبت دعوتها ودخلت معها راضية مغتبطة وهى تقول : أحمدك اللهم فقد وجدتُ لى فى هذا المغترَب النائى أختاً لم أجد مثلها بين أهلى وقومى ، وما أحسب إلا أن آلامي قد انتهت

*
* *

وكنت أسكن فى ذلك الحين وراء هذا الجبل

---

(١) أوى له رق له وأشفق عليه
(٢) بنات القلوب همومها وأسرارها

على بعد مرحلة ونصف من كوخ مرغريت ، ولكننى كنت على بعد ما بينى وبينها واعتراضِ هذه العقبات من دوننا متصلا بها أزورها وأتفقد حالها ، وأرعى لها ما يرعى الجار لجاره الملاصق ، وتلك خلّة لا توجد إلا فى سكان أمثال هذه القفار المهجورة والمغتربات النائية ، فلا الجبال الشامخة ولا الصحارى الشاسعة ولا الشقة البعيدة بقادرة على أن تفرق بينهم وتمنع اتصال بعضهم ببعض كأنما هم يقطنون مَحَلّة واحدة أو منزلا واحداً ، أما فى أوربا فكثيراً ما يعيش الرجل بجانب الرجل لا يفصل بينه وبينه إلا جدار قائم أو ممر ضيق أو ظُلّة دانية ثم هو لا يعرفه ولا يحييه ، وربما أنكر وجهه وصورته ، وهناك قلما يستطيع القادم الغريب أن ينزل ضيفاً إلا عن نفسه فى أخصب البلاد وأغناها وأرغدها عيشاً وأصلحها حالا ، وهنا يجد ساعة نزوله المنزلَ الرحب والمناخ الكريم فى كلِ دار وكوخٍ ، سواء فى ذلك فقراء الناس وأغنياؤهم

وسُوقهم وأشرافهم، كأن الناس حين يعودون إلى حياتهم الفطرية الاولى حياةِ البساطة والسذاجة والعيشِ فى الاجواء الحرة المطلقة تعود لهم معها أخلاقهم الطبيعية الجميلة التى فطروا عليها من كرم وسماحة وجود وإيثار وود وإخاء

وبعد فلما سمعت أن جارتى قد نزلت بها ضيفة غريبة أتيت اليها أتفقد حالها وأعينها على أمرها فاذا أنا بين يدى فتاة جميلة رائعة تحيط بوجهها المشرق المتلألئ هالة وضاءة من الشرف والنبل تغشاها سحابة خفيفة من الهم والكآبة، ويتراءى فى عينيها المتضعضعتين الذابلتين أثر الذل والانكسار الذى يراه الانسان دائماً فى عيون الفتيات المنكسرات فى مَيْدان الحياة

وما هو إلا أن جلستُ اليها جِلسة خفيفة حتى ألممتُ بشأنها كله فأخذت أحدثها وصديقتَها عن مستقبل حياتهما فى هذه الجزيرة وكيف تستطيعان أن تعيشا فيها سعيدتين هانئتين فاقترحت عليهما أن تتخذا هـذا

الوادىَ مزرعــة لهما تقتسمانهــا بينهما ويعينهما على استصلاحها واستثمارها خادماهما الزنجيان،فأعجبهما مقترحى وعهدا الي بتنفيذ ما أشرت به

وكانت مساحة الوادى نحو عشرين فداناً ، فقسمته قسمين ، قسما أعلى وقسما أدنى ، أما الاول فيبتدئ من رءوس تلك الصخور العالية التى تكسوها السحب أرديتها الشفافة البيضاء وتنبعث من خلالها أمواه نهر « اللاتينيه » وينتهى عند هذه الفَجوة التى تراها أمامك ، ويسمونها هنا « لامبرازير » لانها تشبه فى شكلها فوهة المدفع ، وتكثر فى هذا القسم الصخور والوعور التي يتعــذر السير فيها إلا انه كثير الاشجار والنخيل حافل بالينابيع والغدران

وأما الثانى فيبتدئ من هــذا المكان منحدرا مع النهر الجاري بجانبه الى نهاية الوادى حيث ينحرف النهر بعــد ذلك سائراً في رملة ميثاء بين جبلين شامخين الى

مصبه فى البحر ، وأرض هذا القسم سهلة لينة كثيرة الخضرة والاعشاب ، إلا أن المستنقعات تكثر فيها فى فصل الامطار وتكاد تتحجر تربتها أيام الجفاف فتصبح كأنها أرض صخرية ، فهما فى الحقيقة قسمان متعادلان تتكافأ حسناتهما وسيئاتهما

فلما فرغتُ من تهيئتهما اقترعت بين السيدتين عليهما ، فكان القسم الاعلى نصيب هيلين «مدام دى لاتور» والقسم الادنى نصيب مرغريت ، فرضيت كل منهما بنصيبها ، إلا انهما أبتا أن تفترقا فى مسكنهما وعيشهما ؛ فرأيتُ أن أنشئ لهما كوخين متجاورين تجدان فيهما من السعة والراحة لهما ولولديهما أكثر مما تجدان فى الكوخ الواحد وأن أجعل أحدَهما فى ذيل القسم الأول وثانيَهما فى رأس القسم الثانى ، فتسكن كل منهما فى أرضها وكأنها تعيش مع صاحبتها فى مسكن واحد ، فأعجبتهما تلك الفكرة واغتبطتا بها ، فاستعنت بالزنجيين على قطع الأحجار من الجبال واجتلاب

الاخشاب من الغابات وصنع مواد البناء وانشأت لهما كوخين فسيحين يدور بهما سياج متين من الاغصان المتشابكة وغرست حولها خميلة من أشجار اللاتينيه تظللهما وتقيهما وهَج الشمس وغائلة المطر

وهنا صمت الشيخ وأطرق ثم رفع رأسه بعد قليل فاذا دمعةٌ رقراقةٌ تترجح فى عينيه كلما حاولتْ أن تسيل أمسكها واستمر فى حديثه يقول

نعم بنيتُهما وشيدتُهما وانشأت لهما السقوف والابواب والكُوى والنوافذ وهاءنذا أراهما الآن بين يديَّ ساقطين متهدمين ، فلا أبوابَ ولا سقوف ، ولا نوافذَ ولا كوى ، ولا قُطان ولا سكان ، وكأن الله تعالى أراد أن يستديم تلك الذكرى فى نفسى فلا تبرح مخيلتى حتى تذهب معى الى قبرى فأبقيَ على هذه البقايا الماثلة من جدرانهما وأحجارها ليستثير مرآها شجنى ويَهيج آلامي وأحزانى ، أو كأنّ طوارق الحدَثان

التى لا تبالى أن تعصف بقصور الملوك وصروح الجبابرة وتذهب ببقاياها وآثارها إلى الابدقد وقفت وقفة الاجلال والاعظام أمام هذه الاكواخ الحقيرة المشعّثة فأبت أن تقضى عليها القضاء كله اجلالا لها واحتراماً لذكرى أصحابها الاوفياء المخلصين

وبعد فلم أكد أفرغ من بناء الكوخين حتى شكت هيلين وجاءها المخاض فولدت طفلة جميلة كأنها النجم اللامع فى سطوعه وإشراقه وسألتنى أن أكون « عرابها » وأن أتولى تسميتها كما توليتُ تسمية ولدصديقتها فأشرتُ على مرغريت أن تفعل لانى أردت أن تكون لها أما ثانية فسمتها « ڤِرچينى » وقالت لامها سيهَب الله ابنتَك نعمةَ الفضيلة والعفة فتحيا حياة سعيدة هانئة ، فانى ما فقدت السعادة الا منذ اليوم الذى انحرفت فيه عن طريق الفضيلة

٥

الحياة الطبيعية

نهضت هيلين من نفاسها بارئة نشطة فأخذت هى وصديقتها مرغريت تعملان فى أرضهما بمعونة الزنجى « دومينج » وهو رجل كهل قد نيف على الخمسين من عمره الا انه كان فتىّ الهمة والعزيمة واسع الخبرة فى شؤون الزراعة الجبلية وأساليبها ، فكان يغرس فى كل أرض ما يناسبها من البذور والاغراس، لا يفرق فى ذلك بين القسمين ، ولا يمنح أحدهما من اهتمامه وعنايته أكثر مما يمنح الآخر ، فزرعَ الذُرة فى التربة المتوسطة والحنطةَ فى الارض الجيدة والارزَ فى التربة السبِخة والقرعَ والقِثّاءَ وما أشبههما من النبات المتسلق حولَ الصخور وفوق رءوس الهضاب، وزرع البطاطا فى التربة الجافة اليابسة وشجيرات القطن فى الربوات العالية وقصبَ السكرِ فى الارضِ القوية

المتينة ، وغَرس على صنفة النهر حول الكوخين أشجار الموز ذات الاوراق العريضة والافياء الظليلة ، ولم يفُته أن يزرع لنفسه بضع شجيرات من التبغ يروّح بتدخينها عن نفسه هموم دهره وآلامه

وكان يذهب فوق ذلك الى الغابات البعيدة والاحراش النائية لاحتطاب الحطب واجتلاب أخشاب الوقود ، ويقضي جزءاً عظيما من يومه في تمهيد الارض وتذليلها وتكسير الصخور ورصف الحصى وانشاء الممرات والمستدقات والجداول والاقنية ، وكان يقوم بهذا العمل كله وحده راضياً مغتبطاً لا أُعينه عليه إلا بالرأي والارشاد ، لانه كان يحب سيدتيه حباً جماً ويخلص لهما اخلاصاً عظيما ، وربما كان للغرام يدٌ خفية في ذلك النشاط الغريب المنبعث في أنحاء نفسه كما هو الشأن في جميع حركات الناس وسكناتهم ، فانه كان مغتبطاً كل الاغتباط بتلك الصلة التي نشأت بينه وبين الزنجية « ماري » في العمل ، وبوده لو استحالت إلى صلة

أخرى غيرها أدنى إلى نفسه وألصقَ بفؤاده ، وقد تم له بعد عام واحد من اتصاله بها ما أراد ، فقد سمحت له سيدتاه بالزواج منهــا فبَنى بها ليلة عيد ميلاد فرچينى وسعد بجوارها سعادة لا تختلف فى روحها وجوهرها عن السعادَة التى يهنأ بها البيض المتمدينون

وكانت مارى فتاة نشطة حاذقة ذكية الذهن صَنَاع اليد متحلية بكثير من الصفات الفاضلة ، وقد استفادت فى مسقط رأسها « مدغشقر » العلمَ ببعض الصنائع اليدوية التى يزاولها الناس هنالك ، فكانت تجيد صنع السِلال من لحاء أشجار القصب ونسجَ المآزر والمطارف من خيوط بعض الاشجار الليفية ، وكانت تحسن القيام على خدمة المنزل ومناظرته وترتيب أثاثه وتربية الطيور الداجنة ورعيِ الماشية ومزاولة الطبخ والغسل ، فاذا فرغت عن عملها حملتْ مافضَل عن حاجة البيت من فاكهة وحبوب ولم يكن بالشىء الكثير الى سوق المدينة فباعته فيهــا ثم

عادت ببضعة دريهمات تعطيها لسيدتيها

أى إن المزرعة كان يعيش فيها امرأتان وطفلان وخادمان وكلب للحراسة وعنزتان للبن وبضع دَجاجات للبيض لا أكثر من ذلك ولا أقل

وكان لابد للسيدتين من أن تعملا عملا يعينهما على عيشهما ويروّح عنهما سآمة الوحدة وملالها فكانتا تغزلان بياض نهارهما وأحياناً سواد ليلهما على ضوء القمر فاستطاعتا أن تجدا رزقهما ولكنْ مقتراً مكدودا فأكلتا الدُخن والذُرة وشربتا الماء الرنق ولبستا القمُص البنغالية الخشنة التي يلبسها الاماء فى هذه الجزيرة، ومشتا على الارض حافيتين غير منتعلتين الا فى اليوم الذى كانتا تذهبان فيه الى الكنيسة فى حى « پپاموس » لاداء الصلاة ، وقلما كانتا تذهبان الى «پورلويس» عاصمة الجزيرة الا فى الدرجة القصوى من الضرورة حياء من نفسهما وفراراً من أعين الساخرين والهازئين ، فان فعلتا نالهما

من الألم والامتعاض ماينغص عليهما يومهما ، ويستثير كامن حزنهما وألمهما ، ولا يزال هذا القلق يساورهما حتى تعودا الى مزرعتهما ، فاذا أشرفتا عليها ورأتا على بعد منظر خادميهما المخلصين وهما يهبطان اليهما من قمة الجبل ليساعداهما على صعوده وتسلقه وشعرتا بنسيم الحرية العليل يهب عليهما ويمازج أنفاسهما نسيتا فى هذا المعتزل المنفرد كل ما لحقهما وآلم نفسهما من خشونة الناس وقسوتهم وفضولهم وكبريائهم وكأنما قد نبتتا فى هذه البقعة بين نخيلها وأشجارها ولم تريا طول حياتهما بقعة سواها

ولقد عشتُ فى كل جو وبيئة وخالطت جميع الطبقات والهيئات وعاشرت الناس أخياراً وأشراراً وأعلياء وأدنياء وحضرت مواقف الحب بين المتحابّين، والصداقة بين المتصادقين ، فلم أرَ فى حياتى منظراً أجمل ولا أبهج ولا أحلى فى العين ولا أوقع فى النفس من منظر الحب والصداقة بين هاتين السيدتين الكريمتين حتى كان يخيَّل

الىّ أحياناً أن نفسيهما قد استحالتا الى نفس واحدة يحملها جسدان ، وكنت إذا حدثت إحداهما شعرتُ كأنى أحدث الاخرى معها ، واذا حدثتهما معاً كنت كأنى أحدث نفساً واحدة ذاتَ صورة واحدة ولون واحد ، فلقد وحّدتْ بينهما الهمومُ والآلام ، ومازجتْ بين نفسيهما الوحدة والعزلة ، والفكرة والرأى ، والحاجة والمصلحة ، والذكرى المؤلمة ، والبؤس المشترك ، فنطقتْ كل منهما بما نطقتْ به الاخرى ، وشعرتْ بما شعرت به ، وفكرتْ فيما فكرت فيه ، وكأنَّ الله تعالى إذْ زَوَى عنهما الارضَ الفسيحة ذاتَ الطول والعرض وحرمهما فيها نعمةَ العيش الهنىء بدلهما منها تلك الروضة الغنّاء من الحب والاخلاص لتعيشا فيها ناعمتين هانئتين ، لا تمر بسمائهما غيمة ، ولا ترجُف بأرضهما رجفة

فان اضطرمت بين جوانحهما فى بعض الاحايين نارٌ

أقوى من نار الصداقة وأشد منها لهيباً واستعاراً لا تلبث أن تهب عليها عاصفةٌ من دينهما وتقواهما فتلوي بها عن سبيلها وتطير بهـا إلى العالم الثاني كما تتطاير الشعلة الملتهبة في جو السماء إذا فَقدت مادتَها التي تغتذي بها على وجه الارض

وكان أعظمَ ما يؤنسهما ويروّح عنهما ويمازج بين شعورهما وإحساسهما رؤيةُ طفليهما الصغيرين بين أيديهما يمرحان ويلعبان، ويعدُوان ويطفُران، وينامان في مهد واحد، ويستحمان في إناء واحد ، ويطير كل منهما شوقاً إلى صاحبه إذا فَقَد مكانَه وغاب عنه وجهُه ، كأنهما أخوان شقيقان بل توأمان متشابهان

وكثيراً ما كانت تُرضع إحداهما ولدَ الأخرى فتمنحه من عطفها وحنانها ما تمنح ولدَها حتى قالت هيلين مرة لمرغريت « سيكون لكل منا ولدان ، ولكل من ولدينا أمّان »



لكل من الأمين ولدان
ولكل من الولدين أمان

وكان اجتماع ذينك الطفلين اليتيمين على ثدى واحد بعد ما فجعهما الزمان بأسرتيهما وحرمهما حنانَ أبويهما وعطفَهما سبباً فى نموهما وترعرعهما، وسرورهما وغبطتهما، كالصنوين الباقيين من شجرتين قد عصفت الريح بهما وباغصانهما اذا لُقح أَحدُهما بالآخر أورقَا وأثمرَا بابهى وأَجملَ مما لو بقى كل منهما فى مكانه

وكان يلذّ لاميهما كثيراً الحديثُ عنهما وعن مستقبل حياتهما وعن اتصالهما بعقدة الزواج متى بلغا أشدَّهما كانما قد بقيتْ فى زوايا قلبيهما بقيةٌ من ذلك الالم الماضى أَلَمِ حرمانهما الهناءَ الزوجيَّ الذى كانتا تتعللان به فى مؤتنف حياتهما، فهما تتعللان عنه برؤية ولديهما متمتعين به

إلا أن حديثهما هذا كان ينتهى أحياناً ببكائهما ونشيجهما حينما تذكران أنهما قد أساءتا إلى نفسيهما بطموح إحداهما إلى منزلة فى الحياة فوق منزلتها، ونزول الاخرى فيها الى مقام دون مقامها، فعاقبتهما الطبيعية على

تمردهما وشذوذهما بهذا العقاب المؤلم الشديد الذى تقاسيانه وتذوقان مرارته

ولكنهما لاتلبثان أن تسمعا صوت طفليهما الصغيرين يبغمان فى مهدهما ويتناغيان حتى تعودا إلى سكونهما واستقرارهما وتشعرا ببرد العزاء يتدفق فى صدريهما ، خصوصاً عند ما تذكران أن الهناء الذى فاتهما فى ماضيهما لن يفوت ولديهما في مستقبل أيامهما ، وكانتا تقولان إنهما سيقضيان حياتهما بعيدين عن مفاسد المدنية وشرورها ، وتقاليدها العمياء، وأوهامها الباطلة ، فلا ينالهما من أذاها شيء

٧

حياة الطفولة

ولم أر فيما رأيت من عجائب الاشياء وغرائبها أغرب من تلك الصلة التى كانت بين هذين الطفلين الساذَجين الطاهرين ، ولا اعجبَ من ذلك الامتزاج الذي كان بين

روحيهما ، فاذا شكا پول شكت ڤرچيني لشكاته ، وإذا بكى لايخفّض عبرته ولا يُسرّى حزنه إلا رؤيتُها باسمة بين يديه ، وكثيراً ما كانت تتألم بينها و بين نفسها لبعض الشؤون البسيطة فلا يَدلُّ على ألمها وحزنها إلا بكاؤه ونشيجه ، فكانت إذا ألمّ بها ألمٌ طوت عليه ضلوعها وكاتمته نفسها ضنًّا به أن تراه باكياً أو متألماً

وما جئت هنا مرة فى شأن من الشئون إلا رأيتهما معاً يحبُوان أو يدرُجان أو يتداعبان أو يتماسكان، أو يستبقان إلى غاية ، أو يتخاطفان لُعبة ، فلم يكن شيء من الاشياء بقادر على أن يفرق بينهما حتى ظلام الليل ووحشته ، فقد كان لهما مهدٌ واحد يناما فيه معاً عاريين كعادة الاطفال فى هذه الجزيرة وقد تلازما وتآخذا وتوسد كل منهما ذراعَ صاحبه كأنما يخشيان أن يفرق بينهما حادث من حوادث الدهر

وكان أول ما نطقا به من الكلمات كلمتى الاخ والاخت، وهي كلمة جميلة جداً ماخلق الله فى الكلم أجمل ولا أحلي، ولا

أشرف معنى ولا أطرب نغمة منها ؛ ويزيدها جمالا وحسناً صدورها من أفواه الاطفال الصغار كأنها عهد يأخذونه على أنفسهم منذ اليوم أن يكون كل منهما لصاحبه غداً ، أو كأنها راية السلام البيضاء يرفعونها على رءوسهم ويلوحون بها فى الآفاق

ثم أخذت تلك العلاقة الطفلية البسيطة تستحيل مع الأيام إلى صداقة جدية يشعر فيها كل منهما بحاجته إلى الآخر والى معونته ومساعدته ، فبدآ يشتركان فى خدمة المنزل ومناظرة شؤونه ومعاونة أميهما فيما هما بسبيله من طلب العيش ومعالجة القوت ، كلٌّ فى ما هيأته طبيعتُه له

فلحقت ڤرچينى بالزنجية « ماري » تتعلم منها الطبخ والغسل والنسيج وإعداد المائدة وتهيئة الفراش وخياطة الملابس وصنع السلال إلا أنها كانت تُعنَى بما يتعلق بأخيها پول قبل كل شيء ، ولحق پول بدومينج يمينه بفأسه

الصغيرة التي كانت لا تفارق عاتقه على فلح الارض وحرثها وتخطيطها وتقسيمها وتحويل مياهها وقلع حشائشها وتسلق رباها وتقليم اشجارها ، فاذا عثر في طريقه بزهرة جميلة أو فاكهة طيبة أو طائر في عشه أو حشرة في حفرتها أو سمكة ملونة أو محارة ظريفة احتفظ بها في جيبه ليقدمها هدية لڤرچيني حين يعود اليها

وكانا على اختلاف شأنهما واستقلال كل منهما بعمله عن عمل صاحبه على اتصال دائم ببعضهما، فحيث وُجِدتْ ڤرجيني فقد وجد پول معها أو على مقربة منها أو منحدرا اليها أو مشرفاً عليها أو هاتفاً بها ، ما من ذلك بد

وأذكر أني كنت منحدراً ذات يوم من قمة الجبل وكان الجو ماطراً مكفهراً فرأيت ڤرچيني مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة وقد رفعت إزارها من خلفها وأسبلته على رأسها لتتقي به المطر المتساقط فهرعتُ اليها لاساعدها على المسير، فلما دنوت منها رأيت أن ذلك الازار الذي يضمها

لا يضمها وحدها ، بل يضم معها أخاها پول ، فنظرا إلي ضاحكين متهللين كأنهما مغتبطان باهتدائهما إلى تلك الفكرة الجميلة التى استطاعا بها أن يلجآ من ذلك الغيث المنهمل الى ظلة واحدة، فذكرني منظرُها هذا ومنظرُ رأسيهما



پول وفرچيني يضمهما ازار واحد

الصغيرين المتلاصقين فى ذلك الازار بمنظر طفلىْ « ليدا » وقد حُفرا معاً فى محارة واحدة

وكانت حياتهما بسيطة ساذَجة لأن ذهنهما كان بسيطاً ساذَجا خالياً من مشاغل الحياة المركبة وهموها ، فلا

يفكران في شأن غير شأنهما ، ولا يسبحان في محيط غير محيطهما ، ولا ينتقلان بذهنهما من الحاضر إلى الماضى أو المستقبل ، ولا تترامى أبصارهما الى ماوراء الافق المحيط بهما ، كأنهما يظنان أن العالم ينتهى حيث تنتهى جزيرتهما

ولقد أراحهما من عناء البحث والتفكير جهلُهما وأمّيّتُهما وبُعدهما عن هموم العلم ومشاغله ، فلم يُقدَّر لهما أن يسهرا ليلهما مكبّين على المذاكرة والمدارسة حتى يغلبهما النوم فيناما في مكانهما ، ولم يذرفا الدموع الغزار يوما من أيامهما أمام معضلة من معضلات العلم أو مشكلة من مشكلاته حتى تتقرح أجفانهما ، ولم يثُر غيظَهما وحنقَهما عجزُهما عن التغلب على خصومهما في ميدان المجادلة والمناظرة حتى تنشقّ مرارتهما غيظاً وحنقاً ، وماشعرا في ساعة من ساعات حياتهما بحاجتهما إلى أن يعرفا غير ما يعرفان ، لانهما يعلمان أنهما ما خلقا إلا ليعيشا سعيدين هانئين وهاهى السعادة تظللهما باجنحتها البيضاء وتتدفق بحراً زاخراً تحت أقدامهما ، وليؤديا واجب

الحب والاخلاص لذينك الشخصين الـكريمين عليهما وها هما يقومان لهما بهذا الواجب بأفضل ما يقوم به عبد لسيده بل عابد لمعبوده

فما بهما من حاجة الى من يعلمهما أن الكذب حرام ، لانهما لا يكذبان ، ولا أن السرقة جريمة ، لان جميع ما يقع تحت متناول أيديهما ملك مشترك للجميع ليس أحد أولى به من الآخر ، ولا أن الجشع رذيلة ، لان ما يشتمل عليه كوخهما بسيط محـدود لا يحتمل جشعاً ولا نهَماً ، ولا أن البر بالوالدين واجب ، لانهما كانا يعبدان أميهما عبادة هى فوق البر والاحسان ، ولا أن الصلاة فريضة ، لانهما وان لم يذهبا مرة واحدة إلى الـكنيسة فقـد كان يصليان فى كل أرض ، وفى كل جو ، فى البيت والمزرعة ، والقمة والرابية ، والسهل والجبل ، وفـى بكور الأيام وأصائلها ، وأوائل الليالى وأواخرها

*
* *

وكذلك أشرقت حياتهما الاولى اشراق الفجر المنير في صفحة الافق مبشراً بيوم صحو جميل، وأخذت تمر بهما الايام عذبة صافية جريانَ الغـدير المترقرق على بياض الحصباء، سواءٌ ليلُها ونهارها، وصبحها ومساؤها

وكان من شأن ڤرچيني أن تستيقظ صباح كل يوم مبكّرةً والطير لم يفارق وَكره فتحمل جَرّتَها وتذهب بها الى نبع صاف كان على بعد مرحلة من المزرعة فتستقي منه المـاء ثم تعود فتجلس لتهيئة طعام الافطار، حتى اذا طلعت الشمس من خدرها وأخذت تنفض بيدها غبار الظلام عن وجه الارض وتمسح جبين الطبيعة المـكتئبَ بريشة أشعتها الذهبية أقبلتْ مرغريت من كوخها هي وولدها فتبادلوا جميعاً تحية الصباح ثم اصطفوا لاداء الصلاة وبسطوا أيديَهم الى السماء ضارعين الى الله تعالى أن يكلأهم بعين رعايته ويبسط عليهم جناح رحمته وأن يهيء لهم من أمرهم رشداً، فاذا انتهوا من صلاتهم خرجوا خارج

الكوخ لتناول الطعام على مائدة جميلة من العشب الاخضر تحت ظُلة دانية من خمائل الاشجار تتساقط عليهم قطع النور من فجواتها كأنها النِثار الفضيّ اللامع

فكان أثرُ ذلك الغذاء الطبيعي البسيط تحت هذه السماء الصافية وفوق تلك الارض النديّة المخضلّة عظيما في نمو الولدين وترعرعهما ونَضرة وجوههما وحلاوة ملامحهما، فلم تبلغ ڤِرجيني الثانية عشرة من عمرها حتى استقام عودها واعتدل قوامها وتهدّل شعرها الاصفر اللامع على كتفيها كأنما قد صيغ من خيوط الشمس، وأضاءت عيناها الزرقاوان بنور سموي غريب كأنه قبس من النور الالهي ، فان ابتسمت ابتسمتا معها كأنهما ثغران ضاحكان ، وان قطّبت سبحتا وحدهما في أجواز الفضاء ، حتى تلتقي زرقتهما بزرقة السماء

أما پول فقد كانت قامته أطول قليلا من قامة ڤرجيني ونظره أحدّ من نظرها ، وأنفه أكثر شمما من أنفها، ولونه

أقربَ إلى السمرة من لونها، أى أن ملامحه كانت تذهب مذهب الرجولة فى تكوّنها واستدارتها ، وكانت تنبعث من عينيه نارٌ من القوة والنشاط تكاد تلتهب التهابا لولا تلك الأهداب النديّة السوداء الحافّةُ بهما

وكان لايزال ثائراً مهتاجا مايهدأ ولايسكن حتى تُقبل عليه فرچينى وتجلس بجانبه فاذا هو الطفل الصغير بساطة وسذاجة ووداعة ولطفا

وكثيراً ما كانا يجلسان معاً صامتين هادئين ساعاتٍ طوالا على ضفة نهر أو حافة ينبوع أو ربوة عالية أوقمة مشرفة وقد اضطجع كل منهما بجانب الآخر ومدّ قدميه العاريين كأنهما تمثالٌ رخامى عتيق من تماثيل أولاد « پينوب »[1] وكأنّ حياتهماحياةُ الملائكة الابرار فى عالمها العُلوىّ لا تشعر بحاجتها الى الحروف والكلمات فى التعبير عن شعورها وإحساسها

---

(١) بينوب زوجة عولس أحد أبطال اليونان فى عهدها القديم

ولِمَ يتكلمان وقد قامت لهما نظراتهما المتمازجة وابتساماتهما المتماوجة مقام الالسنة فى نطقهما وإفصاحها، ولم يكن حبهما حبا صناعيا ولا متكلفا فيحتاجا الى استدامته واستبقائه وتأريث (١) ناره فى قلبيهما بالملق والدهان والتدليل والترفيه وخلابة الالفاظ وسحر البيان، لا بل لو سُئل أحدهما عن الحب وتعريفه وصفاته لما استطاع أن يجيب بشيء، لانه لا يفهم من الحب سوى انه فى حاجة الى بقاء صاحبه بجانبه لا يفارقه ولا يغيب عن وجهه، لا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئا، ولقد استقر هذا الشعور فى نفسيهما وملك عليهما حواسهما ومشاعرهما فلم يفكرا فى تشخيصه وتحديده واستعراض صوره وألوانه، فكان أشبه شيء بالايمان فى قلوب العجائز والالهام فى أنفس الحيوان والعبقرية في أذهان الخاملين المغمورين، فهما ينعمان بحب هادىء لطيف لا جلبة فيه ولا ضوضاء، ولا تجاذب ولا تآخُذ، ولا شكوى

(١) أرث النار أوقدها

ولا عتاب ، ولا سهرَ ولا قلق ، ولا خوفَ من الطوارق ، ولا خشيةَ من الفواجئ

إلا أن هيلين وقد رأت فتاتها تنمو وتترعرع ويتلألؤ وجهها بتلك المحاسن الباهرة بدأت تفكر فى أمرها وأمر مستقبلها وتقول فى نفسها ماذا يكون مصير هذه الفتاة المسكينة غداً إن عَدَت علىَّ عوادى الدهر وفرقت المنيةُ بينى وبينها وخلفتْها وحدها هنا فى هذه القفرة الجدبة بين هذه الخلائق الغريبة وحيدة منقطعة لا سند لها ولا معين

وكانت لها فى فرنسا عمة مثرية ثراء واسعاً الا أنها كانت امرأة متكبرة تيّاهة شديدة الذّهاب بنفسها مدلّةً بجاهها ونفوذها متشددة فى آرائها وأفكارها، فنقمت عليها أشد النقمة لاتصالها بذلك الفتى الفقير الذى اختارته زوجا لها ، وعدّتْ حادثتها هذه نكبة من أعظم النكبات التى حلتْ بها وبأسرتها فأبت أن تغفر لها زلتها وأن تمد لها يد المعونة عند ما عزمت على السفر الى هذه الجزيرة

واستهانت بدموعها وآلامها، وضراعتها ومناشدتها، فسافرت
وقد آلت على نفسها أن لا تلجأ اليها فى شأن من شؤون حياتها
ماتردّد لها نفسٌ على وجه الأرض، أما الآن وقد أصبحت أمًّا
يَعنيها من أمر فتاتها ما يَعنى الأمهاتِ من أمر فتياتهن فلم
تر بدًّا من أن تحمل نفسَها على ذلك المكروه الذى عافته
برهة من الزمان فكتبتْ الى تلك العمة القاسية كتاباً
طويلا أفضت اليها فيه بخواطر نفسها ووساوس قلبها
وقصت عليها قصة حضورها الى هذه الجزيرة وما كان
من وفاة زوجها على أثر حضورها وحياتها الشقية التى
تحياها الآن من بعده وحيدة منقطعة لا ناصر لها ولا معين،
وظلت تحدثها حديثاً طويلا عن ابنتها وما تخشاه عليها
فى مستقبل حياتها إن نَشَب بها ظُفُر جارح من أظفار الدهر
وفرقت المنية بينها وبينها، ثم قالت لها فى ختام كتابها «إن
كنتِ تَرَيْنَ انى لا أزال مذنبة بعد ذلك وأن تلك
الدموع السخية التى روَّيتُ بها ثرى الأرض اثنى عشر عاما

لا تكفى لمحو زلتى من صحيفة أعمالى فارحمى هـذه الفتاة المسكينة من أجلها لا من أجلى ، فهى حفيدة أخيـك وغصن دوحتك والبقية الباقية من أسرتك »

ولبثت تنتظر رداً على كتابها فلم يأتها فأتبعته بآخر ثم بآخر وضرعت فى ذلك ضراعة لم يكن مثلها مما يهون عليها لولا عاطفة الأمومة ورحمتها ، حتى كانت سنة ١٧٣٨ أى بعد قدومها هنا باثنى عشر عاما وبعد مرور ثلاث سنوات على قدوم مسيو « دى لابورزدونيه » حاكما على الجزيرة إذ علمت أن ذلك الرجـل يسأل عنها ليسلمها كتابا ورد عليها من عمتها فاستطيرت فرحا وسروراً وعلمت ان أيام شقائها قد انتهت وأن الله قد رحمها ورثى لبؤسها وشقائها وهرعت الى « پورلويس » لمقابلته فدخلت عليه فى ذلك الثوب البنغالىّ الخشن الذى اعتادت أن تلبسه فى بيتها غير حافلة بشئ الا بتلك السعادة التى ستتقدمها عما قليـل لابنتها فاستقبلها الرجلُ استقبالا جافاً خشناً ، وهى المرأة الشريفة

الطاهرة التى تُغضى العيون بين يديها إجلالا وإكبارا ، والبائسةُ المسكينة التى تهابها النفوس مرثاة لها ومرحمة لبؤسها وشقائها ، ولم يزد على أن أومأ اليها برأسه إيماءة خفيفة ؛ ثم تقدم نحوها بعظمة وكبرياء وأعطاها كتابها ، فاختطفته



« حاكم الجزيرة يقدم لهيلين كتاب عمتها »

من يده وأنشأت تقرؤه بلهفة وسرور الا أنها لم تقرأ منه بضعة سطور حتى امتُقع لونها وارتعشت يدها وترنحت فى مكانها

ترنح الشارب الثمل، فقد كتبت اليها عمتها تؤنبها وتقرعها تقريعاً مؤلماً مهينا وتشمت بها وبمصيرها وتقول لها هذا جزاء تمردك وعصيانك وخروجك على أهلك وقومك وانقيادك الى شهوتك البهيمية واسترسالك فيها استرسالا دفع بك الى أحضان ذلك الفتى الوضيع المهين الذى لا يليق به أن يحل سيور حذائك حتى جلبت على نفسك وعلى أهلك العار الذى لا يمحى ، ولقد أحسنت كل الاحسان بمغادرتك هذه البلاد وفرارك الى تلك الجزيرة النائية المنقطعة لتدفنى فيها نفسك وعارك الى الابد ، وما موت زوجك وولادة ابنتك وشقاء عيشك والوساوس التى تعتلج فى صدرك خوفاً على فتاتك وعلى مستقبلها الا عقوبة أنزلها الله بك ليمحص عنك ذنوبك ويمهد لك سبيل غفران سيآتك ، فاصطبرى لها ولا تجزعى حتى يقضى الله قضاءه فيك

ثم أنشأت تدل عليها بنفسها وتفاخرها بعفتها وطهارتها وترفعها وإبائها وأنها قضت أيام حياتها عانساً

متبتلة ما تَزلِق بها شهواتها فى هُوة من تلك الهُوَى التى تَزلِق فيها أقدام النساء الجاهلات ولا تُسلِم قيادها الى رجل من الرجال زوجاً كان أو خليلاً ضنَّاً بحريتها أن تعبث بها أيدى المطامع والاهواء

وكانت كاذبة فيما تقول، فهى امرأة دميمة شوهاء غريبة الاخلاق والطباع ليس لها من المزايا الا ثروتها الطائلة وجاهها الواسع ومكانتها من البلاط الملكى، وكان كبرياؤها الكاذبُ يأبى عليها إلا أن تتزوج من رجل من ذوى البيوتات العظيمة والألقاب الضخمة، وليس بين هؤلاء جميعاً من يقبل ان يبيعها نفسه بيعاً مهما بلغ من رقة الحال وشظف العيش، ولم يزل هذا شأنها حتى تجاوزت سن الزواج وضاعت بين سخافتها وكبريائها

ثم ختمت كتابها بقولها « لا بد لك ان تعملى لنفسك فقد علمتُ أنك فى جزيرة صالحة للعمل والاستثمار وان جميع المهاجرين الذين يؤمونها يعودون منها بالثروة الطائلة

والربح الكثير ، على انى قد كتبت الى مسيو (دي لابُورْدونيه) حاكم الجزيرة أوصيه بك خيراً فاعتمدى عليه وعلى معونته ولا تكتبى الى بعد اليوم»

وكانت صادقة فى كلمتها هذه ، فانها كتبت إلى ذلك الرجل كتاباً توصيه بها فيه إلا انها ملأته بذمها وثلبها والاستطالة عليها فى عرضها وشرفها كأنما تلتمس لنفسها عذراً عنده فى قسوتها عليها وعُنفها بها وضنّها عليها بالمعونة والمساعدة

فكان من أثر ذلك فى نفسه أن ازدراها واحتقرها وتجهّم لها حين رآها، ثم ودعها بمثل ما استقبلها به، لم يسألها عن شأن من شؤونها ولم يمنحها غير وعود كاذبة كان ينطق بها بلهجة جافة خشنة مملوءة ضجراً ومللاً ، فكأنما أوصته بقتلها والقضاء عليها

٨
العزاء

عادت هيلين الى المزرعة ونفسُها تسيل لوعة وأسى فما بلغت كوخَها حتى ألقت بالكتاب على المِنضدة وتهافتت على سريرها باكية منتحبة فهرعَتْ اليها صديقتُها تسألها ما شأنهـا ، فاشارت الى الكتاب وقالت ها هى ثمرة حياتى من أولها إلى آخرها ، ولم تكن مرغريت تحسن القراءة فأتتها بالكتاب فانشأت تقرؤُه عليها وفؤادها يتمزق لوعة وأسى ، فقاطعتْها مرغريت وأقبلت عليها تقول لها متى تَخلى اللهُ عنا يا هيلين فنلجأَ إلى النـاس فى شؤوننا ، ونعتمدعليهم فى رزقنا ، ونحن أغنياءُ عنهم بما هيأ الله لنا من القوت فى هذه الجنة الصغيرة التى نعيش فيها ، فما فينا من يشكو جوعاً أوعطشاً ، ولا من يمشى عارياً أوحافياً ، ولا من يبيت مغتماً أومحزوناً ، فروِّحى عن نفسك فالله أرحم بك وبنا من الاقارب والاصدقاء ، ثم عجزت عن

امتلاك نفسها والاستمرار في حديثها فاختنق صوتها بالبكاء ، فتهافتت هيلين على عنقها وضمتها الى نفسها وظلت تقول لها آه يا صديقتي ! آه يا صديقتي !

وكانت ڤرچيني واقفة بجانبهما فأثر في نفسها هذا المنظر المحزن فاستعبرت باكية وظلت تتناول يد أمها مرة ويد مرغريت أخرى فتقبلهما وتبللهما بدموعها وتقول لهما أرجو أن لا يكون ذلك من أجلي ، فبكى لبكائها الزنجيان وكانا واقفين عند الباب واشتد نحيبهما ونشيجهما ، أما پول فقد عصفتْ في رأسه عاصفةُ الغضب وظل يضرب الأرض بقدميه ويشير بيديه متهدداً متوعداً لا يعلم من يهدّد ولا من يتوعّد ، ولا على أى رأس من الرؤوس يرسل صاعقة غضبه ، لانه لم يفهم مما كان شيئاً ، فكان هذا المأتمُ الغريب في تلك الساعة الرهيبة مظهراً من مظاهر الحب والاخلاص والولاء بين قوم جمعتهم جامعة البؤس والشقاء ، ووحدت بين قلوبهم الهموم والآلام ، وما اجتمعت

القلوب على شيء هو أجمع لشملها وأوثق لرباطها من اجتماعها حول مواقف الهموم والاحزان ، فسُرِّي عن هيلين قليلا وضمت بول وفرچيني الى صدرها وقالت لهما إنكما وان كنتما يا ولديَّ سبب أحزاني وآلامي ولكن الشقاء لم يأتني منكما ، فلم يفهما شيئاً مما تقول ولكنهما علما انها قد هدأت وسكنت ، وانها تبتسم لهما ، فاعتنقاها وقبلاها

وما لبثوا جميعاً ان عادوا إلى سرورهم وغِبطتهم ولعبهم ومرحهم

وكانت تلك الحادثة أشبه بشيء بسحابة وقفت دون وجه الشمس ساعة ثم اضمحلت

٩

الاستعمار الاوربي

مضت على ذلك أيام والولدان ينموان في جوهما نمو النبات المحيط بهما وينمو معهما طيب أخلاقهما وحسن سجاياهما، فبينا ڤرچيني جالسة في الكوخ ذات يوم تهيء طعام

الافطار لاسرتهـا كعادتها والشمس لا تزال فى خدرها وأمّاها قدذهبتا مع دومينج لاداءصلاة الأحد فى كنيسة « يَمِيلموس » وپول فى الحديقة يشذّب بعض أشجارها وماري وراء الكوخ تشتغل ببعض شؤونهااذ دخلتْ عليها زنجيـة مسكينة آبقة [1] كأنها الهيكل العظمى نحولاً وهُزالاً ليس عليها من الثياب إلاخرقةبالية تدور بحقْويها [2] فجثت على ركبتيها بين يديها باكيةمنتحبةوأنشأت تقول لها الرحمةَ الرحمةَ يا سيدتى فانىأكاد أموت جوعاً ، وقد مرّ بى يومان وانا أجوب هذه الجبـال والغابات أتوارى مرة وأظهر أخرى وأقتات كل ما هوفوق التراب مخافة ان تقع علىّ عيون بعض الفضوليين من الصيادين فيعيدونى الى سيدى ، والموت أهون على من ذلك ، فهو رجل قاس غليظ لا يزال يجلدنى ويمزق لحمى بسوطه كلما بدا له أن يفعل ذلك ، ثم كشفت ثوبها عن جسمها وأشارت الى مواضع الضرب منه

---

(١) الجارية الآبقة الهاربة من مولاها (٢) الحقو الخصر

فاذًا خطوط حمراء ملتهبة لا يستطيع نظر الناظر أن يثبت أمامها لحظة واحدة ، ثم قالت : ولقد حدثتُ نفسى كثيراً بالانتحار فما كان يمنعني منه الا الخوف والجزع، ثم سمعت الناس يتحدثون عنكم حديثا حسنا ويقولون إنكم وإن كنتم من هذا الجنس الأبيض المخيف ولكنكم قوم محسنون راحمون ، فأضرعُ اليك ياسيدتي أن ترحميني وتعودى عليّ بلقمة أتبلّغ بها وأن تحولى بيني وبين شقائي ، وهنا اشتد بكاؤها ونحيبها فأوَتْ[1] لها فرچينى ورقت لها رقة شديدة ونهضت الى الطعام الذى كانت أعدته لأسرتها فأتتها به فالتهمته فى لحظات قليلة وأخذ وجهُها يتَطلّق فرحا وسروراً ، فقالت لها فرچينى أتحبين أن أذهب معك الى سيدك وأشفع لك عنده عله يعفو عنك ويرحمك ويكون لك فى مستقبله خيراً منه فى ماضيه؟ وما أحسبه الا فاعلاً حين يرى بؤسك وشقاءك ومنظر جسمك المعذب المقروح ، فشكرتْ لها الجاريةُ فضلها ورحمتها

---

(١) أوى له واليه بالقصر رحمه ورثى له

وقالت لها سأتبعك يا سيدتى حيث شئت فأنت ينبوع الرحمة والاحسان

فهتفت ڤرجيني بپول فحضر فحدثته حديث الجارية والرأىَ الذي رأته لهـا فوافقها على رأيها واقترح عليها أن يرافقها فى رحلتها ثم سارا معاً والجارية تتقدمهما وتخترق بهما الغابات والأجمات فى ممرات مستدقة غامضة تعرفها، وكانت تعترضهما في مسيرهما بعض هضبات عالية كانا يجدان مشقة عظمى فى تسلقها حتى أشرفا وقت الظهيرة على ضفة النهر الاسود حيث مُقام الرجل، فانحدرا اليه وهناك شاهدا بِنْيةً عظيمة فخمة تحيط بها حدائقُ غناءُ وأدواحٌ ملتفة ومزارعُ منبسطة وعبيدٌ كثيرون منتشرون فى كل مكان يحرثون ويحصدون ويحفرون ويخوضون الأوحال ويحملون الاثقال ويقطعون الصخور، ولمحا صاحب المزرعة يتمشى بينهم مِشية الخيلاء و « غليونه » فى فمه ينفُث منه الدخانَ وبيده عصا خيزران طويلة، وهو رجل طويل القامة مهزول الجسم غائر العينين

مقرون الحاجبين أخضر اللون مقطب الجبين كأنما قد جثمت روحه الشريرة بين عينيه واستعدت للوثوب على كل مايدنو منها ، فارتاعت ڤرچيني لمنظره المرعب المخيف الا انها لم تجد بدأ من التقدم فمشت نحوه خائفة مضطربة تعتمد على يد پول والجارية من خلفهما تتبعهما حتى بلغته فجثت بين يديه وأخذت تضرع اليه أن يعفو عن جاريته المسكينة ويرحمها وتناشده الله والكتاب في ذلك ، فلم يكترث في مبدأ أمره لمنظر فتى وفتاة فقيرين زريين في ملبسهما وهيأتهما الا انه لما وقع نظره على ڤرچيني ورأى منظرها البديع الجذاب وشعرها الاصفر الذهبي المسترسل على ظهرها وتلك العصابة الزرقاء التي تدور بجبينها الأبيض المشرق، ورأى ماء الحياء يترقرق في وجهها ترقرق الطل على ورقات الورد ، وسمع صوتها الرخيم المتهدج كأنه ينبعث من آلة موسيقية شجية بهت وشده وأخرج غليونه من فمه وابتسم ابتسامة نكراء وتقدم نحوها قليلا

وألقى عليها نظرة فاجرة مريبة، وقال لهـا قد عفوت عنها أيتها الفتاة الجميلة لا من أجل الله ولا من أجل الكتاب بل من أجلك أنت

فأشارتْ ڤرچيني الى الجارية أن تتقدم لتشكر لسيدها نعمتَه وفضله ثم انكفأتْ راجعة تركض ركوض الهارب وپول يتبعها حتى ارتقيا الجبلَ الصغير الذى هبطا منه وجلسا تحت دَوحة من أدواحه يستريحان ، وكان التعب قد نال منهما منالا عظيما ، فقد قطعا فى ذلك اليوم خمسة فراسخ فى أرض صخرية وعرة لا يستريحان فيهـا ولا يهدآن ولا يتبلّغان[1] بطعام ولا شرابٍ ، فقـال پول لڤرچيني : ها قد مال ميزان النهار وبيننا وبين مزرعتنا مفازةٌ منكَرةٌ لا أحسَبُ أننا نستطيع قطعَها قبـل الغروب ، وليس فى هذه البطحاء المحيطةِ بنا شجرةٌ واحدة ذاتُ ثمر صالح نَطعَمه أو نَنقَع ظمأنا بعصارته وأنتِ ظامئة

---

(١) تبلغ بالشيء اكتفى وقنع

جائعة لا طاقةَ لكِ بالصبر على أكثرَ مما صبرتِ ، فخيرٌ لنا أن نعود الى مزرعةِ مَولىَ الجارية ونطلبَ اليه أن يُمدنا بشيء من الطعام والشراب ، وما أحسبه ضانًّا علينا بهما

فوجمتْ ڤرجيني وقالت : لا يا پول ، إن هـذا الرجل قد ملأ قلبي خوفاً ورعباً ، وما أحب أن أرى وجهه مرة أخرى ، واذكرْ تلك الكلمة التي كانت تقولها لنا أمي دائماً « ان خبز الاشرار يملأ الفم حصى » فلنمض في سبيلنا ، وما أحسب أن الله يخذُلنا أو يتخلى عنا

قال وما العملُ والشقةُ بعيدة والمنالُ وعرٌ والارض قاحلة جدباء لا ماءَ فيها ولا ثمرَ ولا شيءَ مما يتبلّغ به المتبلغ أو يتعلل به الظامئ

قالت إن الله الذي يسمع زقزقة العُصفور الصغير في عُشه فيرسل اليه الحبةَ التي تَقوته والقطرةَ التي ترويه

سيسمع دعاءنا ويردّ لهفتنا ، وما ذلك عليه بعزيز

ثم سارا فى طريقهما فما أبعدا إلا قليلا حتى سمعا خريرَ ماءٍ على البعد فانتعشا وصاحا بصوت واحد « ان ههنا ماء » وتبعا الصوتَ حتى وصلا إلى صخرة عظيمة عالية يتفجر من صدوعها ماءٌ زلال رَقراق كأنه ذَوْب البلّوْر فى شفوفه ولمعانه فشربا منه حتى ارتويا ووجدا من حوله بعضَ الاعشاب التافهة فأصابا منها قليلا ثم جلسا فى مكانهما

وإنهما لكذلك اذ لمحا على البعد نخلة صغيرة من نخيل الجوز ، والجوزُ أنواع كثيرة متعددة ، وهذا النوع منها دقيقٌ مستطيلٌ لا يزيد حجم ساقه عن حجم ساق الانسان إلا قليلا ، وربما ذهب فى الهواء ستين قدماً أو أكثر ، وله فى شعَفاته[1] لفائفُ ضخمة متراكبة أشبه شيء بلفائف الكرنب تحمل فى جوفها طلعا أبيض ناصعاً حلو الطعم جيد الغذاء

---

(١) شعفاته أعاليه

فابتهجا بها إذ رأياها وهرعا اليها ، وكانا بين أن يَصعداها ، وهو مالا سبيل إليه ، أو يقطعاها وهو ما تَعيا به قوتهما ، لأن جذعها على رقته ونحافته مؤلف من خيوط ليفية متداخلة متينة النسج سميكة القشرة تعيا بها الفؤوس القاطعة ، فلم يبق أمامهما إلا أن يحرقاها فتهوى بين أيديهما فيظفرا بثمرها ، ولم يكن لديهما نارٌ ولا شيء مما تُقتدح به النارُ ، وليس فى تلك المدَرَة جميعها على كثرة صخورها وأحجارها واختلاف صورها وأشكالها حجر من أحجار الاقتداح ، ففتقت الحاجةُ لبول حيلةً من أغرب الحيل وأبدعها ، وقديما فَتَقت الحاجات حيلَ الرجال واستثارت دفائن ذكائهم وفطنتهم ، وما انتفع العالم في جميع شؤونه وأحواله بمثل ماتَفتقه الحاجات والضرورات ، ولا نبتت أغراس المعارف والعلوم والمستكشفات والمخترعات إلا فى تربة الفقر والاقلال ! ، فعمَد إلى

ظِرٌّ (١) رقيق الاطراف مما يَقُوم لدى سكان تلك الاصقاع مقام المُدى فى منفعتها وجدواها فبرى به طرفَ غصن يابس متين حتى صيَّره كالسهم ، ثم عمد إلى غصن آخر من نوع غير نوعه فثقبه ثقباً دقيقاً بحد ذلك الحجر نفسه ، ثم أدخل طرفَ الغصن الاول فى ثقب الغصن الثانى بعد ماشد عليه بقدمه وظل يديره بكلتا يديه بسرعة عظيمة ، فما هى إلا لحظاتٌ حتى التهب الغصنان وانبعث منهما دخان وشَرر ، فجمع بضعة أعواد يابسة وأوراق جافة وألقاها على النار فاشتعلت فأدناها من ساق النخلة فنشَبت بها ، ولم تلبث إلا قليلا حتى هوت بين يديه هُوِيَّ الكوكب النارىّ من سمائه ، فأخذ يفض اللفافات عن طلعها الابيض النضير ، وجلس هو وفرجينى يشتويان ويأكلان ألذّ طعام وأهنأه حتى اكتفيا ، ومرت بهما ساعةُ سرور وغبطة نسيا فيها بؤسهما وشقاءهما ، ثم مالبثا أن جمعا شتات

---

(١) الظر الحجر المحدد

نفسهما وأخذا يتمثلان حيرتهما وضلالهما وبُعد الشقة بينهما وبين أرضهما ويذكران قلق أمهما عليهما وجزعهما لغيابهما ويقولان فى أنفسهما لا بد أن تكون الظنون قد ذهبت بهما مذاهب سيئة فى شأنهما حينما عادتا من الكنيسة الى المزرعة فلم تجداهما ولم تعرفا الوجه الذى ذهبا فيه

ثم نهضا من مكانهما وأخذا يدوران بانظارهما يَمنة ويَسرة ليتعرّفا الطريق التى أتيا منها فأضلاها فسُقط فى أيديهما ولم يعرفا كيف يعودان ، وكان پول أهدأ من ڤرچينى روعا وأثبت جأشاً فظل يعللها ويهدئ روعها ويقول لها إن كوخنا يكون دائما فى مثل هذه الساعة تحت قرص الشمس ، فاذا نحن اتجهنا جهة الشرق لا نحيد عنه يمنة ولا يسرة ثم صعدنا هذا الجبل المثلث الرأس الذى نراه أمامنا لا نلبث أن نجد أنفسنا فى مزرعتنا

وأخذا يسيران فى الوجهة التى توهّماها فمرا بغابات كثيرة وأَدواح ملتفّة وهضاب عالية وأنهار جارية لم يطأ

السائحون لها أرضا حتى اليوم ، وظلا على ذلك ساعتين حتى اعترض طريقهما نهر واسع يتدفق ماؤه تدفقاً فذعرت ڤرچيني لمنظره ومنظر الصخور السوداء الجاثمة فى مجراه واستحال عليها أن تضع قدمها فيه ، فلم ينشب[1] پول أن حملها على ظهره وخاض بها الماء لا يحفل بتياره المتدفق ولا بصخوره المتزلقة وظل يقول لها وهو سائر بها : لا تخشى شيئاً يا أختاه فاننى جلد قوى لا يعجزنى حمل شىء من الاشياء مهما كان ثقله ، وأشعر أنى أزداد قوة وجلداً حين أكون معك ، وأستطيع ان أقول لك إن نفسى كانت تحدثنى بشر عظيم لذلك الرجل مولى الجارية حينما ظننت أنه احتقرك وازدراك فلم يحفل بك ولا برجائك ، ولو أنه فعل لبطشت به بطشة لا أبالى بعواقبها

فاضطربت ڤرچيني وقالت له ولكنك لا تفعل ياپول ، إلا إذا أردت أن تكون غلاماً شريراً ، دع الاشرار ياصديقى

---

(١) لم ينشب لم يلبث

وشأنهم ، لا تَهِجهم ، ولا تعترض طريقهم ، عسى أن يموت
شرهم فى صدورهم حينما لا يجد له مضطرَباً ولا مُنتدَحا ، ثم
تنهدت ورفعت رأسها إلى السماء وقالت : آه يارب لمَ لم
تجعل طريق الخير سهلا ليناً كطريق الشر



پول يخوض النهر حاملا
فرجيني على ظهره

ولم يزل سائراً بها حتى بلغ الضفة الاخرى ، وأراد

أن يستمر فى سبيله حاملا إياها على ظهره حتى يصعد بها الجبل المثلث الرأس اعتزازاً بقوته و بأسه فألحت عليه ألا يفعل فأنزلها

واستمرا سائرين فى أرض وعرة كأداء [1] كاطّراد السيف تحفى فيها النعال وتدمى الاقدام ، وكانت فرجينى قد نسيت نعلها فى كوخها حينما وَرد عليها من أمر تلك الزنجية المسكينة ما أذهلها وطار بلبها فأضرّ بها الجهد وأدمى قدميها المسير، فلم تزل تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى جدول ماء جار فترامت على ضفته وأخذت تنضح قدميها بمائه ، ثم مدت يدها إلى شجرة فرعاء حانية عليه فاقتطعت بعض أعوادها وأوراقها ونسجت منها لنفسها ما يشبه النعل فانتعلته فهدأ بعض ما بها ، وأقبلت على بول تقول له هاهى ذى الشمس قد أشرفت على المغيب ولا تزال الشقة بيننا وبين المزرعة بعيدة جداً وق[illegible]ن منى التعبُ ولم يبق لى جلدٌ

(١) الأرض الكأداء الشاقة الوعرة

على المسير، فاتركنى وحدى هنا واذهب إلى المزرعة لتخبرَ أهلنا خبرنا فيطمئنوا علينا وابعثوا إلى من قِبلكم أحد الخادمين ليحملني إليكم، فأبى پول مستعظما الأمر وقال الموتُ أهون على من أن أتركك وحدك في هذا المكان الموحش المقفر فسأبقى معك ما بقيتِ ، فان أظلّنا الليل قطعت لك نخلة من نخيل الجوز فأطعمتك ثمرها كما فعلتُ الغداةَ ثم نسجتُ لك من أعوادها وأغصانها مهاداً لينا تنامين عليه وأنا ساهر بجانبك حتى الصباح

فأذعنت لرأيه وكانت قد شعرت بشيء من الراحة بعد ما خَصفت قدميها بتلك الاعواد المخضلّة ، فقامت تعتمد بيمناها على فرع قطعته من تلك الشجرة وبيسراها على كتف پول حتى بلغا غابة كثيفة قد أحاط بها من جميع أقطارها كثير من الأدواح الباسقة الملتفة فدخلاها وما أمعنا فيها الا قليلا حتى احتجب عنهما وجه الشمس وراء تلك الهضابِ الشامخة والأدواح العالية وغاب عن عينيهما

الجبل المثلث الرأس ، وكان علَمهما الذى يهتديان به ، فاذا هما في مَضلة يهماء لا يريان فيها غير الصخور العالية والهضاب المشرفة والأشجار المتشابكة والمسالك المتشابهة والأعماق المتغلغلة فذعر بول ذعراً شديداً ووقف في مكانه حائراً ذاهلا لا يدرى ماذا يأخذ وماذا يدع ، ثم اندفع يعدو ههنا وههنا هائماً مخبولا علّه يجد طريقاً أو مسلكاً أو دليلا يَهديه الطريق فلم يجد ، فتسلق شجرة عالية ووقف بين فرعين من فروعها وظل يدور بنظره حوله ليرى موضع الجبل المثلث الرأس أو يرى قرص الشمس فى منحدَرها الى مغربها فلم ير غير ذوائب الأشجار العالية تتلألؤ على أوراقها الخضراء أشعةُ الشمس الذهبية قبل انحدارها الى الغروب وغيرَ الظلال الممتدة التى يرسلها الليل طلائعَ لجيوشه الزاحفة المتدفقة ؛ وكانت الريح قد هدأت وخفت صوتها شأنَها ساعة الغروب وساد السكون على كل شيء ، فأصبحت الغابة كأنها كوكب من كواكب السماء السابحة فى أجواز الفضاء ،

لا يدِب فيها حيوان ، ولا يخطر انسان ، فملك الخوفُ قلب پول وجُن جنونه ،وأخذ يصيح بأعلى صوته لا يدرى من يحدِّث ولا من ينادِى ، الغوثَ الغوثَ ، النجدةالنجدة ، الىّ أيها الناس لتنقذونى وتنقذوا فرچينى البائسةالمسكينة، فلم يجبه غيرالصدى المتردد



پول يصيح ويستنجد الناس

ولم يزل يكرر هذا النداء والصدى يردد صوته حتى

خيل اليه أن صوته قد أصبح صدى من تلك الأصداء ،
فنزل من مكانه خائراً متضعضعاً ، ليس وراء مابه من الهمّ
غاية ، ثم وقف وأجال نظره فى الفضاء فلم ير ماءً ولا ثمرا ،
ولا نخيلا ولا شجرا ، ولا كِنًا ولا مأوى ، ولا شيئاً مما
يقتات به المقتات ، أو يتعلل به المتعلل ، فصرخ صرخة
عظمى وتهافت على الارض باكياً منتحباً ، فذعرت ڤرچينى
حين رأته على تلك الحالة وهرعت إليه وضمته إلى نفسها
وظلت تقول له : لاتبك يابول فان بكاءك يقتلنى هما وكمداً ،
واغفر لى جريمتى التى أجرمتها إليك فلولاى لماقاسيتَ هذا
البلاء الذى تقاسيه الآن ، ولقد كان خيرا لى ألا أُقدمَ على
عمل من أعمال الخير أو الشر إلا بعد استشارة أمى ، ثم
قالت له دع البكاء والنحيب ولنتوجه إلى الله تعالى بالضراعة
والابتهال عسى أن يفرج كربتنا ، ويجعل لنا من أمرنا مخرجا
وجثيا يصليان صلاة طويلة استغرقت شعورَهما
ووجدانَهما وذهبت نفساهما فيها حيث تذهب نفوس

القانتين المتبتلين فى مواقف خشوعهم وابتهالهم ، وكانت الشمس قد انحدرت إلى مغربها ولم يبق منها فى حاشية الأفق إلا كما يبقى على صفحة الهادئ من آثار السفينة الماخرة ، فلبثا على ذلك هنيهة ثم استفاقا على صوت كلب ينبح نباحاً شديداً فصاح بول إنه كلب أحد الصيادين الذين يرصدون



بول وفرچينى يصليان

الايائل [1] فى أعماق هذه الغابات ليطلقوا عليها كلابهم فتعقرها ، ثم اشتد نباح الكلب وأخذ يدنو منهما شيئاً فشيئاً فارتعدت فرچينى وقالت يخيل الى يابول أني اسمع

(١) الايائل جمع أيل بالتشديد حيوان كالوعل

صوت كلبنا « فيديل » لا بل هو بعينه وما ارتبت فيه قط وما أتمت كلمتها حتى كان الكلب « فيديل » تحت أقدامهما يتمسح بهما ويجاذبهما أثوابهما ويكاد لو استطاع أن يبكي فرحا بهما ، ثم ما لبثا أن رأيا الزنجي دومينج مقبلا عليهما فازداد سرورهما واغتباطهما ، وما وقع نظر الرجل عليهما حتى هرع اليهما وجثا تحت أقدامهما باكيا مستعبرا وظل يقول لهما لقد مر بأميكما اليوم ياولدى يوم مامر بهما مثله مذ نزلا هذه الأرض حتى اليوم ، ولقد كان جزعهما عظيما جدا حينما عادتا من الكنيسة فلم تجدا كما ولم تعرفا أى سبيل سلكتما ، ولا أى أرض اشتملت عليكما ، ولم تستطع مارى أن تقول لهما شيئا لأنها كانت مشتغلة ببعض الشؤون وراء الكوخ في الساعة التي خرجتما فيها فلم تركما ، وقد فتشنا عنكما في كل مكان وسألنا عنكما كل غاد ورائح فلم نجد من يدلنا عليكما ، فرأيت أن أستعين بالكلب فيديل على تتبع آثاركما فأحضرت له بعض أثوابكما وألقيتها بين يديه فاشتمها ، وكأنه علم مايرادمنه

فألصق خيشومه بالارض وانبعث فى الطريق التى سرتما فيها فعل الدليل الحاذق فتبعته أخترق الغابات والأجمات، وأتسلق الصخور والهضاب، وأجتاز الجداول والأنهار، وأشعر بجميع ماشعرتما به من المتاعب والآلام، حتى بلغنا ضيعة الرجل الأوربى على شاطئ النهر الاسود، وهنالك حدثنى بعض الذين عرفتهم من عبيده وأجرائه أنكما حضرتما اليه لتسألاه العفو عن زنجية مسكينة كانت قد أبقت منه وخافت الرجوع اليه فوعدكما بالعفو عنها، ثم ما لبثتما أن عدتما أدراجكما قبل أن تعلما ما تم فى شأنها

فاضطربت ڤرچينى وقالت: وماذا تم فى شأنها؟ ألم يعف الرجل عنها؟ فابتسم دومينج وقال: نعم عفا عن قتلها وإزهاق روحها، أما ما دون ذلك فلا، فانه مالبث على أثر ذهابكما أن أمر بشدها الى بعض الأشجار عارية وظل يجلدها بسوطه حتى تناثر لحمها وتدفق دمها، ثم تركها مكانها تتأوه آهات تستبكى العيون وتذيب الأكباد، وقد رأيتها

بعيني فلم أستطع النظر اليها لحظة واحدة

وما أتم كلمته حتى صَعِقت ڤرجيني وهتفت بكلمتها التى كانت ترددها دائماً: آه يارب لِمَ لم تجعل طريق الخير سهلا ليناً كطريق الشر »

ثم عاد الزنجي الى حديثه يقول

ثم انكفأ فيديل راجعاً فتبعته فسار قليلا على شاطىء النهر الاسود ثم صعد الجبل الصغير المشرف عليه فصعدت وراءه حتى قادنى الى عين ماء جارية رأيت على مقربة منها نخلة من نخيل الجوز ساقطة محترقة لا يزال ينبعث دخانها وبقايا طلع مشوىّ متناثر حولها فعلمت انكما مجتهما بهذا المكان وأن الجوع كان قد نال منكما منالا عظيما فتجشمتهما فى طلب الطعام هذا العناء الكثير، ثم قادنى الكلب بعد ذلك الى هنا كما تريان، ونحن الآن على مقربة من الجبل المثلث الرأس، وبيننا وبين المزرعة أربعة فراسخ، وقد أرسلَتْ لكما سيدتاى هذا الطعام فكلاه وخذا لنفسكما

راحتها وسكونها ثم نرى بعد ذلك كيف نعود ، وأخرج لهما طعاما كثيراً وأثمارا متنوعة وركوة ماء قراح وشيئاً من شراب الليمون المحلى بالسكر ، وجلسوا جميعاً يأكلون ويشربون فرحين مغتبطين لولا ما كان ينغص على ڤرچيني أحياناً من ذكرى تلك الزنجية المسكينة المعذبة حتى فرغوا من الطعام وتهيأوا للمسير فاذا پول وڤرچيني ضعيفان متضعضعان لا يستطيعان الانتقال خطوة واحدة لما نالهما من الأين والاعياء

فوقف دومينج وقفة الحائر المضطرب لا يدرى ماذا يصنع ، أيحملهما على عاتقه، وهو ما لا طاقة له به ، أم يقضى الليل بجانبهما، ووراءهما أمّاهما تنتظرانهما انتظار الظامئ الهيمان عُلالةَ الماء البارد ، أم يرجع الى المزرعة وحده ليعود منها بمن يساعده على حملهما ، وكيف له بتركهما وحدهما في هذه القفرة الموحشة التى لا يعلم الا الله ماذا تضم بين أقطارها من مخاوفَ واهوال ، فتنفس تنفُّسةً طويلة وأنشأ يقول : أسفى على تلك الأيام المواضى التى كنت أحملكما

فيها يا ولدىّ على ذراع واحد ما أشكو ولا أتبرّم ، أما اليوم فقد وهَن عظمى ، وضعفت مُنّتى ، وتقاربت خطاى ، ولم يبق لى من الحياة الا هذه الخطوات البطيئات التى أخطوها الى قبرى

وإنه لكذلك إذ لمح أشباحاً سوداء تنحدر إليه من قمة الجبل كأنها قطع الليل فراعه منظرها ، ثم تَبينها فاذا قوم من الزنوج السود الآبقين من ظلم مواليهم البيض فى شعاب الجبال ومخارمها وكانوا قد سمعوا وهم فى مكمنهم حديثه مع الولدين ورأوا حيرته فى أمرها فجاءوا لمساعدته ، وقال له زعيمهم : إن هذين الابيضين الصغيرين من أطيب الناس قلباً وأشرفهم نفساً وأدناهم رحمة ، فقد جشّما اليوم نفسيهما عناء عظيما فى سبيل مساعدة زنجية مسكينة كان قد بلغ بها الشقاء والبلاء مبلغهما فرحماها وأَويا اليها وذهبا بها الى سيدها ليشفعا لها عنده ويسألاه العفو عنها والمرحمة بها ، وقد رأيناهما صباح اليوم وهما سائران معها إلى شاطىء النهر

الاسود فشكرنا لهما فى أنفسنا فضلهما ونعمتهما وعجبنا كيف استطاع ذلك الاهاب الابيض الدميم أن يضم بين أقطاره قلباً غير أسود ، وقد سمعنا الآن حوارك معهما وعلمنا أنهما فى حاجة إلى من يحملها الى مزرعتهما فجئنا لنتولى ذلك بأنفسنا مكافأة لهما على نعمتهما التى أسدياها إلى تلك الطريدة المسكينة

ثم أشار الى أصحابه فاقتطعوا فى لحظات قليلة بضعة أعواد من بعض الاشجار العاتية وصنعوا منها ما يشبه المحفّة فصعد إليها پول وفرچينى وحملها أربعة منهم على عواتقهم ومشي الباقون أمامهم ينيرون الطريق بمشاعلهم ويغنون أغانيهم الخاصة كأنما قد نسوا جميع همومهم وآلامهم التى يعالجونها في أنفسهم حتى وصلوا عند منتصف الليل الى المزرعة

وكانت هيلين ومرغريت تنتظران ولديهما منذ غروب الشمس عند سفح الجبل وقد نصبتا حولهما على ابعاد مختلفة بعض المشاعل الكبيرة لتريا على ضوئها وجوه القادمين ،

فالمحتا المحفة عن بعد حتى طارتا اليها وضمتا ولديهما الى صدريهما باكيتين منتحبتين ، فبكى الولدان لبكائهما ، وبكى الجميع لبكائهم ، والتفتت هيلين الى ابنتها وقالت لها أين كنتما أيها الولدان الشقيان ، ومن أذنكما بالذهاب وحدكما فى هذه الفلاة الموحشة ، فجثت فرچينى بين يدى أمها وقالت لها العفو يا أماه ، فقد جاءتنى اليوم زنجية مسكينة آبقة من سيدها تتضور جوعا وتسيل نفسها هما وكمدا ، فسألتنى أن أطعمها وأسقيها ، وأن أنقذها من بؤسها وبلائها ، فقدمت لها ما شاءت من الطعام والشراب ، ثم حرت فى أمرها بعد ذلك فلم أر خيراً لها من أن أصحبها إلى سيدها وأسأله العفو عنها والمرحمة بها ، وأبى پول الا أن يصحبنى فذهبنا الى شاطئ النهر الاسود فلما فرغنا من شأننا وأردنا الرجوع ضللنا الطريق وظللنا حائرين ساعات طوالا حتى وافانا دومينج ، وكان التعب قد نال منا منالا عظيما فعجزنا عن المسير فتقدم هؤلاء السود الطيبون لمساعدتنا وصنعوا لنا هذه

المحفّة وحملونا عليها رحمة بنا ووفاء بذلك المعروف القليل الذى بذلناه لمواطنتهم المسكينة ، وكذلك يجزى الله المحسنين خيراً بما فعلوا

فضمتها أمها الى صدرها وقالت قد عفوت عنكما ياولديّ ولا أحرمكما الله نعمة العطف على البائسين والمنكوبين

ثم عادوا جميعاً الى أكواخهم فرحين مغتبطين وقدموا للزنوج كثيراً من الطعام والشراب فشكروا لهم فضلهم وانصرفوا

١٠
السعادة

وهنا تنفس الشيخ الصعداء ثم قال : أستطيع أن أقول لك يا بنيّ أن السعادة ينبوع يتفجر من القلب لا غيث يهطل من السماء ، وأن النفس الكريمة الراضية البريئة من أدران الرذائل وأقذارها ومطامع الحياة وشهواتها

سعيدةٌ حيثما حلت وأنّى وُجدت ، في القصر وفي الكوخ ، في المدينة وفي القرية ، في الانس وفي الوحشة ، في المجتمع وفي العزلة ، بين القصور والدور ، وبين الآكام والصخور ، فمن أراد السعادة فلا يَسألْ عنها المالَ والنشب ، والفضة والذهب ، والقصور والبساتين ، والارواح والرياحين ، بل يسألْ عنها نفسه التي بين جنبيه ، فهي يَنبوع سعادته وهنائه ان شاء ، ومصدر شقائه وبلائه ان أراد ، وما هذه الابتسامات التي نراها تتلألؤ في أفواه الفقراء والمساكين ، والمحزونين والمتألمين ، لانهم سعداء في عيشهم ، بل لانهم سعداء في أنفسهم ، وما هذه الزفرات التي نسمعها تتصاعد من صدور الاغنياء والاثرياء ، وأصحاب العظمة والجاه ، لانهم أشقياء في عيشهم ، بل لأنهم أشقياء في أنفسهم ، وما كدر صفاء النفوس وأزعج سكونَها وقرارها ، وسلبها راحتَها وهناءها ، مِثلُ عاطفة البغض ، ولا أنار صفحتها وجلّى ظلمتها ، مِثلُ عاطفة الحب ، فأشقى الناس جميعاً

المبغضون الذين يضمرون الشر للعالم فيجزيهم العالم شراً بشر ، وأسعدهم جميعاً المحبُّون الذين يحبون الناس ويمنحونهم ودهم وصفاءهم، فيمنحهم الناس من بنات قلوبهم مثلَ ما منحوهم

وكذلك استطاعت تلك الاسرة الفقيرة المسكينة أن تكون سعيدة هانئة على فقرها وإقلالها وجعجعة المصائب بها ، فقد كانت تحمل بين جنوبها نفوساً طاهرة شريفة لا تضمر حقداً ، ولا تعرف غلا ، فأحبت القريب والبعيد ، والمحسن والمسيء ، وعطفت على الناس جميعاً، من تَمتُّ اليه بصلة ومن لا تَمتُّ اليه بشيء

ولَم تحقد على الناس أو تضمر لهم فى نفوسها شراً وما لها إلى الناس حاجة ولا رأى لها في مطالبتهم بشيء مما فى أَيديهم من مال أو جاه أو قوة أو سلطان ، فقد قنعت من عيشها بما قسم الله لها ولم تطلب مزيداً ، ورضيت من حياتها بهذه العُلالة القليلة التى تتعلل بها ، فأراحت نفسها من هموم المطامع ومتاعبها

وكانت أحاديثها التى تجرى بينها أحاديثَ طاهرة بريئة لا تَطغى فيها الألسنة ولا الافكار، ولا تتناول شأناً من شؤون الناس خاصها أو عامِّها، والغِيبة رسولُ الشر بين البشر، بل هى أس الشرور جميعها، قديمها وحديثها، لان المرء اذا اعتقد من طريقها الشرّ فى صديقه أو عشيره وملكته فكرةُ سوء الظن به أبغضه واجتواه، وحَذِره واتقاه، وكان لابد له من احدى اثنتين، إما ان يصارحه ببغضه إياه، فتصبح حياته معه حياة نكدة لانهاية لهمومها وآلامها، أو يماذقه ويداوره، فيصبح رجلا منافقاً كذاباً، وخير له من هذا وذاك الا يسمع عن الناس خيراً ولا شراً

نعم إنها لم تكن تعتمد فى حديثها على العلم والتاريخ كما يعتمد الناس فى مجتمعاتهم، ولا كانت محاضراتها حافلة بالشواهد والامثال والعظات والعبر والمقارنات والموازنات، ولكنها كانت لذيذة شهية رقيقة مستملحة، لانها كانت

تستمد جمالها ورونقها من كتاب الطبيعية المفتوح أمامها ، وكتابُ الطبيعة هو الكتاب المشرق المنير الذى لا يقبل تأويلا ، ولا يحتاج إلى تفسير ، والذى يرى فيه قارئه الحياة كما خلقها الله ، فلا حاجة به إلى من يدله عليه ، أو يرشده إليه

وما هى إلا أيام قلائل حتى انتشر لتلك الاسرةُ الكريمة بين سكان تلك الجزيرة ذكرٌ عطر فأخذ الناس يتحدثون بأدبها ولطفها ، ومروءتها وكرمها ، وأياديها الظاهرة والخفية ، ورحمتها الخاصة والعامة ، وان لم يعرفوا لها اسما ولا لقباً ، فإذا سَأل سائل من السابلة أو الطارئين من هم ؟ كان جواب المجيب : إنهم قوم طيبون وكفى ، كشجرات البنفسج المختبئة بين لفائف الادغال ينشق الناس طيبها ، ويحمَدون عَرفها ، وان لم يعرفوا مكانها

١١
العمل

وكان پول وهو فى الثالثة عشرة من عمره كأنه فى الخامسة عشرة قوة ونشاطا ، وهمة وعزيمة ، وذكاء وفطنة ، فكان لا يمل العمل نهاره ولا ليله ، ولا يتلهى عنه بما يتلهى به أمثاله من الغلمان فى مثل هذه السن ، وكأنما كان يشعر فى نفسه انه مسئول عن هذه القفرة الموحشة أن يحيلها الى جنة فيحاء من جنان الارض ، فلا بد له أن يعمل حتى يصل بها الى الغاية التى يريدها ، وكان لا يعمل قبل أن يفكر ، ولا يفكر إلا تفكيراً صحيحاً مستقيما ، وقد وهبه الله قريحة وقادة ، وذهناً خصباً ، وذوقاً سليما ، ومخيلة قوية قادرة على جميع شوارد الأشياء والتأليف بين متنافراتها ، فرسم فى ذهنه صورةً بديعة لذلك الوادى الجميل كما يفعل المهندس الماهر ، وأخذ نفسه بالعمل لابرازها وتحقيقها ، فلم يخطىء ولم

يضطرب ، ولم يلجأ الى الاستشارة إلا فى القليل النادر مما يستعصى مثله على أمثاله، فكان لا يراه الرائى إلا غاديا أو رائحا، أو مُصعداً أو منحدراً ، أو متسلقاً شجرة ، أو مكبًّا على قناة ، أو حاملا غرساً ، أو خائضاً نهراً ، ودومينيج وراءه يعينه على ما يعجز عنه من حمل الأثقال وتحويل المياه ونقل الاغراس ، فأنشأ الحظائر المختلفة للحنطة والشعير والدُّخن والذرة والقطن والقصب ، تزخر كل حظيرة بما فيها من ماء وثمر ، وغرس أشجار الليمون والبرتقال والتمر هندى ونخيل البلح والجوز وألواناً من الازهار والانوار تتألق في أغصانها تألق الاحجار الكريمة فى التيجان المرصعة ، وأجرى المياهَ حول تلك الاغراس وفى خلالها بنظام دقيق كأنما قد خطها بالبركار ، وزرع الاكمات والروابىَ المشرفة على الوادى من جميع نواحيه فتراءت لعين الناظر كأنها قباب لطاف أو أهرامٌ صغارٌ مكسوة برقائق الخز والديباج على اختلاف أصباغها

وألوانها، ولم يترك بقعة جدبة ولا أرضاً صلبة الاهز تربتها، وأحيا مواتها، فاستحالت إلى روضة أُنُفٍ[١] تتدفق ثماراً وأزهاراً، وتسيل عيونا وغدراناً، وأعجبُ ما كان يعجب له الناظر فى هذه الروضة الزاهرة منظرُ المياه المتدفقة من أعالى الجبال تنثر الخصب حولها نثراً، وتدور بالربى والهضاب قلائدَ وعقوداً، وبالخمائل والأشجار أوشحة ومناطق، وتتلوّى فى سيرها وتدفّعها تلوىَ الحيات المذعورة الهائمة على وجهها، حتى إذا انتهت إلى السفح مشت برفق وهدوء تتبسَّط فى مذاهبها ومناحيها ثم تتلاقى أطرافها فتتكوّن بركا صغيرة مستديرة تحف بها الاعشاب المخضرة كما تحف بالعيون أهدابُها، فاذا انعكست على تلك البرك زرقة السماء خيل اليك أنها المرايا[٢] الصافيات فى أُطُرها[٣] أو أحجار الفيروزج في خواتمها، ولما كانت الارض فى تلك الدائرة متدرجة

---

(١) الانف من الرياض مالم يرعه أحد (٢) المرايا جمع مرآة (٣) الاطر جمع إطار وهو ما يحيط بالشيء

غير مستوية فقد راعى أن يَغرس الادواحَ الباسقة فى البقاع المنخفضة ، والاشجارَ المتوسطة فى الاماكن المتوسطة، والشجيراتِ القصيرةَ فى المشارف العالية، فاستوت رءوس الاشجار فى علوها وارتفاعها كأنما قدقُرضت ذوائبها بمقراض، أو كأنما غرسها غارسها في بطحاء مستوية ، وكان يعمد إلى الهضاب العالية ذات الجباه البارزة فيغرس بين يديها الاشجار العظيمة المورقة فتتلاقى ذؤابةُ الشجرة بذؤابة الهضبة فتتكوّن منهما قبة جوفاء تشرف على مجلس رطب ظليل كانوا يفيئون إليه من حر الهاجرة فاذا هم فى روضة يانعة من رياض الجنة تَزَخر أشجارها ، وترن أطيارها ، وترف ظلالها ، وتتهادى نسائمها ، وأجمل من هذا وذلك انه غرس صفين متقابلين من الاشجار الوحشية الضخمة يمتدان على مدى بعيد فتألفَ منهما دهليز ضيق مستطيل لا تنفذ اليه أشعة الشمس، ولا تكاد تصل اليه أضواء النهار، فاذا دخله الداخل خيل اليه أنه يسير في نفق مظلم تحت الارض، وشعر بوحشة

غريبة أشبه بتلك الوحشة التي يشعر بها سكان السراديب في سراديبهم ، أو عملة المناجم في أعماق مناجمهم

في أحضان ذلك الوادي الجميل ، وفي ذمة تلك الجنة الزاهرة ، وبين أعطاف تلك الدائرة الواسعة المخضرة من الربى والهضاب ، كان يعيش هؤلاء القوم في أكواخهم البسيطة عيشاً سعيداً هانئاً متمتعين بما لا يتمتع به الأثرياء في قصورهم وبساتينهم ، والسعداء في جناتهم وعيونهم ، فاذا انقضى النهار وأوت الشمس الى خدرها صعدوا الى صخرة عظيمة تشرف على ذلك الوادي جميعه فيتجلى أمامهم منظره العام بعيونه وغدرانه ، وأعشابه وأشجاره ، وخمائله وكرومه ، ومروجه وحرجاته ، وظلاله وأضوائه ، فاذا ألقوا بأنظارهم في جو السماء المائج فوق رءوسهم بأضوائه وأنواره خيل اليهم أنهم بين سماءين متقابلتين ، سماء تنبت الكواكب والنجوم ، وأخرى تنبت الأزهار والأنوار ، أو روضتين مترائيتين ، تتألق في احداهما الزنابق البيضاء على ديباجة زرقاء ، وفي أخراهما الورود الحمراء ، على قطيفة خضراء

١٢
التاريخ

وكانوا يسمون هذه الصخرة « اكتشاف الصداقة » لأن بول غرس في قمتها شجرة دقيقة من شجر الاثل ورفع في أعلاها منديلا أبيض يشبه العلَم وناطه بخيوط مختلفة تسترسل الى أسفل الشجرة ، فاذا لمحني مقبلا على البعد شدّ الخيط فانتشر المنديل واضطرب في الهواء ، وكان ذلك إعلاناً للأسرة بقدومي ، كما يُرفع العلم على قمة الجبل إعلاناً بقدوم سفينة الى الشاطئ

وكذلك كان شأنهم دائماً في تسمية الاماكن والبقاع والجذوع والأشجار التي يحبونها بأسماء لطيفة يرمون بها الى غرض خاص ، ويُسجلون بها فكرة معينة ، فكان يخيل الىّ انهم يلقون عليها أشعة أرواحهم النورانية السامية فتدِبُّ فيها حياة جديدة فوق حياتها الأولى ، فأطلقوا اسم

« ميدان الاتفاق » على بساط من العشب الأخضر مُسَوَّر
ببضع شجيرات متّسقات من أشجار البرتقال كان پول
وڤرچينى يرقصان عليه معاً فى ضوء القمر ، وأطلقوا اسم
« الدموع الممسوحة » على شجرة عتيقة جلست تحتها هيلين
ومرغريت لأول عهدهما باللقاء وأخذت كل منهما تقص
على صاحبتها قصتها وتبثها أحزانها وآلامها فتضمها الأخرى
الى نفسها وتعزيها عن همها وتمسح لها دموعها ، وسموا
حقلا من القمح باسم « نورماندى » مسقط رأس هيلين ،
وآخر من الأرز باسم « بريتانيا » مسقط رأس مرغريت ،
الى كثير من أمثال تلك الذكريات القديمة ، كأنما أرادوا
وقد هجروا بلادهم الى الأبد وحالت الحوائل بينهم وبينها
أن يستصحبوها معهم تصوراً وخيالا ، بعد مافقدوها
سكنا وموطناً ، ليأنسوا بها بعض الأنس ، ويلطّفوا من
حرارة شوقهم اليها

وأغرب من ذلك أن الزنجيين مارى ودومينج لم يكن
قلبهما خالياً من ذلك الشعور الطيب الشريف شعورِ الوفاء

للوطن الأول والحنين اليه ، فأطلقوا اسم « أنغولا »
و « فول پوانت » على بعض حقول الدخن ومنابت القرع
شغفاً بأوطانهما وعهود صباهما وضناً بذكراها أن تزول

وكانت تعجبنى من هؤلاء القوم كثيراً تلك الروح
الاثرية الغالبة على شعورهم ووجدانهم لأنى أعتقد انها
هى بعينها روح الوفاء والاخلاص ، وان من لا خير فيه
لماضيه ، فلا خير فيه لحاضره ، مستقبله

وما زلتُ مذ نشأت لاأوثر منظراً من مناظر الحياة
ولا مشهداً من مشاهد الحسن والجمال على منظر أثر قديم
أَعثر به فى سفرة من أسفارى فى بادية منقطعة أو صحراء
شاسعة فأقف بين يديه ساعةً من نهار وأرى فى نؤيه وأحجاره
وصخوره المبعثرة وَأعمدته المتناثرة ونقوشه المحفورة على
بقايا جدرانه صورةَ أولئك القوم البائدين الذين كانوا يسكنونه
ويَعْمُرون عرصاته ، مغانيه ، وكانى أسمع فى صفير رياحه وعزيف
جِنّانه وغيلانه صائحاً يصيح بى : لقد كان يعيش فى هذا المكان

عالم مثـل عالمـكم ، يشعرون كما تشعرون ، وَيفكرون كما تفكرون ، ويؤملون فى الحياة الطيبة الهانئة كما تؤملون ، وهم وان ذهبوا بأجسامهم ، وخلا وجه الأرض من سميرهم وأنيسهم ، فهم باقون بينكم بأرواحهم وآثارهم ، وما أنتم ياأبناءَهم وأحفادَهم وحَملة أسرار حياتهم الا أرواحهم وآثارهم التى بقيت على الارض من بعدهم

هنالك أشعر أَنى قد انتقلت من حاضرى إلى ماضىّ ، وأَنى أعيش فى تلك العصور القديمة بين آبائى وأجدادى ، أحدثهـم ويحدثوننى وأُفضى اليهم بذات نفسى ، ويُفضون إلى بذوات نفوسهم ، فأقضى على ذلك ساعة من الزمان ، ثم أذهب لشأنى وقد فاضت نفسى شعوراً بأن النفس الانسانية خالدة باقية لا تنال منـه عاديات الزمان ، ولا تعبث بصورتها الايام والأعوام

وكنت لذلك شديد الشغف بحفر الـكلمات أو نقشها على كل مايقع عليه نظرى من الجذوع والاشجار ،

والصخور والاحجار ، وكل ما أمر به فى طريقى مما أحبه وأرضاه ، وأتمنى له الخلود والبقاء ، كأننى كنت أريد أن أمُدَّ الاجيال المقبلة بالذكريات العظيمة ، كما أمدّتنا الأجيال الماضيةُ بذكرياتها وعهودها ، فحفرتُ على ساق شجرة العلَم كلمة « هوراس » اللاتينى « وقاكِ الله شر العاصفة ولا عبثتْ بكِ إلا أيدى النسائم » وعلى جذع شجرةٍ كان بول يجلس تحتها أحيانا ليشاهد منظر البحر الهائج قولَ الآخر « ما أعظم سعادتكَ لأنك لاتعرف آلها غير إله النبات » وعلى باب كوخ هيلين وكان هو مجتمع الأسرة ومنتداها هذه الكلمةَ « هنا ضمير صالح ونفس لاتعرف الخداع » .

وكانت ڤرجينى تستثقل أمثال هذه الكلمات اللاتينية وتراها غامضة ومتكلفة ، وقالت لى مرة حبذا لو أنك كتبتَ على شجرة العلَم « ثابتٌ دائما رغم اضطرابه »

بدلا من كلمتك التى كتبتها ، فأجبتها ذلك انما يقال
فى موقف الحث على الفضيلة ، فاحمرّ وجهها خجلا وصمتت
ذلك كان شأن هذا الوادى فيما مضى ، أما اليوم فقد
عفا فيه كل شىء، ودَرس كل أثر، ولم يبق من تلك الرسوم
الماضية إلا كما يبقى من الوشم فى ظاهر اليد ، وأصبحتُ
أعيش فى هذا المكان كأنى أعيش بين خرائب أثينا أو أطلال
منف ؛ وما مضى على تاريخها أكثر من عشرين عاما

١٣

استراحة فرجينى

ولم أر فيما رأيت من المناظر الجميلة والمشاهد الفاتنة
المؤثرة منظراً أبدع ولا أجمل ولا أعلق بالقلوب ولا أشهى
إلى النفوس من منظر ذلك المكان الذين كانوا يسمونه
« استراحة فرجينى » وهو كهف صغير منحوت فى أصل
الصخرة الكبرى كأنه مضجع النائم يتفجر بين يديه نبع

غزير صاف تحف به نخلتان من نخيل الجوز كانت مرغريت قد بذرت بذرة احداهما منذ أربعة عشر عاما يوم ولادة ولدها پول، وبذرت هيلين بذرة الأخرى منذ ثلاثة عشر عاما يوم ولادة ابنتها ڤرجيني، فنبتتا مع الولدين وسميتا باسميهما ، وما ذهبتا مذهبهما في جو السماء حتى تدانت شعفاتهما واشتبك سعفهما كأنهما يتعانقان ، وكانت نخلة



استراحة فرچيني

پول أطول قليلا من نخلة ڤرچيني لانه كان أسن منها بعام واحد وأطول قامة منها

وربما كان هذا المكان هو المكان الوحيد الذى تركوه للطبيعة تذهب فى شأنه حيث شاءت من مذاهبها دون أن يتناولوه بتهذيب ولا تنسيق ، فنبتت من حوله فى طريق المياه المنبسطة بضع شجيرات مختلفة الألوان والاشكال ، والاحجام والأطوال ، ما بين ضخم الجذوع ودقيقها ، ومنتشر الفروع ومجتمعها ، وضارب فى أعماق الأرض ، وذاهب فى جو السماء ، فاختلفت ثمراتها وزهراتها ، وطعومها ومذاقاتها ، وروائحها ونفحاتها ، ودب بعضها الى ظهر تلك الصخرة المشرفة فنشر عليها غلالة رقيقة من أزهاره ورياحينه ، ثم انحدر عنها خيوطاً دقيقة ناعمة ترفرف فى الهواء كما ترفرف شعور الحسناء على ضفاف الماء

ولم يكن شىء من الأشياء أحب الى فرجينى وأشهى الى نفسها من أن تأوى فى أوقات راحتها وفراغها الى هذا المكان الجميل لتمتع نظرها بمرآى تلك المياه الثلجية البيضاء المنفجرة من ذلك النبع الغزير ، ومرآى تينك النخلتين

البديعتين المتعانقتين على ضفته ، ومنظر تلك المروج الخضراء المنبسطة من حوله ، وكانوا لذلك يسمونه «استراحة ڤرجيني»

وكانت تستصحب معها كلما ذهبت اليه غنيماتها وأعنزها فتتركها ترعى بين يديها ، ويعجبها أن ترى واحدة منها قد وثبت الى ظهر الصخرة ووقفت على مؤخر أطرافها واشرأبت بعنقها لتتناول بفمها بعض الأغصان فتقضمها قضما ، فكأنها معلقة في الهواء ، أو كأنها تمثال ماثل في الفضاء

وربما أخذت معها ملابسها وملابس الأسرة فغسلتها على حافة النبع أو جلست ناحية تحتلب ألبان ماشيتها ثم تمخضها

وكان بول يختلف الى هذا المكان من حين الى حين كلما أمكنته الفرصة من ذلك فيجلس الى ڤرجيني جلسة هانئة سعيدة يغتبطان فيها بتلك العزلة الهادئة الساكنة وذلك المنظر الساحر البديع



فرجيني تنثر الحب لطيورها

وكان أعظم ما يروقهما ويستثير سرورهما وغبطتهما منظر الطيور البحرية وهى مقبلة من شاطئ المحيط الهندى مع الظلام زمراً زمراً ترسم فى صفحة السماء خطوطاً مستقيمة ومتعرجة ودوائر تامة وناقصة وتغرد أغاريدها المختلفة الالحان والنغمات حتى تنزل بهذا المعتزل الساكن الظليل لتقضى فيه سواد ليلها ، فاذا انقضت دولة الظلام ونشر الفجر رايته البيضاء فى آفاق السماء طارت مع أشعته وأضوائه وذهبت من مذاهبها حيث تشاء

وكأنّ پول قد عز عليه ألاّ تتمتع ڤرجينى بذلك المنظر البديع الرائق فى جميع أوقاتها فأخذ ينقل إلى الاشجار المحيطة بهذا المكان من الغابات القريبة فراخ الطير فى أعشاشها فتتبعها أمهاتها ، وما هى إلا أيام قلائل حتى اتخذت لها فى هذه الروض الاريض موطناً جديداً تروح اليه وتغدو فأنست بها ڤرجينى أنساً عظيما ، وعطفت عليها عطف الأم الرؤوم على صغارها ، فكانت تطعمها وتسقيها وتحمل

لها فى حجرها حبوب القمح والذرة فتنثرها بين يديها ، فاذا
رأتها الطيور مقبلة من بعيد تطايرت اليها من أوكارها وأعشاشها
صادحة مترنمة وحامت فوق رأسها تلتقط الحب من يدها مرة
ومن الارض أخرى فيكون منظرها فى اختلاف ألوانها



فرجينى تنثر الحب وپول يتبعها بنظراته

وتموّجها واضطراب حركاتها أشبه شىء بمنظر الثوب المفوّف
قد عبثت أشعة الشمس بخيوطه الحريرية فماج بعضه فى بعض ،
فتظل فرجينى لاهية بهـذا المنظر الجميل مفتتنة به وپول

مغتبط باغتباطها ، راض عن نفسه برضاها ، حتى يعودا معاً ساعة الغروب إلى كوخهما

* * *

وهنا تنفس الشيخ الصعداء وألقى أمامه نظرة بعيدة جامدة كأنما ينظر الى شبح مقبل عليه فألقيتُ نظرى حيث ألقى نظرَه فاذا هو محدِّقٌ فى تلك البقعة التى سماها استراحة ڤرجينى وأخذ يهمهم كأنما يحدث نفسه ويقول

أيها الولدان العزيزان ، إن أَنْسَ شيئاً فانى لا أنسى أيامكما العذبة الجميلة التى ملأتما فيها حياتى سروراً وغبطة وكنتما لى صديقين حميمين ما أُنكر منكما ولا تنكران منى شيئاً ، ولا أنسى انكما كنتما أبر الناس بى وأحدبهم علىّ حتى أصبحت أشعر أننى أعيش بجانبكما فى أسرتى بين أهلى وقومى ، وأن أيام صباى قد عادت لى بوجهها الطلق النضير ، فسلام عليكما حيث كنتما ، وسلام على عهدكما البائد الدارس عهدِ الصلاح والبر ، والفضيلة والشرف ، والحب والوفاء

١٤
ليالى الشتاء

وكانوا اذا جاء الشتاء وسالت الأجواء برداً وقُرا ، وأوت الطيور الى أوكارها ، والوحوش الى أجحارها ، قضوا داخل أكواخهم ليالى سمر جميلة يجتمعون فيها حول منضدتهم العارية على ضوء مصباح ضئيل يلقى أشعته الصفراء الخفاقة على ما نيط بجدران الكوخ من معاول وفؤوس وقواطع ومناشير وما كُدّس فى أركانه من حقائب وجوالق وقرب وروايا فتتراءى كأنها الاشباح الجاثمة أو الوحوش الرابضة فيتحدث بول عن حقوله وأغراسه ، وغلاته وثمراته ، وأحواضه ومستنبتاته، وما نضج من أزهاره وما لم ينضج ، وما نقل منها الى الظل وما أبقاه تحت أشعة الشمس ، وعن الكروم وعناقيدها ، والقمح وسنابله ، والذرة وأعوادها ، وتحدثهم فرچينى عن عصارة القصب

ومنقوع الشعير وشراب الليمون وأمثال ذلك من الاشربة التى تعلمت من أمها صنعها وإجادتها ، واعتادت أن تقدمها لاسرتها صباح كل يوم ومساءه ، وقد تحدثهم أحياناً عن استراحتها « استراحة ڤرچينى » فتظل تصف لهم نبعها المتفجر الثجاج ، ونخلتيها الباسقتين المتعانقتين ، وما نبت حولها من ألوان الزهر وصنوف العشب ، وما يختلف الى خمائلها وأشجارها من أسراب الطير وجماعاتها ليلها ونهارها صادحة مترنمة كأنها فرقة موسيقية تتحد نغماتها ، وتختلف رناتها ، وتقص عليهم مرغريت بعض القصص الغريبة المملوءة هولا ورعباً كقصة السائح المسكين الذى ضل به طريقه فى احدى الليالى الداجية المدلهمة فى بعض غابات برنتانيا الموحشة فخرج عليه بعض اللصوص من مكمنهم فسلبوه ماله وراحلته ثم خافوا جريرتهم فقتلوه وألقوه فى أحشاء الغابة ، أو قصة السفينة التى عصفت بها الريح فى بحر الشمال وأحاط بها الموج من كل جانب وأخذت

عليها جميع السبل فغرقت وغرق معها ركابها ، ولم يبق من آثارها الا بضعة ألواح ألقاها الموج على جوانب بعض الصخور الناتئة، فيتأثر پول وفرجيني لسماع أمثال هذه القصص تأثراً شديداً ، ويتفجر فى قلبيهما ينبوع صاف من الرقة والرحمة بهؤلاء البائسين المنكوبين ، ويتمنيان بكل ما تملك أيديهما أن لو وُفّقا فى يوم من أيام حياتهما الى هداية سائح ضال عن طريقه ، أو انقاذ غريق من مخالب الموت الزؤام.

وكثيرا ما كانت تقرأ عليهم هيلين شيئاً من قصص « العهد القديم » وبعض آيات من « العهد الجديد » فيسمعها الآخرون ساكنين خاشعين تسيل نفوسهم أسى وعيونهم أدمعاً إلا انهما ما كانوا يحفلون كثيرا بتفهم مضامينها وا كتناه أسرارها كأنما كانوا يشعرون فى أنفسهم انهم أغنياء عن هذا كله بما وهبهم الله من ايمان فطرى بسيط لا يحتاج الى تفسير ولا توضيح، ومن يقين راسخ فى أعماق قلوبهم يثلج صدورهم ويملأ فضاء نفوسهم راحة وسكينة، حتى كان يخيل اليهم أحياناً

أن الفضاء الذى بين أيديهم انما هو معبد مقدس يصلون لله فى أى بقعة من بقاعه شاءوا ، ويرون الله فى أى مطلع من مطالعه أرادوا ، وكأن الطبيعة بين أيديهم إنجيل مفتوح تقوم فيه الآيات المنظورة ، مقام الآيات المتلوة ، والبراهينُ الحسية ، مقام البراهين التوقيفية المقروءة ، وهل الرحمة الالهية الا تلك الثمرات التى نبتت لهم فى أرض مقفرة مجدبة لا يُنبت مثلُها غير الجَهد والشقاء ، وهل القدرة الربانية الا تلك الجنة الأرضية الزاهرة التى اختلفت أوضاعها وأشكالها ، وطعومها وروائحها ، وقد سقيت بماء واحد ، وأشرقت عليها شمس واحدة ، وهل العناية الصمدانية الا ذلك التوفيق الغريب الذى ضم بعضهم الى بعض على بعد دارهم ، واختلاف مواطنهم ، فتكونت منهم أسرة واحدة متحابة متآلفة يغنيها اجتماعها واتفاقها عن الاهل والوطن ، والمال والنشب

وكانت تجرى بينهم تلك الاحاديث والطبيعةُ خارج

الكوخ هائجة صاخبة تجلجل رعودها وتعصف رياحها وتتدفق سيولها وتصطخب أمواجها فيحمدون الله تعالى على ان كفاهم شرورَها وويلاتها، ومنحهم هذا الملجأ الامين الذي يفزعون اليه من كوارثها وأرزائها ، ثم لا تلبث السِنة أن تخالط أجفانهم فينسلُّوا الى مضاجعهم وينامو افيها نوما هادئاً ساكناً لا قلق فيه ولا اضطراب ، ولأن كان صحيحاً ما يقولون من ان لكل امرئ في الحياة يومين ، يوم بؤس ويوم نعيم ، فلقد كان لهؤلاء القوم من دون الناس جميعاً يوم واحد لا يرون فيه غير وجه النعيم ، ولا تطلع عليهم شمسه الا بما يحبون ويرتضون

وكان الدهر يأبى عليهم أحياناً الا أن يجرى حكمه فيهم كما يجريه على الناس جميعاً فيأذن لبعض غيومه القاتمة أن تلمّ بسمائهم الصافية فتغشّى صفحتها وتكدر صفاءها ، فاذا نزلت بأحدهم نازلة مرض أو همّ رأيت الباقين قد أحاطوا بفراشه وبسطوا عليه جناح عطفهم ورحمتهم، وكأنما قد أصيبوا من

دونه بالذى أصيب به ولا يزالون يلاطفونه ويداورونه حتى ينتزعوا الهم من بين جنبيه انتزاعا ، فاذا هو بارئ سليم كأنْ لم يشكُ قبل اليوم هما ولا ألماً

وكانوا يذهبون أيام الآحاد لأداء الصلاة فى كنيسة «پامپاموس» ذات القبة العالية التى تراها هناك فى وسط ذلك السهل الفسيح مشاة على أقدامهم لا يشكون تعباً ولا نصباً ، فاذا وصلوا اليها رأوا كثيراً من الأثرياء وارباب النعمة مقبلين فى هوادجهم المحمولة على أعناق عبيدهم فى رونق بديع يملأ العين والقلب روعة فلا يحفلون بهم ولا يكترثون ، ولا يحسدونهم على ما آتاهم الله من نعمة ، بل كانوا يتجنبون جهدهم ان يخالطوهم او يجيبوا داعى مودتهم ، لأنهم كانوا يعتقدون ان القوى لا يمنح الضعيف وده ومحبته إلا ليبتاع منه ماء وجهه وكرامةَ نفسه ولا يَبذل له القليل من بره ومعروفه إلا ليستعبده ويستأسره ويملك عليه زمام حياته ، وهم لا يريدون أن يبذلوا

من ذلك شيئا ، كما انهم كانوا يتجنبون جهدهم مخالطة الهمج والرعاع وأسقاط الناس وأشرارهم ضنا بنفوسهم أن يَسرى اليها من طريق المخالطة الساقطة ما يشوه جمالها ، ويغشّى لألاءها ، فاتهمهم الناس بالضعف مرة وبالكبرياء اخرى ، ومضوا معهم على ذلك عهداً طويلا حتى عرفوهم حق المعرفة واستبطنوا سريرة نفوسهم فعلموا انهم اشرف من هذا وذاك ، فانهم ما كانوا يضنون بأنفسهم ان يقفوا الوقفات الطوال مع من يعترض طريقهم من الناس فيسألهم حاجة من الحاج او يستعين بهم على كارثة من كوارث الدهر أو يدعوهم إلى زيارة مريض ، او مساعدة منكوب ، ولا يأبون أن يدخلوا الاكواخ القذرة الوبيئة لزيارة المرضى ومواساتهم وتفقد حالة المنكوبين والبائسين

فاذا دخلوا على مريض جلسوا حوله طويلا وعللوه كثيرا وحاطوه بعطفهم وعنايتهم فتقدم له مرغريت الدواءَ وفرجيني الابتسامات وهيلين التعزيةَ وپول النصائحَ الطبيةَ ، فكانوا يعالجون فى آن واحد نفسَه وجسده ثم يعودون وقد

امتزجت في نفوسهم عاطفتان مختلفتان ، عاطفةُ الحزن على أولئك المعذبين المتألمين، وعاطفة الغبطة بما وفقهم الله إليه من تسرية همومهم ، وتهوين آلامهم

وكان منزلي على مقربة من تلك الكنيسة ليس بينه وبينها إلا طريق واحد يمتد بجانب الجبل صُعُدا حتى يصل إليه ، فاذا قضوا حاجتهم من مواساة البائس وتعليل المريض وتعزية المنكوب سلكوا تلك الطريق إلى منزلي ليقضوا عندي بقية يومهم، فكنت أُعد لهم الغداء على شاطئ جدول صغير تحت ظُلة دانية من شجر الموز، وكان غداؤنا بسيطا جداً لايزيد على ما يقذفه الينا البحر من أسماكه، ومايساقطه علينا الشجر من أثماره ، وما نظفر به في فضاء الجو من سارح أو بارح ، وربما ضممنا إليه شيئا من التوابل والافاويه المركبة من الاعشاب الهندية الحارة ، فاذا قضينا غداءنا جلسنا للراحة فوق هضبة عظيمة على شاطئ البحر

لنمتع أنظارنا برؤية أمواجه وهى مقبلة علينا يتلو بعضها بعضا حتى تتكسر تحت أقدامنا ، ثم تتبسط قليلا على ذلك الشاطئ الرملى الفسيح ، ثم تتلاشى كأنها لم تكن، وكان پول إذا رآها مقبلة فر من بين يديها كأنه طريدها الذى تطلبه ، وربما تباطأ فى جريه عمداً حتى تدركه فاذا هو مكفن فى كفن ضاف من نسيجها الابيض فتصرخ ڤرچينى حين تراه على هذه الحالة صرخة عظمى كأن الأمر قد بلغ عندها مبلغ الجد ، أو كأنها ترى من وراء حجب الغيب منظراً مخيفاً يروعها ويزعجها فتظل تقول بينها وبين نفسها يخيل إلىّ وأنا أنظر إلى هذا البحر المائج المصطخب أنى أرى بين كل موجتين قبراً محفوراً ، ثم لاتلبث أن تعود إلى نفسها وتثوب إلى رشدها وتستأنف سرورها ومرحها فيدعوها پول إلى الرقص معه فيرقصان معاً على بساط الرمل الأصفر تلك الرقصة الزنجية البسيطة التى لايشوبها عار ولا إثم، ولا يحيط بها عائب ولا هُجر ، ثم يغنيان بعض قطع جميلة لا أزال أذكر منها حتى اليوم قطعة « البحر

الزاخر » التى يثنى فيها قائلها على الحياة الهادئة البسيطة فوق ظهر اليبَس ، ويذم الحياة القلقة المضطربة على سطح الماء ، وينعَى نعياً كثيراً على أولئك الذين يدفعهم شرههم وطمعهم إلى ركوب البحر واحتمال مخاطره وكوارثه طلباً للثراء الواسع والمال الكثير ، بدلا من بقائهم فى أوطانهم بين أهلهم وعشيرتهم ، والقناعة بما قسم الله لهم من الرزق ، وكان يخطر لفرچينى أحيانا أن تمثل بعض الروايات القصيرة التى سمعتها من أمها فتظهر على مسرح الشاطىء الرملىّ حاملةً جرتها على رأسها كأنها ذاهبة إلى بعض الآبار للاستقاء منها حتى إذا بلغت مكان البئر وقف دومينج ومارى ومرغريت فى طريقها كأنهم رعاةُ مَدينَ يحولان بين ابنة شعيب وبين البئر فيلمحها پول على البعد فيسرع لنجدتها ويحمل على الرعاة حملة شديدة حتى يمزقهم كل ممزق كما فعل موسى ، ثم يضع لها فوق رأسها طاقة جميلة من الزهر الاحمر ليضع الجرة فوقها ، فكأنه يكللها باكليل الزواج ، فأقوم أنا بتمثيل

دور « شعيب » و أزوج ابنتى « صفورة » من الفتى « موسى »

وأحياناً كانت تمثل دور البائسة « راعوث » حينما عادت إلى بلدها بعد غياب طويل فترى نفسها غريبة منقطعة لا أهل لها ولا رحم فتظل سائرة فى طريقها مطرقة الرأس ساهمة الوجه حتى تلمح جماعة الصيادين وكان يمثلهم دومينج ومارى ومرغريت يحصدون فى مزرعتهم فتتبع خطواتهم وتلتقط بعض السنابل الساقطة لتتبلغ بها فيراها پول وهو يمثل دور « بوعز » أحد نبلاء المدينة فتدركه رقة لها فيتقدم نحوها ويسألها عن شأنها فترتعد بين يديه وتجيبه على أسئلته بصوت خافت متهدج فتذرف عيناه الدموع رحمة بها ومرثاة لها ويأخذ بيدها حتى يقف بها أمام شيوخ المدينة فى منتداهم ويعلن زواجه منها رغم فقرها وإقلالها

وهنا تذكر هيلين حياتها الاولى وأنها كانت أشبه شىء بحياة تلك الفتاة الاسرائيلية المسكينة وانها لقيت من أهلها وجفائهم وغلظتهم مثل مالقيت ، وكابدت من آلام الحياة وهمومها مثل ما كابدت ، فتبكى بكاء طويلا

ثم لا تلبث أن تصل بخيالها إلى النهاية الطيبة التى خُتمت بها تلك الرواية فتهدأ نفسها قليلا وتتفاءل خيرا لابنتها أن يكون مصيرها هذا المصير السعيد

وجملة القول أننا كنا نتمتع فى ذلك اليوم بجميع ما يتمتع به السعداء فى منتدياتهم وسهراتهم ، ومعاهد أنسهم ولهوهم ، من أكل وقصف ، ورقص وتمثيل ، ولعب ومراح ، لافرق بيننا وبينهم إلا أننا لانزخرف المسرح الذى نتنقّل عليه بالصور الكاذبة للبحر والشاطىء والصحراء والسماء والكواكب والنجوم والنبات والعشب وهدير الامواج وزفيف الرياح ودمدمة الرعود كما يزخرفون ، فكل ذلك حاضر بين أيدينا حقيقة لا خيالا

ولا نزال هكذا حتى تدنوَ ساعة الاصيل ويقف قرص الشمس وقفة الوداع على قِمّة الجبل متوهّجاً كاللهيب الاحمر فيظل ينثر ذراته الذهبية فى عرض الفضاء ، وتظل قطع الانوار تتساقط من بين فجوات الاغصان

كأنها الدنانير المبعثرة ، وتستحيل أوراق الزهر فى سكون ذلك الجو وهدوئه الى أحجار جامدة من الزمرد والياقوت والماس والفيروزج ، ويخيل للناظر الى الجذوع الماثلة كأنها بقايا بركان قديم كان قد غمرها فى سالف العهد ثم انحسر عنها فاذا هى أعمدة صدئة من البرنز القاتم ، ثم لا يلبث الظلام أن يمتد وينبسط فاذا الفضاء سكون ووحشة ، واذا البحر خشية وجلال ، واذا الطير حائمة على أوكارها تفر اليها من وحشة الظلام وهوله ، واذا كل شيء صامت جامد إلا ما كان من جرجرة الآذىّ (١) تصل إلى آذاننا من حين إلى حين كأنها الزئير المنبعث من حناجر الوحوش الضارية ، فنجمد أمام هـذا المنظر الرهيب ساعةً ذاهلين مستغرقين ، وكأننا قد انتقلنا إلى عالم آخر من عوالم الملأ الاعلى حافل بعجائب المنظورات ، وغرائب المشاهدات ، ثم نعود الى أنفسنا فيودع بعضنا بعضا ، ثم نفترق الى أكواخنا

---

(١) الاذيّ موج البحر

١٥
آدم وحواء

نشأ پول وڤرچيني في هذه الجنة الارضية ، منشأ أبوينا الاولين في جنتهما السموية، فكان پول مثال آدم ، له قامة الرجل وشطاطه ، وبساطة الطفل وسذاجته، وكانت ڤرچيني مثال حواء لها جمال الانوثة وحلاوتها، ودعة النفس وعذوبتها

وكان يعيشان في معتزلهما هـذا حرين مطلقين لا يسيطر عليهما مسيطر من تلك القيود التي تسيطر على عقول الناشئين وضمائرهم في تلك البلاد التي يسمونها بلاد الحرية والطلاقة ، ولا تسجنهما العلوم والمعارف في سجنها الضيق المظلم الذي يحول بينهما وبين التبسط والاضطراب في فضاء الكون كما يشاءان

ولم تكن لديهما ساعة لمعرفة أوقات الليل والنهار ، ولا تقويم لمعرفة الفصول والاعوام ، ولم يتلقيا درساً واحداً

فى علم الهيئة. ونظام الكواكب والنجوم ، ولكنّ الطبيعة استطاعت أن تمنحهما من نفسها ما تمنح العلومُ والمعارف أمثالهما ، فاستعانا بالاشعة والظلال على معرفة الاوقات ، وبنضوج النبات وظهور الاثمار وتلون الازهار على معرفة الفصول ، وبعدد ما غرسا من الأشجار على عدد مامر بهما من السنين والاعوام ، فكانا يقولان « قد حان وقت الغداء » إذا انقبضت ظلال أشجار الموز وتضاءلت تحتها ، و« قرب الليل » إذا التفّت أوراق التمر هندى على أثمارها ، وكانا إذا وعدا أحداً بزيارة جعلا ميعادها ظهور قصب السكر أو نضوج أثمار النارنج ، وإذا سئلت ڤرچينى عن عمرها أجابت : قد أثمرت الكروم مذ ولدت أربعة عشر مرة وأشجارُ البرتقال ثمانية وعشرين ، واذا سئل بول بكم يَكبُرُ ڤرچينى [1] أجاب بمقدار ما بين النخلة الكبرى التى على حافة النبع والنخلة التى تليها ، كأن حياتهما متصلة بحياة النبات ، أو كأنهما آلهة الحقول التى تعيش بينها وترعاها

---

(١) يكبر فلان فلاناً يزيد عليه فى العمر

فكانا لا يعرفان تاريخا غير تاريخها ، ولا يطالعان مصوّراً غير مصوّر جزيرتهما ، ولا يقرآن كتاباً غير كتاب الطبيعة المفتوح أمامها ، ولا يفهمان فلسفة غير أن عمل الخير سعادة ، وعمل الشر شقاء ، ولا يحفظان آية غير آية التفويض إلى الله تعالى فى كل ما يأخذان وما يدعان

وكانا إذا خليا بنفسهما جرت بينهما أحاديث بسيطة ساذجة لا يتكلفان فيها ولا يتعمّلان ، ولا يحاولان أن يضعا حجاباً بين مايدور فى سريرتهما ، وما ينطق به لسانهما

ولقد سمعتهما مرة يتحدثان من حيث لا يشعران بمكانى ، وكان پول قد عاد من عمله ساعة الغروب فرمى بفأسه وحقيبته الى الارض وجلس الى ڤرجينى يقول لها

إنى لأراك يا ڤرجينى وأنا تعب مكدود ما أكاد أتماسك فأنسي تعبى وشقائى ، وكأنى لم أحمل فى يومى فأساً ، ولم أفلح أرضاً ، وربما وقع نظرى عليك وأنا على

قمة الجبل وأنت فى سفحه فيخيل الى أنك وردة بين الورود النابتة حولك، إلا انك أنضر منها حسناً ، وأطيب أريجا ، فاذا غبت عن ناظرى وراء أكمة من الاكمات أو تحت ظلة من الظلل استطعت أن أعرف المكان الذى أنت فيه، لانى أشعر أن موجة من النور تحيط بك حيثما ذهبت ، وأنى حللت ، فاذا برق لى شعاعها علمت أين تحلين من بطن الوادى،فلا أحتاج للسؤال عنك ، فاذا رأيتك وأنت عائدة إلى المنزل خيل الى لجمال مشيتك ، ورشاقة حركاتك، كأنك قطاة تنتقل على بساط الخضرة وأنك موشكة أن تستقلى بجناحيك فى جو السماء

إنك كل شيء لى يافرجينى ، إنك حياتى التى لاأستطيع أن أعيش بدونها، بل لا استطيع فراقها لحظة واحدة ، إن زرقة عينيك أصفى من زرقة السماء ، وأن نضارة وجهك أجمل من نضارة الربيع ، وإن ماء الحسن الذى يجول فى أديمك لهو الكوثر الذى يصفه الكتاب المقدس فيما يصف من بدائع الجنان

أسمع صوتك الذى هو أشبه شىء بصوت الطائر الغَرِد فيخفق قلبى خفقان أجنحة ذلك الطائر ، وأضع يدى فى يدك فتنبعث فى جسمى رعشة شديدة كرعشة الخائف المذعور ، وما أنا بخائف ولا مذعور

أتذكرين يا فرجينى يوم حملتك على ظهرى واجتزت بك ذلك النهر المتدفق ونحن عائدان من زيارة ذلك الرجل الشرِّير ؟

لقد كنت فى ذلك اليوم تعباً ، واهناً ولكننى ماشعرت بملامسة جسمك لجسمى حتى خيل إلى أنى قد استحلت إلى طائر خفاق الجناحين، ولو أنك اقترحت على فى تلك الساعة أن أطير بك فى آفاق السماء لفعلت

لا أستطيع أن أفهم هذا الذى يؤثر علىّ منك يافرجينى فانى لا أخافك ولا أخشاك ، بل أحبك وآنس بك ، فلمَ أضطرب حين أراك ؟ ولم أرتعد حين يلمس جسمى جسمك؟

إنك لا تستطيعين أن تحبينى كما تحبنى أمى ، أو تعطفى على عطفها ، أو تقاسمينى همومى وآلامى مقاسمتها ، ولكننى

أشعر أن الذى أضمره لك من الحب والعطف فوقَ الذى أضمره لها ؛ ولقد عدت الآن من المزرعة وكان أمامى الطريقان، طريق إلى الكوخ فلم أنتبه إليه، وطريق إليك فجئتك ، دون أن أشعر بما أفعل ، أو أعرف لذلك سبباً

ما أحسب إلا أن حادثة الجارية الآبقة كانت هى السبب فى ذلك، فما أنس لا أنسى صورة الألم الشديد التى ارتسمت على وجهك يوم جئتْ تلك البائسة المسكينة تحت قدميك وقصت عليك قصتها، ولا تلك الدموعَ الغزار التى أذرفتِها رحمة بها وإشفاقاً عليها ، ثم ما خاطرتِ به بعد ذلك من راحة نفسك وهدوئها فى سبيلها

إنك طيبة القلب يافرجينى ، إنك تحبين الخير للخير لاتطلبين عليه جزاءاً ولا أجرا ، إنك تتألمين لمصاب المساكين والبائسين أكثر مما يتألم الناس جميعاً ، فانا أحبك أكثر مما أُحب جميع الناس

تعاليْ الى جانبي وخذى هذا الغصن الاخضر الذي

قطعته لك الآن من شجرة الليمون الكبرى وضعيه حين تنامين بجانب سريرك فانه يملأ لك فضاء الكوخ عطراً وشذى ، وخذى هذا القرص من العسل فقد عثرت به فى جوف صخرة عالية فى قمة الجبل ، وسيكون فطورنا فى الصباح جميلاً جداً

تعالىْ إلى يافرجينى وضعى رأسك الجميل على فخذى لأشعر بالراحة من جميع متاعبي وآلامى ، وتحدثى إلىّ قليلا فحديثك غذاء نفسى وراحة ضميرى

فتخرج منديلها من جيبها وتمسح له عرق جبينه ثم تضطجع وتضع رأسها على فخذه وتظل تقول له

أترى ياپول منظر هذه الاشعة الصفراء الساقطة على رءوس الصخور وذوائب الاشجار ؟ ومنظر ذلك الشفق الاحمر الممتد على حافة الافق؟ وتلك اللآلئ اللامعة الجميلة المنتثرة على سطح الماء ؟

انها جميلة جداً ، ولكنها لاتستطيع أن تبعث السرور

إلى نفسي كما يبعثه جلوسي بجانبك ، وامتزاج أنفاسي بأنفاسك

إنى أحب والدتي حباً جماً، ولكنني أحبها أكثر من كل وقت في الساعة التي أراها تحنو عليك وتضمك إلى نفسها وتدعوك ياولدى ، وربما غفرتُ لها إغضاءها عنى أحياناً ولكننى لا أستطيع أن أغفر لها اغضاءها عنك

إنك تتساءل في نفسك لم تحبنى أكثر من كل شىء في العالم ، أما أنا فانى أحبك هذا الحب نفسه ولكننى لا أسائل نفسي عن سبب ذلك، لاني أعلم أن الطائرين اللذين ينشآن في منشأ واحد وجو واحد يتعاطفان ويتآلفان حتى ما يكاد يصبر أحدهما عن صاحبه لحظة واحدة

أنظر هاهما يتصايحان و يتهاتفان على بعد ما بينهما، كأن كلا منهما يقول لصاحبه تعال إلى جانبي ولا تفارقنى، فانى لا أستطيع أن أجد لذة الحياة بعيداً عنك

كذلك نحن يابول، نشأنا في منشأ واحد ورضعنا ثدياً واحداً ونمنا في مهد واحد وابتردنا في حوض واحد

فأصبحنا شخصاً واحداً ، فإذا افترقنا ساعةً ظل كل منا يهتف بصاحبه ويناجيه ، أنت بزمارك على قمة الجبل ، وأنا بأنشودتي في سفحه ، كما يفعل ذانك الطائران المتناجيان على أفنانهما حتى نلتقي

تقول انك أحببتني منذ ذلك اليوم الذي رأيتني فيه أعطف على تلك الجارية المسكينة وأنا أقول لك إنني أحببتك من ذلك اليوم نفسه ، فانى لا أستطيع أن أنسى انك كدت تخاطر بنفسك في سبيلي حينما عزمت على مقاتلة ذلك الرجل الشرير من أجلي ، بل خاطرتَ بها فعلا حينما حملتني على ظهرك وأنت تعب مكدود واجتزت بي ذلك النهر الزاخر المتدفق لا تعلم أتصل إلى شاطئه أم تسقط دون ذلك

إنني أجثو كل يوم بين يدي ربي أسأله الرحمة لأمي وأمك وماري ودومينج ، حتى إذا مرّ ذكرك على لساني ارتعشت شفتاي وشعرت كأني أرتشف على الظمأ جرعة باردة ما خلق الله أهنأ ولا أطيب منها

لمَ تتسلق الصخور من أجلي يابول ؟ ولم تجشم نفسك هذا العناء الشديد فوق عنائك الذى تكابده طول يومك ؟

إني لا أفكر في شيء وأنت غائب عني سوى أن تعود إلى سالما موفوراً ، فاذا رأيتك كنت انت الهديةَ الثمينة التي تُقدمها الى ، وتستحق من اجلها شكرى وحمدى

١٦
الخفقة الاولى

ما لفرجيني حزينة مكتئبة لا تضيء الابتسامات ثغرَها كما كانت تضيئه من قبل !

مالها واجمة صفراء تمشي مطرقة ، وتجلس واهنة ، وكأنّ هما من هموم الحياة الثقال يملأ مابين جانحتيها ، ولا هم هنالك ولا حزَن !

مالها تلجأ إلى الخلوات والمعتزلات وتتجنب جهدها أن تخالط الناس حتى اسرتها وأهلها ، وحتى صديقها الوحيد الذى هو أعز عليها من نفسها التي بين جنبيها !

ما لهذه الخضرة الزاهية البديعة ، ولتلك السماء الصافية المتلألئة ، ولذلك المنظر البديع الجذاب ، منظر الشمس فى طلوعها وغروبها ، والطير فى غدوها ورواحها ، لا يروقها ولا يستثير سرورها وبهجتها ، ولا يسرّى عنها همومها وآلامها ، كما كان شأنها قبل اليوم !

ذلك لأن قلبها قد خفق الخفقة الأولى ، والحب إذا خالط قلب الفتاة لأول عهدها به نقلها من حياة السرور والبهجة ، إلى حياة الهموم والأكدار

نعم قد تحولت الصداقة فى قلب ڤرچينى إلى حب ، وللحب شأن غير شأن الصداقة ، وحال غير حالها ، وشعور وإحساس غير شعورها وإحساسها ، وكما أن المرأة الفارغة تشعر بتغير فى جميع حالاتها الجسمية اذا بدأت بذرة الجنين تنمو فى احشائها ، كذلك الفتاة الخالية تشعر بتغير فى جميع حالاتها النفسية اذا أحست بدبيب الحب فى قلبها ،

وربما كان هذا الشعور هو دليلها الوحيد على أنها قد أحبت قبل أن تعرف ما الحب وما الغرام

لقد كانت ڤرچيني تجهل في مبدأ أمرها حقيقة الحال التي طرأت عليها ، ولا تفهم منها شيئاً سوى أنها قلقة



فرچيني في حالة وحشتها وكآبتها

مستوحشة ، لا تأنس بالناس أنسها الاول ، ولا تجد في الجلوس الى أسرتها ولا في الذهاب الى «استراحتها» الراحة التي كانت تجدها من قبل ، فكانت تهيم على وجهها

فى القفار والغابات وضفاف الانهار وقنن الجبال، ماتكاد تستقر فى مكان واحد، فاذا وقع نظرها على پول فى بعض غدواتها أو روحاتها طارت اليه فرحاً وسروراً، وبسطت اليه يدها لتعانقه، فاذا دانته انقلبت فجأة من سرور الى حزن، ووقفت فى مكانها جامدة جمود الدمية فى محرابها، يتلهب وجهها حمرة، ويرفض جبينها عرقا، فيعجب پول لشأنها، ويظل يقول لها، إن الخضرة اليوم زاهية جدا، وإن الشمس ساطعة متلألئة تضىء كل شىء حتى الانفاق والاغوار، وكل مافى الوجود ضاحك مستبشر ما عداك يافرچينى، فهل لك أن تحدثينى ما الذى ألم بك، وما هذه الغبرة القاتمة التى تلبس أديمَ وجهك، ثم ينقض عليها ليضمها الى صدره كعادته فتتملس من بين يديه املاساً وتركض هاربة الى أمها لتضع رأسها فى حجرها، فيظل پول واقفاً فى مكانه يعجب لامرها عجباً شديداً، لا لان الذى يضمر لها من الحب أقل مما تضمر له، ولا لان نفسه خالية من الهم الذى يخالط

نفسها ، ولكن المرأة ضعيفة خائرة لاتملك من الصبر والجلد بين أيدي النكبات النفسية التى تنزل بها مايملك الرجل ، فاذا أحبت لاول عهدها بالحب ، وكانت شريفة فاضلة ، خرج بها الحب الى حالة أشبه بالجنون والخبل ، وما



فرجيني واضعة رأسها فى حجر أمها .

هى بجنون ولاخبل ولكنها حيرة النفس وضلالها

ولم يزل هذا شأنها حتى جاء شهر ديسمبر وهو الشهر الذى تشتد فيه حرارة الشمس فى تلك المنطقة اشتداداً

عظيما ، وتظل تصب عليها أشعتها عمودية كأنها السهام المنبعثة
من أقواسها ، وتنقطع عنها ريح الجنوب التى تعتادها
طول العام، وتهب عليها بدلا منها أعاصير شديدة تزلزل
أرضها زلزالا ، وتطير بما شاءت من معالمها ومجاهلها، وتشقق
ما أرادت من أطرافها وأنحائها ، فيثور الغبار ملتفاً فى جو
السماء ثم يجمد فى مكانه مايتزحزح ولا يتحلحل كأنه العمد
المنتصبة ، وتصبح سفوح الجبال وجوانب الهضاب كأنها
أتن مشتعلة تنفث أوارها من حولها فتلتهب الاجواء بالتهابها
حتى ما يستطيع متنفس أن يتنفس الا زفيراً، ولا مستنشق
أن يستنشق الا شواظاً ولهيباً، وحتى ما يجد المبترد ضحضاح
ماء فى غدير من الغدر أو خليج من الخلجان يبترد فيه ،
ويزحزح عن عاتقه ذلك القميص النارى اللاصق به ،
وتتساقط الماشية فى ظلال الأشجار وتحت قلل الجبال
واهنة متضعضعة مادة ألسنتها الى السماء كأنها أيد مبسوطة
بالدعاء الى الله تعالى أن يجودها بقطرة تبل غلتها ، وتطفئ

لاعجها ، وكأن ثُغاءها وعجيجها وصفير الرياح السافيات حولها وطنين البعوض الحائم عليها مناحة قائمة على هذه الطبيعة الميتة ، فاذا أقبل الليل عجزت يده الباردة النديّة أن تخفف شيئاً من لهيب ذلك الاتون المستعر ، وظهر القمر فى أُفق السماء أحمر كامداً كأنه الوجـه المخضب بالدم ، ثم يمشى فى طريقه متثاقلا متظالعاً كانما هو يسبح فى لجة عميقة من السحب المحيطة به

فى ليلة من تلك الليالى الداجية السوداء عجزت ڤرچينى عن أن تأخذ لنفسها راحتها فى مضجعها وعجز الـكرى عن أن يلم بأجفانها فثارت من مكانها متململة وأخذت سمتها الى استراحتها عساها أن تجد فيها ما يروح عن نفسها ، وكان القمر يرسل ذلك النزر القليل من أشعته الـكامدة ، فأزعجها انهـا لم تجد من جدولها المترع المتدفق الا خيطا دقيقا يلمع فى ضوء تلك الأشعة الباهتـة كأنه ثعبان ممدود يتقلب على حَرّة سوداء ، ثم مشت الى حوضها الصغير

التى اعتادت أن تستحم فيه فلم تجد فيه الا ضحضاحا من الماء ما يكاد يغمر جسمها : فخلعت ملابسها ونزلته فاستطاعت أن تجد قليلا من الراحة ؛ وكان أول ما مر بخاطرها فى تلك الساعة بعد ان عادت اليها نفسها ذكرى تلك الأيام الماضية التى كانت تستحم فيها مع پول وهما طفلان صغيران فى هذا الحوض الصغير ، وذكرت كيف كانا يقضيان الساعات الطوال على ضفافه عاريين يرقصان ويمرحان ، ويعتليان الهضاب والربى ، ويتسلقان النخيل والاشجار ، ليقطعا أغصانها ، أو يجنيا ثمارها ، ثم ألقت رأسها على صدرها فرأت بين ثدييها وفوق ذراعيها العاريين ظل النخلتين المسماتين باسمها واسم پول ، وقد طالت عنا كيلهما ، وانتشرت سعفاتهما ، وكبر جوزهما ، ولصقت كل منهما بالاخرى لصوقا شديداً ، فأثار ذلك المنظر فى نفسها شعوراً غريبا لم تستطع أن تفهمه ، ولا أن تفهم ما الذى يقلقها منه ، فلم تطق البقاء فى مكانها لحظة واحدة ، فنهضت الى ثوبها

فأسبلته على جسمها ، واندفعت راكضة الى كوخها، وأيقظت أمها من منامها ، واضطجعت بجانبها ، وأخذت بيدها، وظلت تضغط عليها ضغطا شديدا ، كأنما تريد أن تبثها ألمها وتفضى اليها بسرها فلا تستطيع ، وتحاول أن تنطق باسم بول فيحتبس لسانها فى فمها ، ثم لا يلبث ذلك السعير المتأجج فى صدرها أن يستحيل الى زفير فشهيق فبكاء، فتذرف من دموعها ما شاء الله أن تذرف حتى يهدأ ما بها، وأمها صامتة ساكنة تفهم كل كل شىء ولا تقول شيئاً ، سوى أن ترفع نظرها إلى السماء سائلة الله تعالى بنظراتها السابحة فى ذلك الفضاء أن يمنح ابنتها الهدوء والسكينة ، وأن يقيها العثرات والزلات

ولم يزل الحر آخذاً فى اشتداده حتى استثار من مياه البحر أبخرة عظيمة مازالت تتكاثف وتتجمّع حتى انعقدت فى سماء الجزيرة ظُلة سوداء فاحتجب قرص الشمس وتلفعت الجبال والهضاب والرُّبى والآكام بأردية بيضاء من الضباب ، فما تكاد تقع عين الناظر على منظر مستبين، ثم

مالبث الرعد أن قصف قصفاً شديداً دوّت به أرجاء الجبال، وأخذ البرق يرسل شراراته الحمراء فى خلال السحب الكثيفة المتراكمة فأنار بعضا منها وعجز عن بعض، ثم انفجرت السماء عن أمطار غزار سالت بها الاودية والقيعان، وسبحت فيها الربى والهضاب، وما هى الا لحظات قليلة حتى أصبح ذلك الحوض الواسع بحراً ثجّاجا يعُبُّ عبابه، وتصطخب أمواجه، واختفى كل شىء من هواديه وأعلامه، وأُطُمه وذراه، ولم يبق طافيامنه على سطح الماء الا تلك الربوة العالية التى يرفرف فوقها العلم الابيض علمُ الاستكشاف، فكان منظرُها فى وسط ذلك البحر العجاج منظرَ السفينة المضطربة، فى أيدى الامواج الثائرة، فصعِدت اليها تلك الاسرةُ المسكينة تنتظر قضاء الله فيها وفى زروعها وضروعها

وظلت الحال على ذلك عدة ساعات ثم هدأت العاصفة ورقت السحب واستطاعت الشمس أن ترسل من خلالها بعض أشعتها البيضاء، فى انحاء الفضاء، وأخذ بول ودومينج

يفتحان للمياه المتراكمة شعابا واسعة فى أطراف الحوض تنحدر منها الى البحر ؛ حتى لم يبق منها بعد ساعة الا ماركد فى الحفر والاغوار ، والبطون والوهاد ، فذُعر پول وڤرچينى لمنظر الاشجار الساقطة ، والجذوع المترامية ، والاغصان المتناثرة ، والازهار المبعثرة ، كأنهم يشهدون اطلالا بالية قد عصفت بها وبساكنيها أيدى الحدثان ، وعوادى الزمان

وخطر لڤرچينى أن تذهب لزيارة «استراحتها» لترى ما فعلت تلك الحوادث بها فعرض عليها پول أن يَصحبها فسارا معا حتى أشرفا عليها فاذا هى قفر يباب ، لا شجر ولا ثمر ، ولا طيور ولا أعشاش ، ولا جداول ولا غدران ، الا ما كان من تلك البلابل الضاوية الواقعة على ذوائب بعض الأشجار تُرعد بردًا ، وتغرد تغريداً شجياً ، هو بالأنين والبكاء ، أشبه منه بالترجيع والغناء

فأطرقت ڤرچينى إطراقة طويلة ، ثم رفعت رأسها والتفتت الى پول وقالت له لقد ضاعت كل آمالى فى الارض ياصديقى فلم يبق لى الا أملى فى السماء ، لقد غرستُ تلك الجنة

الزاهرة ،وأجريت في خلالها الجداول والغدران،وأنشأت في أنحائها ما شئت من الحظائر لماشيتي ، والاعشاش لطيوري ، وكانت أنسي وراحتي ، وملجأ همومي وأحزاني ، وهاهي ذي أيدي الحدثان قد عصفت بها ، وعفت رسومها ومعالمها ، ومحت سطورها من كتاب الدهر كأن لم تَغنَ بالأمس ، فلم يبق لي ما آنس به في هذا العالم ، ولا ما أسكن اليه ، فلا أطلب لنفسي سعادة غير هذه السعادة ، في عالم غير هذا العالم ،لا تعصف به العواصف ، ولا تجتاحه السيول ، ولا تنال منه أيدي الصروف والغِير

فاضطرب پول عند سماع هذه الكلمات وسرت في جسمه رعدة شديدة ملكت ما بين أقطاره فصمت هُنيهة ثم التفت اليها وقال لها هوني عليك الامر يا ڤرجيني ، فكما يَعرض الموتُ على الحياة ، تَعرض الحياةُ على الموت ، وأعدك وعداً صادقا ان كل شيء سيعود إلى ما كان عليه ، وسترينَ عما قليل خمائلك وأشجارك ، ومياهك وظلالك ،



فرچيني واقفة مع پول تتحدث اليه في شأن استراحتها

وأطيارك وأعشاشك ، عائدة إلى شأنها الاول ، فيعود لك أنسك واغتباطك ، وسرورك وابتهاجك. فرفعت طرفها إلى السماء، وظلت على ذلك ساعة كأنما تحاول أن تطير بروحها إلى ذلك الملأ الاعلى ، ثم وضعت يدها على عاتقه وقالت له أتدرى ماهو خير من هذا كله يابول ؟ قال لا ، قالت إن اسميّك «بول» الرسول عندى منزلةً لاتَعدِلها منزلة أخرى، وقد رأيت له صورة عندك تحتفظ بها فى صندوقك بين أثوابك فرجائى إليك أن تهدينى اياها ، قال لا أحبّ إلى من ذلك ، وانطلق يعدو إلى كوخه عدو الظليم ليأتىَ بها ، وهى صورة أثرية قديمة كانت تحملها مرغريت فى قلادتها منذ زمن بعيد، فلما وَلدت ولدَها بول ورأت فى ملامح وجهه مايشبه ملامح ذلك القــديس العظيم سمتــه باسمه وناطت تلك القلادة بعنقه كتميمة تحفظه من عاديات الدهر ، وغوائل الايام ، ولم يزل حاملا اياها حتى كبر وأيفع فاحتفظ بها فى صندوقه بين ملابسه كأعز شىء لديه حتى سمع ڤرجينى

تقترح عليه أن يُهديها اياها فلم يكن شيء من الاشياء أحب اليه من أن يفعل راضياً مغتبطاً، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى عاد بها طائراً فرحا فقدمها اليها فسرت بها سروراً عظيما ؛ وجرى ماء البشر في وجهها طلقاً غدقاً ، وقالت له ستبقى هذه الصورة تذكارك الدائم عندي ما حييت، ولن تفارق عنقي قط حتى في الساعة الاخيرة من ساعات حياتي ، ولن أنسى أبد الدهر انك قد اهديت إليَّ الشيء الوحيد الذي تملكه ، فخنا عليها وهم أن يحتضنها الى صدره فأفلتت من يده برفق وركضت هاربة الى حجر أمها كعادتها

فوقف پول في مكانه حائراً مكتئباً مذهوباً به كل مذهب تعبث به الوساوس والاوهام

ولقد طال هذا الأمر بينهما وأصبحت حياتهما حياة غريبة مضطربة لا عهد لهما بمثلها من قبل ، فخلت مرغريت يوما من الايام بهيلين وقالت لها لم لا نزوج پول من ڤرچيني فقد بدآ يشقيان في عيشهما ، وأخاف أن يمتد



بول يقدم صورة بول الرسول الى فرجيني

بهما الامر الى ماهو أعظم شراً من ذلك، وعندى انه متى تكلمت الطبيعة وجب الاصغاء اليها ، والاذعان لها ، وماشقى الناس هذا الشقاء الذى نراهم يعالجونه كل يوم الا لانهم تمردوا على الطبيعة وخلعوا طاعتها وسولت لهم نفوسهم السير فى طريق غير طريقها ، فقالت هيلين ان الولدين لا يزالان صغيرين وفقيرين ، فماذا يكون شأنهما غداً اذا قُسم لهما أن يلدا أولاداً كثاراً فى قفرة مثل هذه القفرة لا يعين المرءَ فيها على العيش غير المال ؟ اننا كابدنا أعظم ما يكابد امرؤ فى العالم من عناء وشقاء فى سبيل تربيتهما وتغذيتهما ، فمن لهما وهما ضعيفان ساذَجان وقد رحلنا عنهما الى عالمنا الآخر الذى ينتظرنا ورحل معنا دومينج ومارى بقوة تعينهما على أمرهما وأمر حياتهما العائلية المستقبلة ، إن الزمان قد دار دورته ، وقد أصبحتُ أشعر منذ أعوام بآلام شداد تخالط كل جزء من أجزاء جسمى ، وأرى انى أسير سيراً حثيثاً فى تلك الطريق التى يسير فيها الذاهبون الى حفائرهم ،

وأن ليس بيني وبينها الا خطوات قليلة ، وقد أصبح دومينج شيخاً هرما لا يكاد يحمل عبء نفسه ، وأصبحت ماري على مقربة من ذلك ، فلا يبقى لهما مساعد ولا معين

والرأي الذي أراه أن نباعد بينهما ، فنرسل پول الى بعض أصقاع الهند ليتجر فيها بما يتجر به الاوربيون المنتشرون في تلك البلاد ، عله يتلهى عن ڤرچيني بشواغله وأعماله ، وربما عاد عليه من ذلك ما يعينه على أمرها وأمره غداً

ثم اتفقتا على أن تستشيراني في هذا الأمر فأشرت عليهما به ، وقلت لهما إن في هذه الجزيرة وفي ما حولها من الجزر كثيراً من السلع التي تنفق نفاقا عظيما في الأسواق الهندية كالقطن والآبنوس والاصباغ وما اليها ، فاذا سافر پول بها فباعها هناك ، ثم عاد ببعض السلع الهندية الغريبة فباعها هنا ، وطال مرانه على ذلك واعتياده رجوت له في مستقبل حياته خيراً كثيراً

فعهدتا الى أن أفاتحه في هذا الأمر فخلوت به ذات يوم

وأنشأت أحدثه حديثاً طويلاً عن التجارة وفضائلها ومزاياها، وعن الضرب في آفاق الأرض وثمراته وفوائده، ثم أفضيت اليه بذلك المقترح فأصغى اليه وهو صامت واجم لا يقول شيئاً حتى انتهيت من حديثي فرفع رأسه الى وقال: وهل يوجد عمل أعظم ثمرة وأعود فائدة من عمل الرجل الزارع حين يقوم بزراعة حقل من الحقول لا يعطيه الا القليل من مجهوده وأقل من القليل من ماله فيعود عليه بضعف مابذل له خمسين أو ستين مرة؟ ومتى كانت البحار ياسيدى وطاءً ليناً أخاطر فيه بنفسى لأربح شيئاً أستطيع أن أربحه من بيع ما فضل عن حاجتنا من حبوب وأثمار في أسواق هذه الجزيرة وما حولها من الجزر؟ وأي حاجة بنا الى المال الكثير ونحن والحمد لله في سعة من العيش لا نشكو جوعاً ولا ظمأ، ولا ضيقاً ولا ضجراً، ولا نطلب لأنفسنا منزلة في الحياة فوق المنزلة التي نحن فيها، ولا أكتمك ياسيدى أنى أخاف المال وأخشاه خشية شديدة، وأقشعر من

ذكره كلما سمعت به، واعتقدا أننا لا نزال سعداء فى حياتنا ما دمنا بعيدين عنه وعن التفكير فيه ، فان قُدر لنا يوماً ان نشقى فيها فانما شقاؤنا يكون على يده وبشؤم طالعه ، فلنتمتع بالسعادة التى قسم الله لنا ، ولا نجن على أنفسنا بالتكلف والمحاولة ، وركوب الطريق الهوجاء التى لا نعرفها ، ولا نعرف غايتها ولا منتهاها ، والله أعلم بنا منا ، وأحنى علينا من آبائنا وأمهاتنا

فوقفتُ بين يدى هذه الكلمات الحكيمة المملوءة شرفاً وفضيلة موقف الجمود والصمت ، لا أستطيع أن أقول له شيئاً ، ولا أن أنكر عليه أمراً ، ولا أن أفضى اليه بسر ذلك المقترح الذى اقترحته عليه ، ضناً به أن يهلك يأساً وجزعا

١٧
الرسالة

وهنا وصلت سفينة من فرنسا تحمل كتاباً لهيلين من عمتها تقول لها فيه إنها ندمت على ما كان منها فى الماضى

من قسوتها عليها ونبوّها بها واطّراحها اياها ، وانها قد بلغت السن التى تحتاج فيها الى قلب رحيم من قلوب أهلها أو ذوى رحمها يخفق بجانبها : لانها تعيش في بلد لا أهل لها فيه ولا رحم ، فهى تقترح عليها أن تحضر اليها بنفسها ، فان حال دون ذلك حائل أرسلت اليها ابنتها بدلا منها لتكون بجانبها فى ساعتها الأخيرة ، وقالت لها إنها قد عزمت على أن توصىَ لفرچينى بجميع ثروتها من بعدها

فوقع ذلك الكتاب من نفوسهم جميعاً موقع الدهشة والعجب ، وكأنما قد نزلت بهم كارثة من أعظم كوارث الدهر ، فقد تمثل لهم أن هيلين ستفارقهم وينقطع أنسها عنهم ، وان ذلك الوادى سيقفر منها ومن فواضلها وأياديها بعد ما عمّرته أعواماً طوالا ، فوجمت مرغريت ، وأطرقت فرچينى ، وجمد بول فى مكانه جمود الصنم ، واستعبر دومنيج ومارى ، ومرت بهم على ذلك ساعة لم تمر بهم مثلها مذ وطئت أقدامهم هذه الأرض حتى اليوم ،

ثم التفتت هيلين الى مرغريت باسمة وقالت لها هدئى رُوعك ياصديقتى فانى لاأفارقك قط ، وما أحسبنى مستطيعةً ذلك لو أردتُه ، فقد سعدت بك برهة من الزمان لاأستطيع أن أنساها أو أنسى يدك البيضاء فيها ، ثم أقبلت عليهم جميعاً وقالت لهم كونوا مطمئنين يا أولادى ، فسأبقى معكم حتى أموت بينكم وأدفن فى التربة التى تعيشون فيها ، ولقد جرح الدهر قلبى فيما مضى جرحاً دامياً فكنتم أنتم أطباءه وأُساته ، وما زلتم به تنفون عنه غُثاثته وتنضحونه بالبارد العذب من ودكم واخلاصكم، وعطفكم ورحمتكم ، حتى التأم أو كاد ، فلن أكفر بنعمتكم قط ، ولن أجازيكم على احسانكم شر الجزاء ، ولئن كانت قد بقيت فى أعماق قلبى بقية من ذلك الشجن القديم ، والذكرى المؤلمة ، فذلك مالا يدَ لكم فيه ، ولا حيلة لكم فى أمره ، ولا توجد قوة فى العالم سواءً أعشت فى هذا الكوخ الحقير ، أو فى ذلك القصر العظيم ، تستطيع أن تَشفينى من دائى ، الا أن يمدّ الله الى يد معونته ورحمته

فما سمعوا منها ذلك حتى استُطيروا فرحا وسروراً ، وداروا بها يقبلونها ويعتنقونها ، ويهنئونها بوفائها واخلاصها ، فلله ما أشرفهم وأكرم نفوسهم ، إن الثروة الطائلة التى يقتتل عليها الناس اقتتالا وينحر بعضهم بعضاً فى سبيلها تعرض نفسها عليهم عرضاً فيأبونها ويطيرون فرحا بالخلاص منها

وانهم لكذلك اذ سمعوا ضوضاء خارج الكوخ وأصواتا غريبة، فدخل عليهم دومينج وأخبرهم أن سيداً عظيما يركب مركباً فارها ووراءه عبيد كثيرون يقصد هذا الكوخ ، وما أتم كلمته حتى دخل ذلك السيد العظيم ، فاذا هو حاكم الجزيرة المسيو « لابوردينيه » فنهضوا له إجلالا وإعظاما، وحيّوه أحسن تحية، وقدمت له مرغريت كرسياً من القش فجلس عليه، وقدمت له هيلين شراب الارز فى إناء بسيط من القرع فتناوله مغالياً نفسه على كتمان ما شعر به من التقزز حين شربه ، ثم دار بعينيه فى انحاء الكوخ ، فعجب لحقارته ورثاثته، وبساطة ما يشتمل عليه من الآنية

والأثاث ، وبدأ حديثه بمعاتبة هيلين فى انقطاعها عن زيارته تلك المدة الطويلة ، وأنها لم تلجأ اليه فى ساعات شدتها وبؤسها ليمدها بالمعونة التى تحتاج اليها ، وكان پول واقفاً بجانب الباب يسمع حديثه ويلقى عليه نظرة شزراء كأنما قد أُلهم مايدور فى نفسه ، وما قدم من أجله ، فتقدم نحوه خطوة وقال له إنك لست بصادق فيما تقول يا سيدى ، لان أمى ذهبت اليك فى بيتك منذ أعوام فازدريتها واحتقرتها ، ولم تأذن لها أن تجلس على كرسى بين يديك ، ولقد أراد الله بها خيراً اذ كفاها مؤونة حمل منتك أو منة أحد من الناس غيرك ، فالتفت الحاكم الى هيلين وقال لها ألك ولد أيضاً يا سيدتى ؟ قالت لا ، ولكنه ولد صديقتى مرغريت ، وهو يسمينى أمه لأنه ربى مع ڤرچينى فى مهد واحد ، ورضع معها ثديا واحداً ، وأحبها حباً لا يحبه الأخ أخاه ، فنظر اليه الحاكم وقال له ادن منى ياولدى ، فدنا منه ، فمسح بيده على رأسه ، وقال له انك لاتزال صغيراً يا بنى ، فاذا بلغت مبلغ الرجال ،

وفهمت ضرورات الحياة وأحكامها ، أدركت مبلغ شقاء هؤلاء القوم الذين تسمونهم حكاما ، وعلمت أن أعظم ما يشقون به فى حياتهم انهم ليسوا أحراراً فى إجراء العدالة بين الناس ، وإراحة الحقوق على أهلها ، وتحرى الصدق فيما يقولون ، والفضيلة فيما يفعلون

فتناول پول يده وهزها هزاً شديداً ، وقال له أشكر لك صدقك وصراحتك يا سيدى ، وان كنت قد أسأت الينا فيما مضى ، وأظن أنى أستطيع أن أتخذك صديقاً لى منذ اليوم ، فابتسم الحاكم وقال : ولى الشرف العظيم بذلك يا ولدى

ثم أشار الى هيلين أنه يريد محادثتها على انفراد ، فأشارت اليهم جميعا فانصرفوا ، فأقبل عليها يقول لها لا بد أن تكونى قد قرأت الكتاب الذى أرسلته اليك عمتك اليوم ، وقد جاءنى منها كتاب فى البريد نفسه تطلب الىّ فيه أن أزوركِ ، وأبذل كل ما أملك من الجهد فى حملك على السفر اليها ، أو ارسال ابنتك ڤرچينى بدلا

منك ، وأرى أن ترسلى اليها ابنتك، فهى فتاة ناشئة فتية ذات نضرة وجمال ،وليس من الرأى أن تدفنى مثل هذه الحياة الغضة الندية فى مثل هذه التربة القاحلة المحرقة ، والحياة السعيدة هنالك تنتظرها ، وتمد ذراعيها لاستقبالها ، وإنى وان كنت أعلم أنى أطلب اليك ما يشق عليك ، ويفت فى عضدك ، ولكنى أعلم أيضاً انك أرحم بابنتك وأحنى قلباً عليها من أن تحولى بينها وبين تلك السعادة التى تنتظرها من أجل متعة نفسك برؤيتها جالسة بين يديك ، وأعتقد انك لا ترين بأساً فى تضحية شىء من عواطفك النفسية فى سبيل راحتها وسعادتها ،وهناء عيشها طول أيام حياتها ، ولقد كتب الى وزير المستعمرات ان أعنى بهذه المسألة عناية كبرى ، وأن لا أدعها تفلت من يدى ما وجدت الى ذلك سبيلا ، ومعنى ذلك عنده أن آخذك بالشدة فى هذا الأمر ، وأكرهك منه على ما لا تحبين ، ولكننى لم

أحفل بكلامه ، ولم أكترث له ، وجئت اليك بنفسى لأعرض عليك الأمر عرضا، لا لألزمك به الزاما، وانى أكل اليك والى رحمتك وشفقتك ، وتعقلك ورزانتك، مستقبل هذه الفتاة المسكينة ، فاختارى لها ما يجب أن تختاره الأم الرؤوم لابنتها ، على أن صلتها بك لن تنقطع فى مستقبل الأيام، وستسمعين غدا من أحاديث هنائها ورغدها ، ورفاهيتها ونعمتها ، ماينير لك ظلمة الوحشة التى تشعرين بها بعد فراقها، على أنها ربما عادت اليك بعد قليل من الأيام ، فان عمتك على ما أعلم فى الدور الأخير من أدوار حياتها ، وماهى الا هامة اليوم أو غد

فقالت له هيلين انى ما تمنيت على الله فى حياتى شيئاً سوى أن أرى ابنتى سعيدة فى حياتها، هانئة بعيشها، الا أنى لا أحب أن أفتات عليها فى أمر من أمورها، فلا بد لى من أن آخذها بالرفق واللين حتى تذعن لما أريد، وارجو أن يعيننى الله على ذلك ، واظن انى أستطيع أن أفضي اليك بالأمر غداً أو بعد غد

قال أرجو أن تعجلي بقدر ما تستطيعين ، فالسفينة موشكة على السفر ، ولا أحسبها باقية عندنا أكثر من ثلاثة أيام ، ولا أعلم متى تعود بعد ذلك

ثم نهض قائماً وأخرج من جيبه كيساً كبيراً مملوءاً بالقطع الذهبية ووضعه على المائدة وقال هذه هدية عمتك اليك لتستعينى بها على شأنك وشأن فرجينى وودعها ومضى

١٨

الوداع

لم يثقل هذا الأمر كثيراً على نفس هيلين ، بل صادف هوى من قلبها ، ولم تكن كاذبة فى قولها للحاكم انها لا تتمنى على الله فى حياتها شيأ سوى أن ترى ابنتها سعيدة فى حياتها ، هانئة بعيشها ، الا أنها لا تحب ان تفتات عليها فى أمرها ، فلم يتجاوز الحاكم عتبة باب الكوخ حتى دعت اليها ابنتها وخلت بها وأنشأت تحدثها حديثاً طويلا قالت لها فيه انى أصبحت يا بنيتي امرأة مريضة

منهوكة ، لا قوة لى ولا عزيمة ، وما مرغريت بأحسن حالا
منى ، وقد صار دومينج وماري شيخين ضعيفين ، والشيخوخة
أسرع الى سكان هذه المناطق الحارة منها الى سكان المناطق
الاخرى ، وپول لا يزال فتى غريراً عاجزاً عن أن يستقل
بنفسه في ما يعالج من شؤونه ، فماذا يكون حالكما غداً لو أنكما
أصبحتما تحملان وحدكما عبء هذه الحياة الثقيلة على عاتقكما ،
وكيف يهون عليكما أن تريا أولادكما الصغار غداً بؤساء
أشقياء لا يملكون لأنفسهم ولا تملكان لهم نفعاً ولا ضراً ،
ولقد مثّلتُ لنفسي بين أن تعيشي بجانبي فأراك فقيرة
معوزةً تشقَيْنَ ليلك ونهارك في جمع قوتك كما تشقى
الاجيرة العاملة ، وبين أن تفارقيني بضعة أعوام أسمع في أثنائها
على البعد من أنباء سعادتك وهنائك ، ونعمتك ورغدك ،
ما يُثلج صدري ، ويذهب بوحشة نفسي ، فوجدت انى
أستطيع احتمال الثانية ، وأعجز عن احتمال الاولى ، فسافري
يا بنيتي ، وكوني غداً عكاز شيخوختي ، وعماد حياتي ، ومعينتي
على دهري

فرفعت ڤرچيني رأسها اليها فاذا دمعة رقراقة تتلألأ في عينيها ونطقت بتلك الكلمة التى عجزت عن أن تنطق بها قبل اليوم فقالت « وكيف لى بترك پول ياأماه »

فقالت لها انما أطلب اليك السفر من أجل پول، لا من أجل غيره ، فهو غلام مسكين يبذل من راحته وقوته في سبيل العمل ما أحسب انه قاتله وذاهب بحياته ان طال عليه أمره ، فارحميه واشفقى عليه ، وأنقذيه من بؤسه وبلائه ، ولقد آثرت أن أفارقك وأحتمل كل مكروه فى سبيل ذلك حتى الموت ضناً بك وبسعادتك ، فكونى مثلى وفارقيه رحمة به وإبقاء عليه ، وليكن حبك إياه عظيما مجيداً كحبى إياك ، ولن يعظم الحب ولن يمجد إلا إذا بنى على أساس من التضحية والبذل

قالت ألم تقولى لى ياأماه قبل اليوم ان للكون إلها يتولى شأنه ويرعاه ، وقد رعانا وتولى شأننا بالامس ، فلم يتخلى عنا غداً ؟

ألم تقولى لى إننا ما خلقنا الا للعمل ، وان العمل هو ينبوع الحياة ومادتها التى لا تفنى ، فلم تطلبين الى اليوم أن أعتمد فى حياتى على غيره ، وألتمس الرزق من سبيل غير سبيله ؟

دعينى أعش بجانبك يا أماه ، وبجانب پول ومرغريت ود. مينيج ومارى ، وعلى مقربة من شويهاتى وأعنزى ، وطيورى وعصافيرى ، وبين أحضان هذا الوادى الجميل الذى أنست به وأحببته ، وألفت ليله ونهاره ، وكواكبه ونجومه ، وأشعته وظلاله ، فانى لا أستطيع أن أعيش بين قوم لا أعرفهم ولا أفهمهم ، ولا أحسبني أحمدهم إن عرفتهم وفهمتهم

دعينى أعش مما قسم الله لى من الرزق ، ولقد رزقنى الجم الكثير الذى لا أطلب فوقه مزيداً ، ولا أبتغى به بدلا

لقد عشت فى هذا الوادى خمسة عشر عاما ماشكوت ولا تألمت ، ولا بت ليلة جائعة أو ظامئة أو ساخطة أو ناقمة ،

فلم تطلبين الىّ أن أترك مالا يَريبنى الى ما يَريبنى، وأن أبيع هذا الحاضر المعروف ، بذلك الغائب المجهول ، وإن نفسى لتحدثنى بشر عظيم فى هذه السفرة التى تدعوننى اليها ، وماأزعم لنفسى علم مافى الغيب ، ولكننى أشعر بخوف شديد لا أعرف له سبباً ، وحسبى أن أعلم أن لا سبيل لى الى الوصول الى ذلك العالم الثانى الا اذا ركبت تلك المطيّة الوعرة التى تسمونها البحر حتى تسيل نفسى رهبة وجزعاً

فأطرقت هيلين صامتة ولم تستطع أن تقول شيأ ، لأنها وان كان من أشهى الاشياء اليها أن ترى ابنتها بعيدة عن بول فى تلك الأيام، وأن تراها آخذة بحظها من تلك السعادة التى تنتظرها هناك الا أنها رحمتها وأشفقت عليها فلم تستطع أن تجادلها فيما تقول

ثم قالت لها بعد قليل انى لا أحب أن أشق عليك يا بنيّتى فى شأن من شئونك الخاصة بك ، فاختارى لنفسك

الحياة التى تحبينها وتؤثرينها ، غير أنى أضرع اليك فى أمر أرجو ألا يثقل عليك ، قالت وما هو ، قالت أن تكتمى سرك الذى تعالجينه بين جنبيك،فلا تبوحى به لاحد من الناس كائناً من كان حتى لبول نفسه ، وأن تجعلى الفضيلة والطهارة والشرف والعفة رائدك فى كل ما تقولين وما تفعلين ، وأن تأخذى نفسك بالاناة والرفق فى جميع خطواتك وتصرفاتك اتقاء العثرة والزلة ، وأن تجعلى نُصب عينيك دائماً ان الرجل لا يحترم الا المرأة التى تضن بنفسها عليه ، ولا يحتقر مثل المرأة التى تبذل نفسها له ، أى انه يحب المرأة الشريفة ، أكثر مما يحب المرأة الجميلة ، بل لا يعرف للمرأة جمالا غير جمال الادب والعفة ، وان زعم فى نفسه غير ذلك ، قالت ذلك ما أعرفه يا أماه ، ولا أعرف شيئاً سواه

وما أتى المساء حتى وفد الى الكوخ كاهن الجزيرة وهو رجل من أولئك الدهاة الماكرين الذين تستعين بهم

الحكومات الاستعمارية على غزو القلوب الضعيفة وحيازتها بلا سفك دم، ولا انفاق مال، والذين يكونون دائماً في حاشية حكام المستعمرات ليعينوهم على ماهم آخذون بسبيله من الفتح والغزو ، وكان هذا الكاهن يختلف الى هذه الأسرة من حين الى حين ليرشدها ويباركها ، فلما رأوه قادماً اليهم ظنوا انه انما جاء لزيارتهم كعادته التي اعتادها ، فأحسنوا استقباله وتحيته ، ورأت هيلين أن تكاشفه بذلك الأمر الذي كان يشغلها ، فكاشفته به ، فلم يلبث أن قضى فيه قضاء مبرماً ، وأعلن أن الله يأمر هيلين بالبقاء في الجزيرة ، ويأمر فرجيني بالسفر الى فرنسا ، وانهما ان لم تفعلا فقد خالفتا ارادة الله وباءتا بسخطه وغضبه ، فذُعرت فرجيني ذعراً شديداً ، ولم تجد بداً من الخضوع والاذعان ، فانصرف الكاهن عائداً الى قصر الحاكم ليرفع اليه ماتم من الامر على يده

وما أصبح الصباح حتى علم سكان الجزيرة أن تلك الأسرة الفقيرة الخاملة التي تسكن ذلك الوادى المقفر الموحش قد أمطرتها السماء فضة وذهباً ، فوفد إليها الوافدون من كل مكان ، ما بين مستمنح يطلب حاجة ، ومستعين يطلب معونة ، وتاجر يعرض سلعة ، فأعطت السائل ، وأعانت المسترفد ، وابتاعت من الانسجة والشفوف وصنوف الديباج والخز وأنواع الاثاث والرياش مايزيد عن حاجتها ، وما يضيق به كوخها ، وخلع جميع أفرادها أسمالهم القديمة البالية وقُمصهم البنغالية الخشنة ، وارتدوا ملابس جديدة بديعة الشكل والهندام ، ولبست فرجينى ثوباً حريرياً أزرق مطرزا بالقصب ، واعتصبت بعصابة وردية زاهية ، ولصق ثوبها بجسمها فمثّله تمثيلا بديعاً ، ووصفه وصفاً دقيقاً ، وبول يرى كل هذا ولا يفهم منه شيئاً ، لان أحدا لم يجرُؤ أن يكاشفه بالأمر ، إلا أن يظن ذلك ظناً ، فعظم حزنه واكتئابه ، وساورته الوساوس والهموم ، فرحمته أمه مما به ، وكانت تُمسك فى نفسها

شيئاً من العتب على صديقتها هيلين فى رضاها بسفر ابنتها، وتضحيتها بابنها فى سبيلها ، فدعته إليها وخلت به وقالت له لم تعلل نفسك يابنى بالآمال الكاذبة ، والامانى الضائعة ، ولم تتطلع الى ماتقصر عنه يدك ، ويضيق به ذرعك. ولقد آن أن أكشف لك حقيقة أمرك الذى كتمته عنك زمنا طويلا لتعلم من أنت ، ولتقدر آمالك على مقدار حقيقتك ، لا على مقدار تصورك ، فاعلم أن أمك امرأة فلاحة وضيعة لاحسب لها ولا نسب ، وأن قدَراً من الاقدار الجارية بين الناس قد نزل بها فى صباها فحاد بها عن طريق الشرف والاستقامة فحملت بك من سفاح ، أى انك لا أب لك يعرفه الناس ، ولا لقب لك غير لقب أمك ، فلا تقس نفسك بفرجينى ، فهى فتاة شريفة نبيلة من أسرة كريمة مشهورة ، ولها عمة مثرية كانت قد أغفلت أَمرها حقبة من الزمان لامرٍ مّا ثم ذَكَرَتْها اليوم فأرسلت فى طلبها لتعيش معها فى باريس متمتعة بثروتها الطائلة

حتى تذهب لسبيلها فترث عنها هذه الثروة من بعدها، فلا تطمع فى أن تتصل بها يوماً من الايام الا أن تكون فلتة من فلتات الدهر، أو أعجوبة من أعاجيب الايام، وأرح نفسك من هموم الاماني ومتاعبها ، والله أولى بك وبى من كل مخلوق

واعلم يابنى انى لم أقترف هذا الجرم الذى ذكرته لك وأنا أعلم أنى آثمة أومذنبة، ولكنه قضاء الله قد جرى بما لا حيلة لى ولا لاحد من الناس فى أمره، فاغفر لى خطيئتى ان كنت ترى انى مخطئة ، أوأنى الجالبة لك هذا الشقاء الذى تكابده فى حياتك

ثم أسلمت رأسها الى ركبتيها وبكت بكاء طويلا

فخنا عليها پول وطوق عنقها بيديه وقال لها لا تبك يا أماه ، فما أنت بيائسة ولا شقية مادمت معك ، أما هفوتك التى تتحدثين عنها فما أحسب الا أن الله قدغفرها لك ، لانك قد كفرت عنها بدموعك وآلامك

وشقائك الذى كابدته زمنا طويلا ، وكونى على ثقة من انك أجل فى عينى ، وأكبر فى نفسى ، من أن أعدّ عليك أمثال هذه الهفوات والعثرات ، وأنى لا يعنينى أكان أبى معلوما أم مجهولا ، شريفاً أم وضيعا ، لانى ما فكرت يوما من الأيام أن أفخر به ، أو أعتمد فى حياتى عليه ، أما تلك التى حدثتنى عنها فسأحمل نفسى على نسيانها وسلوتها ، وأرجو أن يعيننى الله على ذلك ، ولقد شعرت قبل اليوم بانقباضها عنى ، وتجهمها لى ، ولا بد أن تكون قد وقفت على هذا السر الذى أطلعتنى عليه اليوم من بضعة شهور فازدرتنى واحتقرتنى ، ونفضت يدها منى الى الابد ، والامر لله وحده

ثم نهض قائماً وقد ظن أنه شفى مما به فتنفس تنفس الراحة ومضى لسبيله

الا أنه لم يبعد الا قليلا حتى شعر بوخزة فى قلبه فلم يبلْ بها ، ثم تتابعت الوخزات فخيل اليه أن قلبه يرفرف ما بين أضلاعه رفرفة الطائر بأجنحته ، وأنه يحاول أن ينبعث من

مكانه ويطير فى أجواز الفضاء ، فصرخ صرخة عظمى وظل يهتف : آه يافرجيني ! آه يافرجيني : حتى وصل الى صخرة عالية على شاطيء البحر فتهافت عليها وأسلم رأسه الى ركبتيه وذهبت به نفسه مذاهب لا يعلمها الا الله

وظل على ذلك ساعة حتى انحدر قرص الشمس الى مغربه ، وبدأ كوكب الليل يخطر فى جو السماء محفوفاً بحاشية من سحبه وغيومه ، فلا يكاد يلمحه اللامح من خلالها ، الا كما يلمح وجهَ الحسناء من وراء خمارها ، ثم أخذ يرسل أشعته الباهتة الخضراء على ما تحته من صخور وهضاب ، ورمال وتلال ، فاضاءتها وأضاءت فيما أضاءته ذلك الشبح الضئيل الجاثم على تلك الصخرة المنفردة

وإنه لكذلك اذ شعر بيد قد وضعت على عاتقه وأخرى ترفع رأسه فانتبه فاذا فرجيني واقفة أمامه ودموعها تترقرق فى عينيها ، فذعر اذ رآها وَظل ينظر اليها نظراً حائراً مضطرباً ، فقالت له ما بقاؤك هنا وحدك فى هذا المكان

يابول ؟ فقال لها لقد حدثونى عنك انك مسافرة بعد يومين أو ثلاثة ، وانك ذاهبة لتفتشى لك عن أخ آخر غيرى يصالح لك وتصالحين له ، لانك عرفت انك فتاة شريفة سرية لا يجمل بك ان تتصلى بفتى وضيع مسكين مثلى ، فأحزنى



فرچينى تنبه پول من اغمائه

ذلك حزناً عظيما ، وكنت أظن أننى أستطيع أن أحمل نفسى على الصبر عنك ، واليأس منك ، فعجزت ، فلم أر بداً من أن أروّح عن نفسى ببضع قطرات من الدمع أذرفها فى هذا المكان الخالى

ثم أشار اليها أن تجلس بجانبه وأقبل عليها وظل يقول لها: الى أين تريدين أن تذهبي يا ڤرچيني ؟ وأى أرض تلك الارضُ التى اخترتِها وآثرتِها على أرضك التى نشأت فيها ، وألفت ماءها وهواءها، وظلالها وأفياءها، وخضراءها



بول يعاتب فرچيني

وغبراءها ؟ وأى قلب ذلك القلبُ الذى رأيتِ أنه يحمل لك فى سويدائه من الحب والعطف أكثر مما يحمل لك قلبُ أمك فاستبدلتِه به وسكنت اليه مِن دونه ؟

لمن تتركين تلك المرأة المسكينة وأنت أنس وحشتها، وسمير وحدتها، وعماد حياتها، وكل أملها ورجائها في هذا العالم

كيف تستطيع أن تهنأ بنومها حينما تمد يدها في ظلام الليل وسكونه الى مضجعك فلا تراك بجانبها، وكيف تستقبل وجه النهار اذا فتحت عينيها في الصباح فلا تقعان على وجهك المشرق الجميل، أو تجد لذة الطعام والشراب إذ جلست إلى المائدة فلا تراك بين الجالسين إليها، أو تصغى الى أصوات الطبيعة المترنمة وصوتك لا يجلجل بينها، ولا تنبعث رنته بين رناتها

وكيف لي بتعزيتها وتعزية أمي عن همومهما وأحزانهما اذا دخلتُ اليهما فرأيتهما باكيتين منتحبتين تسألان عنك الليل والنهار، والأصائل والاسحار، والظباء السانحة، والطيور البارحة، فلا تسمعان ملبيا ولا مجيباً، ولا تقبلان عزاء ولا سلوى

وصمت هنيهة ثم قال وعيناه مخضلّتان بالدموع:

وماذا أصنع أنا من بعدك أيتها الغادرة القاسية اذا ظللت أفتش عنك فى مخدعك ، واستراحتك ، وتحت ظلال الاشجار ، وعلى شواطئ الانهار ، وفى جميع الاماكن التى أعلم أنك تأوين اليها لأجلس اليك ساعة أتمتع فيها بلذة حديثك ، وحلاوة سمرك ، فلا أراك فى واحد منها ، ومن لى بمن يستقبلنى حينما أعود من المزرعة تعبا لاغبا فيبتسم لى تلك الابتسامة العذبة الجميلة التى تذهب بجميع أوجاعى وآلامى ، ومن ذا الذى يصحبنى فى هدوء الليل وسكونه الى شاطئ البحر وقد بسط القمر أشعته على أمواجه وصبغها بلونه الفضى الجميل فيجلس بجانبى على رملة من رماله الميثاء فيسمعنى تلك الاناشيد الساحرة الخالبة التى تستغرق شعورى ووجدانى ، وتملك علىّ مداركى وعواطفى ، ويخيل الى حين أسمعها أنها هابطة من الاعلى ، وانها نغمات الحور الحسان ، فى فراديس الجنان

إننى لا أستطيع أن أعيش من بعدك يافرجينى ، ولا أستطيع أن أسألك أن تستصحبينى معك فى سفرك ، فأنت

أجل من ذلك شأناً ، وأعظم خطراً ، ولقد أفضت الىّ أمى اليوم بسر حياتك وسر حياتى فعلمت أنك فتاة شريفة جداً ، وأنى فتى وضيع جدا ، لا أصلح أن أكون أخالك ، بل لا أصلح أن أكون عشيرك وجليسك ، وانما أسألك أن تأذنى لى بركوب السفينة التى تركبينها لاكون ملاحا من ملاحيها ، أو خادما من خدمها ، فأراك على البعد ، فأجد فى رؤيتك راحتى وسلوتى ، وأعدك وعداً صادقاً لا أغدر فيه ولا أحنث أننى لا أجالسك ، ولا أدنو منك ، ولا أتصل بك بوجه من الوجوه ، الا اذا عرض لك خطر من الاخطار ، فانى أبذل لك فى تلك الساعة جميع ما تملك يدى ، وما تملك يدى غير حياتى ، فأبذلها لك طيبَ النفس عنها

ماهذا الذى طرأ عليك ياڤرجينى ؟ وما الذى نال من نفسك هذا المنال كله حتى استحالت حالتك إلى حالة أخرى أكاد أنكرها ولا أعرفها ؟

كنت تخافين البحر أشد الخوف ، وتجزعين لرؤية

عواصفه وزوابعه جزع الاطفال الصغار ، وتعجبين كل العجب الذين يخاطرون بأنفسهم في ركوبه ، فاذا أنت مزمعة أن تعبريه ، وأن تلبثي بين أمواجه الثائرة تسعين يوماً كاملة

كنت تتألمين أشد الألم لفراق أمك يوماً واحداً، فها أنت تريدين أن تفارقيها فراقاً طويلا لا يعلم مداه الا الله تعالى ، ومالك حيث تذهبين من الارض أم سواها

كنت تقولين لى إنى لا أجد لذة الحياة بعيدة عنك ، فها أنت تجدينها بعيدة عنى جداً بين أقوام لا تعرفينهم، ولا تمتين إليهم بصلة من الصلات ، أو سبب من الأسباب

لقد شعرت بهذا الطارئ الجديد الذى طرأ على نفسك مذ رأيتك تلبسين هذا الثوب الضيق اللاصق بجسمك، وعهدي بك انك تضيقين ذرعا بالريح العاصفة اذا مدت يدها اليك ، وحاولت أن تعبث بذيل ردائك ، أو تلف قميصك على جسمك ، ولا أدرى ماذا يكون شأنك غداً إذا فارقت هذه القفرة الموحشة الى ذلك العالم المزدحم

الهائل الذى يتدفق حرية واستهتاراً ، ويسيل نعمة ورغدا

نعم إنك قد مللتِنى يافرچينى ، ومللت الحياة بجانبى ، وأصبحت تشعرين بالحاجة الى المال الذى لا أستطيع تقديمه لك ، والى العيش الرغد الذى تقصر يدى عنه ، فلا ألومك ولا أعتب عليك ، ولكننى أسألك هل أنت على ثقة من أن المال هو السبيل الوحيد الى السعادة التى تنشدينها ، وأنك تكونين فى تلك الباحة الواسعة أسعد منك فى هذه الحفرة الضيقة ؟ إنى أخاف أن تكونى مخطئة فيما تظنين

انى لا آسَى على نفسى يافرچينى ، فقد عرفتُ من أنا ، وعرفت من أنت ، وأصبحت لا أمل لى فى أن أعيش فى دائرة أوسع من الدائرة التى خُلقتُ لها ، ولكننى أَضِن بك على الدهر وأرزائه أن يمتد اليك ظفر من أظفاره الجارحة فأهلك على أثرك هما وكمداً

فاما أن تعدلى عن السفر ، أو تأذنى لى بالسفر معك ، فانى لا أستطيع أن أحول بين قلبى وبين القلق عليك

مادمت غائبة عنى ، فان أبيتهما معاً فودعيني منذ الساعة الوداع الاخير ، فلا أمل لى فى الحياة من بعدك

فلم تستقبله الا بدموعها تتحدّر على خديها تحدرَ حبات العقد وهى سلكه فانتثر ، وانشأت تقول له

إنى انما أسافر من أجلك ياپول لا من أجل نفسى ، لانى أصبحت أشفق عليك الاشفاق كله من هذا الشقاء الذى تكابده فى سبيلى وسبيل هذه الاسرة المسكينة ، وطالما بكيتك بينى وبين نفسى كلما رأيتك صاعداً شرفا ، أوعابراً نهراً ، أو سالكا وعراً ، أو حاملا ثقلا ، حذراً عليك أن تزل بك قدمك فى هوة من الهُوى فأهلك بهلاكك ، فانا ان فارقتك فانما أفارقك بجسمى لا بنفسى ، لاعود اليك بعد قليل من الأيام بالراحة الطويلة من شقاء هذه الحياة ومتاعبها ، ولنستطيع ان نتمتع غدا فى هذا المعتزل الساكن الجميل متعة لا يكدرها علينا مكدر حتى الموت

ورجائى اليك ألا تعود مرة أخرى الى ذلك الحديث المزعج المؤلم الذى حدثتنيه الساعة ، فانما نحن أخوان توأمان ،

نشأ نامعا ، ودرجنا معا، وشربنا الحياة من كأس واحدة ، وسلكنا سبيلها من طريق واحدة ، هذا هو نسبنا ، وهذا هو حسبنا ، لا نعرف غيره ، ولا نفهم شيئاً سواه ، وإنى قائلة لك كلمة ما كان يمنعنى من أن أقولها لك قبل اليوم الا الخجل والحياء ، لو أن الدنيا عُرضت على بحذافيرها على أن أبتاعها بشوكة تُشاكها ، أو لحظة تتألم فيها ، لأبيتها غير آسفة ولا نادمة

على أنى لا ذنب لى فيما كان ، فقد أمرتنى أمى بالسفر ، ولا أستطيع أن أخالف لها أمراً ، وأبلغنى الكاهن أن تلك ارادة الله ومشيئته ، ولا قبل لى بالخروج عن إرادته ، وبعد فها أنذا بين يديك ، فمر فىّ بما تشاء من أمرك ، أُطعك وأذعن اليك ، غير مبالية بشئ بعدك ، فكل مافى الحياة هين علىّ الا أن أراك جازعا أو متألماً

فصاح بول صيحة الفرح والسرور وقال سافرى يافرجيني ، وسأُسافر معك لأقيك بنفسى عاديات الدهر ،

وطوارق الحدثان ، فان حيينا حيينا معاً ، وإن هلكنا هلكنا معاً ، ثم دنا منها وضمها الى صدره فشعر بالراحة التى يشعر بها الملق عصاه بعد سفر طويل

وكنا نفتش عنهما فى تلك الساعة أنا و هيلين ومرغريت ، ولا نعرف لهما مكانا ، حتى سمعنا صيحة پول حين صاح فقصدنا اليه ، فما وقع نظره علينا حتى انتفض من مكانه قائماً ومشى الينا ، ثم التفت الى هيلين وألقى عليها نظرة ما ألقاها عليها قط قبل اليوم ، وقال لها بنغمة الهازئ الساخر : نعمت الأم أنت ياسيدتى ، ونعم ماتسدين الى ولديك الكريمين عليك من نعمة سابغة ، ويد بيضاء ، اذتريدين أن تفرقى بينهما ، وتمزقى شمل حياتهما ، وتعذبي قلبيهما الناشئين الضعيفين بصنوف العذاب ، وألوان الآلام ، وأنت تعلمين أنهما متحابان متآلفان ، لا يستطيع أحدهما أن يصبر عن صاحبه لحظة واحدة ، وأنّ افتراقهما هو القضاء عليهما معاً

لقد كنت ياسيدتى أزهد الناس فى المال ، وأشدهم نقمة عليه ، وزراية به ، وتزهيدا فيه ، فما الذى بدا لك فى شأنه

حتى أصبحت تخاطرين بولديك العزيزين عليك فى سبيله، بل تخاطرين بكرامتك وعزة نفسك ، لأنك تريدين أن ترسلى ابنتك الى تلك الارض التى اهانتك واحتقرتك ، وأبت أن تسمح لك بالبقا ، فيها ، والعيش تحت سمائها ،عقابالك على هفوة صغيرة ما كان مثلها جديراً بمثل هـذا العقاب المؤلم الشديد

نعم إنها ابنتك وانت صاحبة الشأن فيها ، ما ينازعك فى ذلك منازع ،ولـكننى أنا أيضاً أخوها وصديقها وعشيرها ، فصلتى بهـا عظيمة جداً لا تفترق عن صلتك الا قليلا ، ولئن فرق بينى وبينها النسب فلقد جمعنا الحب والاخاء، والود والوفاء، والولادة فى مهد واحد ، والرضاعُ من ثدى واحد ، وبكائى عليها إن مسها ألم ، وبكاؤها علىّ إن نالنى وصب ، ومخاطرةُ كل منا بنفسه فى سبيل صاحبه حتى يستنقذ حياته من يدى أجله أو يهلك دون ذلك ، واشتراكُنا

معا فى الخير والشر ، والنعيم والبؤس ، والجوع والشبع ، والرى والظمأ ، وخوض الانهار ، واجتياز القفار ، وتسلق الجبال ، ومقاساة الاهوال ، فكيف لى بالصبر على فراقها ، أولها بالصبر على فراقى

أبعدها عني ماشئت، ولكنني سأتبعها ، وأترسم آثارها ، حيثما حلت من الارض ، فان أبيتم ألا أن تقفوا فى وجهى ، وتحولوا بينى وبين ركوب السفينة التى تحملها ، خضت البحر وراءها خوضا ، لا أبالى بالمخاطر التى تعترضنى فى طريقي ، فان قُدّرت لى النجاة فذاك ، أولا ، فحسبي منها أنها تلقى على فى الساعة الاخيرة من ساعات حياتى نظرة من نظراتها ، وأن تذرف فى سبيلى دمعة من مدامعها ، فيكون شخصها آخر ما أري من الأشياء ، وصوتها آخر ما أسمع من الاصوات

فاستعبرت هيلين وقالت وماذا يكون حالنا من بعدك يابول ؟

قال وهل تظنون أنى أبقى من بعدها إنسانا تستطيعون أن تنتفعوا بى فى شأن من شؤونكم ؟ أو أن يبقى لى من الفهم

والادراك مايعيننى على مأرب من مآرب هذه الحياة ؟ إنها فكرى وعقلى ، وتصورى وإدراكى ، وقوتى وعزيمتى ، وحياتى من مبدئها الى منتهاها ، فان أردتم أن تفقدونى الى الأبد فأبعدوها عنى ، وودعونى الوداع الاخير قبل أن تودعوها

ثم اختنق صوته بالبكاء وحاول أن يذرف دمعة واحدة يروح بها عن نفسه فلم يستطع ، فارتعد جسمه واستحال لونه ، وشاعت نظراته ، ولمعت عيناه ، ولبس وجهه أغرب صورة لبسها فى حياته وظل يهذى ويقول :

أيتها المرأة القاسية ! لارد الله ابنتك اليك بعد اليوم ، وَلا أعادها البحر الا جثة باردة طافية على أمواجه ، ولا وقعت عيناك عليها الا محمولة على الايدى الى مقرها الاخير ، ولتكن ذكراها مبعث ألم لك دائم لايفارقك حتى الموت

ثم دار على نفسه دورة سريعة وسقط مغشيا عليه ، فبكت هيلين ومرغريت ، وبكيت أنا أيضاً على جفاف

دمعى ، ونضوب ينبوع حياتى ، لانى أصبحت والدا لهذا الولد المسكين ، وأى والد يستطيع أن يملك نفسه ومدامعه أمام دموع ولده المنهلّة بين يديه ، وظللت أقول فى نفسى : ويل لك أيتها القارة المشؤومة ، لا خلاص منك ، ولا نجاة من يدك أبد الدهر ، فقد فرت منك تلك الاسرة المسكينة ، ولجأتْ الى أقصى مكان يمكن أن تناله يد فى العالم ، فما زات بها ترسلين وراءها عقاربك واحدة بعد أخرى حتى أزعجتها عن مستقرها ، واستطعت بكيس واحد من الدنانير أن تفسدى عليها حياتها ، وتبددى ما اجتمع من أمرها ، وأن تعيديها إلى حبائلك المنصوبة التى ظنت أنها قد أفلتت منها أبد الدهر ، فوا شقاءك ، وشقاء العالم بك

وهنا تقدمت نحوه فرجينى تمشى بخطوات خفيفة مختلسة حتى جلست الى جانبه ، وقد تلألأ وجهها بنور سموى غريب ، لا يشبه نور القمر ، ولا نور الشمس ، ولا نور أى كوكب من كواكب الأرض والسماء ، بل هو مبعث ذاته ومنبع نفسه ، وأكبّت على أذنه تقول له : سواء

بقيتُ هنا يا بول أو رحلتُ، فاني أقسم لك بدموعي ودموعك، وآلامي وآلامك، وبما قُدر لنا أن نلقاه في حياتنا من شقاء ولوعة، أني أكون لك ما حييت، ولا أكون لأحد غيرك، أقسم لك على ذلك بين يدي أمي وأمك، وبين يدي هذا الشيخ الصالح الجليل، فهم شهودي على ما أقول، والله من ورائهم محيط

فكأنما صبت على جسمه سَجلا من الزلال البارد، فانتفض ورأرأ بمقلتيه واستوى جالساً، وظل يدور بنظره حوله ثم أسبلت عيناه الدموع في هدوء وسكون، فاحتضنته أمه الى صدرها، وبكت حتى امتزجت دموعه بدموعها، فهمست هيلين في أذني: إن الموقف مؤلم جداً، ولا صبر لي على مشاهدته، فتقدمتُ نحو بول وجذبت يده، وقلت له هيا بنا يا ولدي الى المنزل، فقد انتصف الليل، فمشى معي صامتاً لا يقول شيأ، ولا يلوي على شيء مما وراءه، حتى بلغنا مفترق الطريقين، طريقي الى كوخي، وطريقه الى كوخه،

فقلت له هل لك أن تترك أهلك الليلة يستريحون من
آلامهم ومتاعبهم ، وتذهب معي الى كوخي لتبيت عندي ،
ثم تعود في الصباح ؛ وكن على ثقة أن ڤرچيني لا تسافر
بعد اليوم ، فقد عزمت غداً أن أكلم الحاكم في أمرها ،
والحاكم لا يردّ لي رجاء ، وما أحسب الا أن الأمر سينتهي
على ما تحب وترضى ، فأسلم لي يده فقدته كما تقاد السائمة
البلهاء حتى وصلنا الى المنزل ، فقضى ليلته قلقاً مروعاً لا يذوق
النوم إلا لماماً حتى أصبح الصباح

١٨

السفر

وهنا صمت الشيخ وأطرق برأسه فدنوت منه وقلت
له ما بك يا سيدي ؟ قال بي أن هـذه الذكرى تهيجني ،
وتبعث شجوني وأحزاني ، ولا أرى لك يا ولدي فائدة من
ذكرها ، فالحياة كما تعلم ذات لونين أبيض واسود ، وأنتم
معشر المتمدينين لا تحبون منها الا لونها الأبيض ،

فلا أريد أن أنحرف بك الى مالا تحب من لونها ، قلت قل يا سيدى فنحن أبناء الدموع والآلام، وسلائل البؤس والشقاء، ومالنا أن نبرأ من أصولنا وأعراقنا ، أو نذهب فى حياتنا مذهباً غير مذهب آبائنا وأجدادنا ، وهل يطهر معدن النفس من أخلاطه وشوائبه ، وينقيه من أدرانه وأكداره ، غير تلك الألسنة النارية التى تنبعث من صدور المتألمين ، وقلوب المحزونين ، على أننا لابد لنا أن نفهم الحياة كما خُلقت ، خيرها وشرها ، سعودها ونحوسها ، ولا بد لنا حين ننظر الى نصف الكرة الذى يقابل وجه الشمس أن نعلم أنّ نصفها الآخر مظلم قاتم ، وأننا ونحن فى ضوء النهار سيدور الفلك دورته فنصبح فى ظلمة الليل البهيم

فرفع رأسه واستمر فى حديثه يقول :

جاء الصباح فنهض پول من مضجعه القلق المضطرب ومشى فى طريقه الى كوخه ، ومشيت وراءه أرقبه على البعد من حيث لا يشعر بمكاني، فلم يزل سائراً حتى لمح الخادمَ

« ماري » واقفة على رأس هضبة عالية تنظر جهة البحر ،
فذعر اذ رآها ، وناداها : أين فرجيني يا ماري ؟ فأطرقت
برأسها وبكت ، فجن جنونه ؛ وعلم بما كان ، وهرع الى
شاطئ البحر يعدو عدو الظليم ، فلم ير أمامه على سطح الماء
شيأ ، وحدثه الناس هناك أن السفينة قد أقلعت قبيل الفجر ،
وأنها قد تجاوزت مدى البصر ، فلا سبيل الى رؤيتها ،
فكر راجعاً حتى وصل الى ذلك الجبل العظيم الذى يسمونه
جبل الاستكشاف ، فارتقاه باسرع من لمح البصر على
وعورته وتشعب مسالكه حتى بلغ قمته العليا ، وضرب
الفضاء بنظره ، فلم ير فى عرض البحر الا نقطة سوداء
صغيرة تتلاشى شيأ فشيئاً ، فعلم أنها السفينة التى تحمل
فرجيني ، فاستمر نظره عالقاً بها لا يفارقها حتى غابت عن
عينيه ، فظل واقفاً حيث هو ، ينظر حيث ينظر ، كأنما يظن
أنها لا تزال باقية فى مكانها ، وظل على ذلك ساعة حتى
نشأت أمام عينيه سحابة سوداء حجبت عنه كل شئ ،

فلوى رأسه وانفجر باكيا ، وظل يعج عجيجا محزنا يرن في أجواف الغابات والأدغال ، وتُردد صداه أكناف الجبال



پول على قمة الجبل ينظر سفينة فرچينى

فصعدتُ درجات من الجبل حتى كنتُ منه بحيث

يسمع صوتي، وظللت أناديه وأضرع إليه أن ينزل فلم يفعل إلا بعد لأي، فتناولت يده وذهبت به الى كوخه، فبكت أمه إذ رأتاه، وكانت صورته قد استحالت إلى أغرب صورة لبسها في حياته، وكأن بؤس الحياة جميعه قد تجمّع واتخذ مكاناً بين حاجبيه، فظل ساعة صامتاً لا يقول شيئاً سوى أن يدور بطرفه ههنا وههنا كالذاهل المختبل، ثم أخذ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول: لمَ لم ينبئوني بالساعة التي تسافر فيها فرجيني لاقضي حق وداعها قبل أن تفارقني؟ إنهم لو فعلوا لما زدت شيئاً على أن أدنوَ منها وأقبلها قبلة الوداع، ثم أقول لها: إن كنت تذكرين يافرجيني أني أسأت اليك يوما من الأيام، أو بدرت مني بادرة آلمتك وجرحت نفسك، فاغفري لي ذنبي قبل أن تفارقيني، وإن كنت عزمت على أن تجعلي فراقك هذا الفراقَ الاخير الذي لا لقاء بعده، وأن تتخذي لك في المكان الذي تذهبين إليه أخا آخر غيري، تمنحينه من عطفك وودك مثل ما كنت تمنحينني، فأنت

فى حل من ذلك ، وهنيئاً لك ما تختارين وماتؤثرين ، فلا تكن ذكراى سببا فى تنغيص عيشك المقبل ، وتكدير حياتك الجديدة ، ثم أنصرف بعد ذلك لشأنى ، وقد هدأت نفسى وبرد غليلى ، ولكنهم لم يشفقوا على ولم يرحمونى ، لأنى ولد مسكين لاشأن لى فى الحياة ، بل لامكان لى بين الامكنة التى يجلس فيها ذوو الأباء والجدود

فدنت منه هيلين وما بين القلوب قلب أكثر من قلبها لوعة وأسى وتناولت يده وقالت له كن رجلا يابنى كما كنت طول أيام حياتك ، واعلم أننا ماكنا نعرف الساعة التى تسافر فيها فرجينى ، فقد طرق بابنا بعد عودتنا إلى الكوخ وفى هدوء الليل وسكونه حاكم الجزيرة ووراءه اعوانه وجنوده وقال لنا إن الريح قد اعتدلت ، والسفينة على وشك السفر ، فلتستعد الفتاة ، فأبت فرجينى أن تسافر قبل أن تراك ، وظلت تهتف باسمك وتناديك وتبكى بكاء مرا ، فلم يجد الحاكم

بدأ من أن يأمر رجاله بحملها ، فاحتملوها الى هودج كانوا قد أعدوه لها ، وساروا بها الى شاطئ البحر وهى لا تنفك عن ذكرك ، والبكاء عليك ، حتى أقلعت السفينة

فرفع پول اليها نظره وظل يردده بينها وبين أمه ، ثم قال لهما : فتشا لكما الآن عن ولد غيرى يدعوكما بأمه ، ويحمل عنكما همومكما وآلامكما ، فقد فقدتمانى الى الأبد ، ثم انفتل من مكانه مسرعا وخرج هائما على وجهه يمر بكل مكان كانت تجلس فيه فرجينى فيجلس فيه ، وبكل شجرة كانت تستظل بظلها فيقف تحتها ، وبكل جدول كانت تنام على ضفته فينام مكانها ، وأخذ يخاطب الماشية التى يجدها فى طريقه كأنها تعقل عنه ما يقول فيقول لها : مسكينة أنت أيتها السائمة الضعيفة ! من ذا الذى يرحمك ويعطف عليك بعد فرجينى ، ويقول للطيور التى تغرد فى أعشاشها لا تنتظرى بعد اليوم من يحمل اليك الطعام فى حجره ، والماء فى يده ، فقد سافرت فرجينى ، ورأى الكلب « فيديل » سائراً فى طريقه يسوف الترب ويشتمه ، كأنما

يفتش عن شئ ضاع منه ، فقال له فتش ما شئت فانك لن تراها بعد اليوم، ورأى عنزة تتبعه وتترسم آثاره فالتفت اليها وقال لها : أنا سائر وحدى ، وليست فرجينى معى ، فانصرفى لشأنك

ولم يزل هذا شأنه حتى بلغ الصخرة التى جلس عليها معها ليلة الأمس فارتقاها ورمى بنظره فى الفضاء حتى استقر فى المكان الذى شاهد فيه تلك النقطة السوداء من البحر في الصباح فلم يزل نظره عالقا به كأنما يظن أن السفينة لاتزال باقية فيه وظل على ذلك ساعات طوالا

وكنا نتبعه فى تلك الساعة على البعد من حيث لايشعر بمكاننا ، ونترقب مذاهبه ومراميه ، ونرثى له مما به ، وقد أصبحنا ولا شأن لنا غير رعايته وملاطفته ، وتهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانه ، ما وجدنا الى ذلك سبيلا ، حتى استطعنا بعد لأيٍ أن نعود به الى الكوخ ، واستطاع هو بعد مرور يومين كاملين لم يذق فيهما طعاما

ولا شرابا أن يُصيب شيئاً من الطعام ، فكان إذا جلس على المائدة خيل اليه أن ڤرچينى لاتزال بجانبه ، فيظل يحادثها ويلاطفها كما كان يفعل من قبل ، ويضع بين يديها أصناف الطعام التى يعلم أنها تحبها ، ثم لايلبث أن ينتبه لنفسه فيطرق برأسه خجلا وحياء ، وتظل عيناه تنهملان بالدموع ، ثم ينهض من مكانه وينصرف لشأنه

وكان لايعجبه من الاحاديث مثل الحديث عنها ، ولا يطربه خطاب مثل خطاب هيلين حين تناديه : يازوج ابنتى ، أو ياصهرى العزيز ، فاستطاع الهدوء أن يجد شيئاً فشيئاً الى نفسه سبيلا ، فأخذ يجمع آثار ڤرچينى من جميع أماكنها ومظانّها ، فجمع طاقة من الزهر كان قد أهداها اليها قبل سفرها بيوم واحد ، وعصابة حمراء كانت تعتصب بها فى أيام الأعياد ، وكأس الشاى التى كانت تشرب بها ، وزجاجة العطر التي كانت تحفظها فى صندوقها ، ومشط الآبنوس الذى كانت تمسك به

غـدائرها ، وأمثال ذلك من الأدوات والآنيـة ، ووضعها فى مكان واحد سماه « متحف ڤرچينى » فكان يختلف اليها من حين إلى حين ليلثمها ويقبلها ويضمها إلى صدره كأنما هو يضم صاحبتها

وما هى إلا أيام قلائل حتى عادت له تلك الروح العظيمة الشريفة التى كانت تملأ مابين جنبيه ، روح الرجولة والهمة ، والعزة والأنفة : فعزّ عليه أن يرى أمّيه وهما ضعيفتان منهوكتان تختلفان الى المزرعة لمناظرتها ، والقيام عليها ، فأخذ يحمل عنهما ذلك العبء شيئاً فشيئاً حتى استقل به ، فعادله جده ونشاطه ، وأصبح العمل مَلهاته الوحيدة التى يلجأ اليها من همومه وأحزانه، ويعتصم بها من وساوسه وبلابله

وكان يأنس بى فى ذلك الحين أنساً عظيما ، ويقضى معى جميع أوقات فراغه ، لانى كنت أعزيه ، وأهون عليه همومه وآلامه ، لا بالدموع والبكاء ، كما كانت تفعل أمّاه ،

بل بالحديث والسمر ، وسرد القصص ، وضرب الأمثال ، واستخراج العبر والعظات من مشاهد الكون ومناظره ، فاقترح عليّ يوماً أن أعلمه الكتابة والقراءة ، ولعله كان يضمر في نفسه أن يعرف السبيل إلى مراسلة فرجيني ، فأعجبني مقترحه هذا ، وأخذت أعلمه ما أراد ، وأقسم لك ياولدي أني ما رأيت في حياتي ذهنا أحدّ ولا أمضى ، ولا فطرة أقوم ولا أسلم ، من ذهن هذا الغلام وفطرته



بول يسود رسالة لفرجيني

فقد استطاع بعد بضعة شهور لا تزيد على تسعة أو عشرة أن يقرأ فصلا طويلا من كتاب أدبي ، وأن يكتب مسودّة رسالة لفرجيني

وماهو إلا عام وبعض عام حتى طلب إلى أن أعلمه فن الفلاحة ، ولعله أراد أن يصل من طريقه إلى الثروة الواسعة إرضاءً لفرچينى ، وعِلمَ تقويم البلدان ليعرف النقطة التى تحلهافرچينى من سطح الارض ، وعِلمَ التاريخ ليعرف شؤون أولئك القوم الذين تعاشرهم فرچينى ،فعلمته من ذلك ما يستطيع أن يقوم به مثلى ، ولم يلبث الاقليلا حتى استطاع أن يستقل بنفسه فى دراسة تلك العلوم وغيرها مما بدا له أن يعرفه ويزاوله،فأصبح يشعر بلذة عظمى ما كان يشعر بمثلها من قبل ، وسمت نفسه الى درجة عالية من الفهم والادراك لم يسمح الدهر بمثلها لفتًى فى سنه ، وفى مثل الزمن الذى قضاه ، وأصبح ينظر إلى الحياة وشؤونها نظر الفيلسوف الحكيم ، ففهمها على حقيقتها ، واستبطن الكثير من أسرارها وخفاياها ، وعرف الفروق الدقيقة بين الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والاساءة والاحسان ، فلم يشتبه عليه مسلك من المسالك ، ولا سبيل من السبل ،

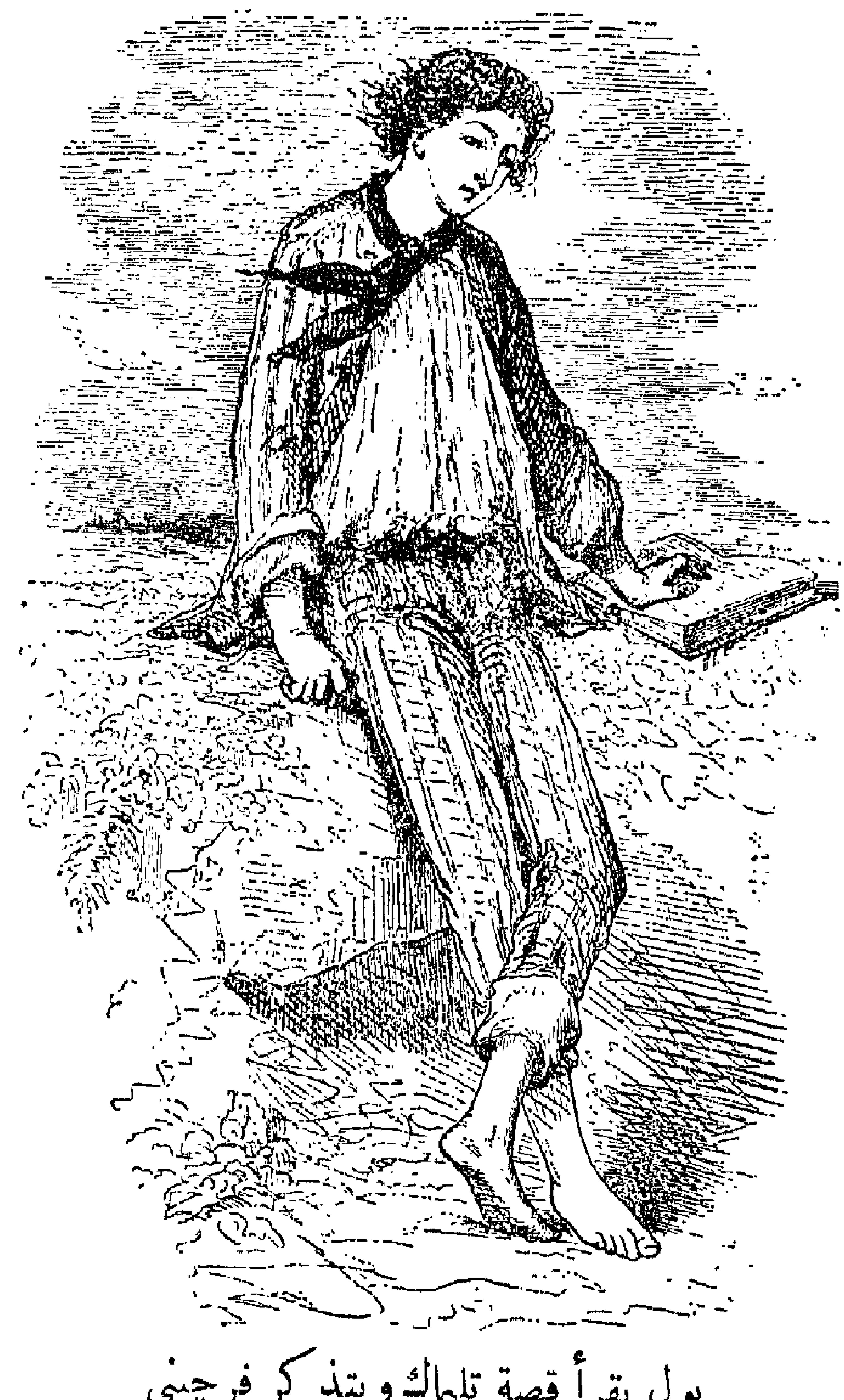
وكان السر في ذلك أنه تعلم العلم لا ليتخذه آلة يتوصل بها الى غرض من أغراض الحياة، أو مطمع من مطامعها، ولا ليتجمّل به بين الناس كما يفعل أولئك الفاخرون المغرورون الذين يعتبرون العلم حلية من الحلى، يفاخرون بها كما يفاخرون بأثوابهم القشيبة، وجواهرهم الثمينة، وقصورهم الشامخة، ومراكبهم الفارهة، بل ليفهم الحياة على حقيقتها، ويراها كما خلقها الله، لا كما عبثت بها يد الانسان، فكان له ما أراد

وكذلك استطاع الحب أن يخلق من هذا الغلام الهمجيّ المتوحش انساناً كاملا، مستنير الذهن، مستويَ العقل، فياض الشعور والاحساس، واستطاعت شمسه المشرقة أن ترسل أشعتها الوضاءة إلى أعماق ذلك القلب المظلم القاتم، فتنير جوانبه، وتبدد ظلماءه، واستطاعت شعلته الملتهبة أن تطهر بنارها تلك النفسَ الصدّئةَ المتبلدة، وتستخلصها من أخلاطها وشوائبها، فاذا هي سبيكة صافية من الذهب، تتوهج توهجاً، وتلتمع التماعاً، الا أنه لم يمض

على ذلك زمن طويل حتى بدأ يمل التاريخ لكثرة ما يشتمل عليه
من وصف المجازر البشرية ، والمصارع الانسانية ، الآخذ
بعضها بأعناق بعض ، ومن تلك الجداول المستطيلة الحافلة
برذائل الملوك والامراء ، وفظائع الاشراف والنبلاء ، وما
سودوا به صحائف حياتهم وحياة العالم أجمع من عار وشنار ،
كما ملّ تقويم البلدان لكثرة ما يحتويه من أسماء الامكنة
والبقاع ، والجبال والتلال ، والانهار والنُّهيرات ، التي لا نهاية لها ،
ولا فائدة منها ، وشُغف الشغف كله بالأدب شعراً ونثراً ،
وقصصا وروايات ، وأمالىَ ومحاضرات ، لأنه خلاصة العقل
البشرى ، وزبدته الاخيرة التى تمخض عنها ، ولانه المرآة
الصافية التى تتراءى فيه صور الحياة على حقيقتها ، ومشاعر
النفوس بكل ما تشتمل عليه من حب وبغض ، وسرور وألم ،
وطمع ويأس ، وارتياح وانقباض ، وكان خير ما يعجبه من
الشعر شعر « هومير » ومن النثر قصة « تليماك » لانها
تصور حياة الفطرة والبساطة ، وتمثل المشاعر النفسية

بدقائقها وأجزائها ، وترسم مزالق الشهوات التى تزل فيها أقدام البشر من فجر التاريخ حتى اليوم ، فاذا جلس لقراءتها ووصل إلى قصة أنتيوب وأوخاريس خيل إليه أن ڤرچينى مثال الاولى فى إبائها وعزتها ، ومثال الأخرى فى رقتها وعذوبتها ، فتهيج أشجانه ، وتسيل عبراته ، فيلقى كتابه جانباً ، ويسبح فى فضاء الخيال سبحاً طويلا

وكان من أبغض الأشياء إليه مطالعة تلك الروايات الغرامية التى وضعها واضعوها لا ليهذبوا بها الطباع البشرية ، ولا ليصوروا فيها الحياة الاجتماعية على حقيقتها ، بل ليستثيروا بها شهوات الناس ، وفضول أطماعهم ، ويلهبوا بنارها ما برد من عواطفهم ، وهدأ من لواعجهم ، ولينزلوا بالحب من سمائه الرفيعة المقدسة الى تلك الحمأة القذرة من الرذائل والمثالب ، وكان يقول فى نفسه كلما قرأ شيئاً منها ليت شعرى هل تستطيع ڤرچينى أن تنجو بنفسها من شرور ذلك المجتمع الخبيث الذى تتحدث عنه هذه الروايات ؟ إننى أخاف عليها خوفاً شديداً



بول يقرأ قصة تلياك ويتذكر فرچيني

١٩
أوروبا

مرت ثلاثة أعوام ولم يرد على هيلين كتاب من ابنتها ولا من عمتها، فقلقت لذلك أشد القلق، لأنها لم تعرف عن ابنتها شيئاً مذ سافرت حتى اليوم، سوى ما كانت تسمعه من حين إلى حين من أفواه بعض الطارئين على الجزيرة أنها وصلت سالمة الى بيت عمتها، وأنها تعيش فى ذلك البيت عيشاً سعيداً يحسدها عليه الحاسدون، ثم ورد عليها منها بعد حين ذلك الخطاب، ولا أزل أحفظ صورته حتى اليوم

والدتى

كتبت اليك قبل اليوم كتباً كثيرة، ثم علمت من عهد قريب أنها لم تصلك، فأرسلت إليك هذا الكتاب من

طريق آخر غير الطريق الذى كنت أرسل اليك منه

لا أحدثك كثيراً عن سفرى وأدواره سوى أن أقول لك إن فراقك كان له تأثير على نفسي عظيم ما كنت أقدّره من قبل ، فقد بكيت كثيراً ، وتألمت كثيراً ، حتى رحمنى من كان معى ، وكان يخيل الىّ والسفينة تمخر بى فى عباب البحر أنى إنما أفارقك فراقا لا رجعة لى منه أبد الدهر ، ولقد شعرت بوحشة عظمى فى الساعة التى دخلت فيها قصر عمّى ، فقد خيل الى أنه على جماله ورونقه ، وحسن نظامه ، وبديع هندامه ، وكثرة الذاهبين والآتين فى أبهائه وحجراته ، مقبرةٌ موحشة لا نأمة فيها ولا حركة ، ولقد سألتنى عمّى حين وقفت بين يديها بصوت خشن جاف لا تجول فى أديمه قطرة واحدة من الرحمة : ماذا تعلمتُ فى صغرى ؟ فاما عَرفَتْ أنى لم أتعلم شيئاً حتى القراءة والكتابة قالت إنكِ لا تزيدين فى شأنك على شأن هؤلاء الخدم الوقوف بين يدىّ ، ولم تَنشئى منشأ خيراً من منشئهم ، ثم أمرتْ بأرسالى الى

دير في ضواحى باريس أتعلم فيه أنواع العلوم ، فعلمونى القراءة والكتابة ، فسرنى منهما أني أستطيع مراسلتك وقراءة رسالك ، ثم أخذوا يعلمونى التاريخ وتقويم البلدان والحساب والهندسة والرسم والعلوم الدينية وبعض الالعاب الرياضية ، فلم أحفل بشيء من هذا كله، لانى شعرت ببغضه والنفور منه ، واعتقدت أن لا فائدة لى فيه ، فوصفنى أساتذتى ورفيقاتى بالبلادة وعسر الفهم ، فلم أُبَلْ بذلك ، لأنى ما دخلت الدير لأرضيهم ، ولا لأنال الحظوة فى عيونهم ، على أن عمتى تُعنَى بى عناية كبرى ، وتبذل فى سبيل راحتى ورفاهيتى وتيسير جميع مرافقي وحاجاتى مالا كثيراً ، وقد خَصصت لخدمتى فتاتين متأنقتين من وصائفها لا عمل لهما نهارهما ولياليهما الا القيام على زينتهما وحليتهما ، وقضاء ما يتبقى من أوقات فراغهما فى أحاديث تافهة مرذولة لا لب لها ولا ثمرة ، كأنما تمثلان على مسرح ، أو تلعبان فى ملعب ، ويخيل الى أن عمتى قد أوعزت إليهما الا تدعوانى

بلقبِ الذى أحبه و اوثره ، فهما تسميانى دائما « الكونتة ڤرچينى » بدلا من « ڤرچينى دى لاتور » أى أنها تأبي على أن احمل اسم والدى الذى أحبه وأعطف عليه وأفخر به كل الفخر ، ولا أستطيع أن أنسى ما كابده فى حياته من شقاء وألم فى سبيلك وسبيل راحتك حتى سقط فى مصرعه المحزن المؤلم فى جبال مدغشقر غريباً وحيداً لا يعطف عليه عاطف ، ولا يبكى عليه باك ، ويخيل الى فوق ذلك أنها أمرتهما ألا تسمحا لى بالتحدث عنك ، وعن حياتى الماضية معك ، فاذا ذكرتُك أو ذكرت شيئاً عن تلك الجزيرة التى قضيت فيها زهرة حياتي نظرتا الى نظرات الهزء والسخرية ، وقالتا لى إنك باريسية يا سيدتي ، فلا يجمل بك أن تتحدثى أمثال تلك الاحاديث عن تلك الاصقاع المتوحشة ، وأغرب من هـذا أنها على جودها وسخائها وبسطة يدها وإحاطتها اياى بجميع صنوف الرعاية والاكرام لا تسمح ببقاء درهم

واحد فى يدى ، كأنها تخشى أن أبعث اليك بشيء من المال ، ولا أدرى ماذا يَعنيها من ذلك ، على انهـا قد صدقت فى فراستها ، فانى ما كنت أتأخر عن ان أَبعث اليك بجميع ما يصل إلى يدى ، لو وصل الى يدى شيء ، ولكن ماذا أصنع وأنا فقيرة مُعوِزة لا أملك شيئا ، بل أنا الآن أفقر منى فى كل عهد مضى ، لانى عاجزة عن أن أمد يدى بالمعونة الى من تهمنى معونته ، ولقد سألتها مرة لم لا ترسل اليك شيئا من المال تستعينين به على عيشك فى تلك البلاد المقفرة ، فكان جوابها إن الحياة فى تلك البلاد لا تحتاج الى كثير من المال ، وإن المال يفسدها ويُربكها ، ويحولها من حياة بسيطة هادئة ، الى حياة مركبة مزعجة ، مملوءة بالمتاعب والشواغل ، فلم أستطع أن أفهم شيئاً مما تقول ، ولكننى فهمت أنها لا تكترث بك ، ولا تحفل بشأنك ، وما كنت أريد أن أقص عليك شيئاً من هذا لولا انك أوصيتنى أن أَصدُقك الحديثَ عن كل ما أراه وأشعر به من خير أو شر ، فايتك

تحضرين الىّ ياوالدتى لتعيشى بجانبى ، وتحملى عنى بعض ماأكابده من الوحشة والكآبة فى هذه البلاد ، فان حياتى على رغدها ورخائها ، وتوفر أسباب النعمة فيها ، شقية جداً لا أجد فيها أنساولا اغتباطا ، فلا الرياض الزاهرة ، ولا القصور الشامخة ، ولا الاثواب الجميلة ، ولا الجواهر البديعة ، ولا المراكب الفارهة ، بقادرة على أن تذهب بشىء من وحشتى وضجرى ، لانى لا أجد حولى تلك القلوب الطيبة الرحيمة التى ألفتها وأحببتها ، وامتزج شعورى بشعورها ، فأنا أعيش من بعدها فى ظلمة حالكة لا يلمع فيها نجم ، ولا يضىء كوكب ، ولولا أنى أعلم أن بقائى هنا انما هو تنفيذ لارادتك ، ونزول على حكمك ، ما أطقت البقاء ساعة واحدة

ولقد كنت أجهل فى مبدأ أمرى أخلاق سكان هذه البلاد وطبائع نفوسهم ، وأعتقد أن ظواهرهم مرآة بواطنهم ، وأن الله قد منحهم من الفضائل النفسية بمقدار مامنحهم

من جمال الصور ، ونَضرة الاجسام، حتى تَكشّف لى أمرُهم ، فرأيت أنى أعيش بين قوم ممثلين ، لا علاقة بين قلوبهم وألسنتهم ، ولا صلة بين خواطر نفوسهم ، وحركات أجسامهم ، فهم يكذبون ليلهم ونهارهم ، فى جميع أقوالهم وأفعالهم ، لا يرون فى ذلك بأساً ، كأن الكذب هو الأساس الاول لحياتهم الاجتماعية، وكأن الصدق عرض من أعراضها الطارئة عليها ، وكأن لهم نظاماً خاصاً بهم فى حياتهم يختلف عن نظام البشر جميعا فى كل مكان وزمان

ولقد لبثت زمنا طويلا أكتب اليك الكتاب بعد الكتاب ثم أنتظر رده فلا يرد الى شىء ، وكنت أعجب لذلك كل العجب ، وأذهب فى تأويله مذاهب غريبة ، حتى علمت منذ أيام قلائل أن الوصيفة التى كنت أعتمد عليها فى حمل كتبي إلى البريد كانت تحملها إلى عمتى فتقرؤها وتمزقها ؛ فأحزننى ذلك حزنا عظيما ، ثم أفضيت بالامر إلى صديقة لى من طالبات المدرسة أثق بها كثيراً فأخذت

علي نفسها أن تتولى ارسال ما أريده من الكتب اليك ، وهاهو ذا عنوانها مرسل اليك فابعثي إلى برسائلك من طريقها

وبعد فليس في هذه الحياة التي أحياها هنا ما يروقني ويعجبني ، فإني لا أزال حتى الساعة أعيش في قفرة موحشة لا يؤنسني فيها غير أولئك الوصيفات السخيفات اللواتى لا أطيق رؤيتهن ، ولا سماع أحاديثهن ، وغير شيخ هرم من أصدقاء عمتي يزعم أنه يحبني ويعطف علي ، وأحسب أنه كاذب فيما يقول ، لاني لا أشعر بحبه ولا العطف عليه ، فانا أقضي جميع أوقاتي مكبة على منسجي : أروح عن نفسي بالنسيج والتطريز ، وستجدين في الحقيبة المرسلة اليك مجموعة من الجوارب والمناديل والعصائب والاخمرة هي قسمة بينك وبين أمي مرغريت ، وقلنسوة لدومينج ، وثوب لماري ، وكنت أود أن أرسل اليها كثيراً من أثوابي الخليعة لولا أن الخدم هنا لا يسمحون لي بذلك ، لانهن يتقاسمن ملابسي ، ويقررن مصيرها قبل أن أخلعها

تحيتي الى أمي مرغريت ، ووالدي دومينج ، ومربيتي ماري ، وأستاذي الشيخ الجليل ، وكلبي الامين فيديل ، وإلى جميع شويهاتي وأعنزي ، وطيوري وعصافيري ، واعلمي ياوالدتي أنني في أشد الحاجة الى بقائي بجانبك ، والى الرجوع الى تلك الحياة الطيبة السعيدة التي فقدتها ولا ازال أبكي عليها ، وأنني أعيش هنا كما تعيش النبتة الغريبة في أرض غير أرضها ، ومناخ غير مناخها ، فهي صائرة الى الذبول والاضمحلال ، وارجو أن أراكم جميعاً عندي قريباً أو أراني عندكم والسلام

« ڤرچيني دي لاتور »

وكانوا جميعاً يصغون الى الكتاب عند تلاوته و يَذرفون الدموع مدراراً حتى فرغت هيلين من قراءته ، فعجب بول أنها لم تذكر اسمه في كتابها ، ولم ترسل اليه تحيتها ، كما ارسلتها لكل من في الجزيرة حتى لطيورها وعصافيرها ، ولم يعلم أن الفتاة تؤجل دائماً الحديث عن أهم الاشياء

لديها ، وأجلّها شأناً عندها ، الى آخر كتابها ، فقد لمحت هيلين بعد ذلك حاشية منفردة فى زاوية الكتاب فقرأتها فاذا هى تقول

« بلغى أخى پول تحيتى وشوقى ، وقولى له إننى قد أرسلت باسمه حقيبة صغيرة تشتمل على بضعة أنواع من البذور الاوربية التى يغرسونها هنا ويحتفلون بها احتفالا كثيراً معنونة باسمائها ، وإنى أرغب اليه أن يُعنى عناية خاصة بزهرة البنفسج فيغرسها تحت نخلتى الجوز المسماتين باسمى واسمه ، وأن يحبها كما أحببتها ، لأنها على جمالها ورقتها حيية خجولة ، لا تألف الا المخابئ والمكامن ، ولا تحب أن تقع عليها عيون الناس ، إلا أن رائحتها تنم عليها أكثر مما تنم أى رائحة على زهرتها ، وأوصيه أيضاً أن يغرس الزهرة السوداء التى يسمونها هنا « زهرة الحداد » فى ظل الصخرة التي جلسنا عليها معا ليلة الوداع ، وقد سموها بهذا الاسم لانها تشتمل على نقطة صفراء فاقعة

تدور بها دائرة سوداء كما يدور الخمار الاسود بوجه الفتاة الحزينة فى موقف الحداد ، وأن يَنقش على تلك الصخرة كلمة « صخرة الوداع » ويحييها عنى كما يحيي جميع الامكنة والبقاع التى يعلم أنى أحبها ، ويلغيه أنى لا أزال أذكره ، وأنى لن أنسى قط أياديه البيضاء التى أسداها الى فيما مضى من أيام حياتى ، وأنى دائماً عند ظنه بي »

فاستُطير پول فرحا وسروراً وتناول الكيس الصغير الذى أرسلته اليه فوجد على نسيجه الرقيق الأبيض الحرفين الاولين من اسمه واسمها مطرزين بالقصب على شكل زهرتين متعانقتين ، فسر بذلك سروراً عظيما ، وكان اغتباطه بالكيس أكثر من اغتباطه بما اشتمل عليه

وقد كتبت هيلين الى ابنتها كتابا قالت لها فيه إنها وجميع أفراد الأسرة قد أصبحوا بعد فرقتها فى وحشة مخيفة لا يهونها عليهم شئ من الأشياء ، وأن الموت أهون عليهم من أن يعيشوا بعيدين عنها ، منقطعين عن رؤيتها ، وانها لا ترى بأسا فى رجوعها الى الجزيرة متى أرادت ذلك

وكتب اليها بول يشكر لها هديتها ، ويقول لها إنه قد أصبح الآن عالما من علماء الفلاحة، وإنه سيقوم بغرس تلك البذور فى أماكنها المناسبة لها حسب القواعد التى يرسمها ذلك الفن ، وإنها ستراها حين عودتها زاهرة نامية ، تحييها بابتساماتها اللطيفة ، وتنشر عليها ظلالها وأفياءها ، ثم أخذ يبثها آلام نفسه ولواعجها التى قاساها من بعدها ، ويشكو لها شكاةً لم تترك دمعة فى محاجرها عند ما قرأتها الا استذرفتها

ثم أخذ بعد ذلك يهيء الاحواض لغرس تلك البذور ويُعد لها عدتها من ظل وماء ، فانفق فى ذلك وقتا طويلا ، ثم غرسها ، فلم تلبث الا قليلا حتى ذبُلت وتضاءلت، إما لانها ميتة لا حياة فيها ، أو لان التربة غير صالحة لنمائها ، أو لان الشرق شرق ، والغرب غرب ، فمحال أن يمتزجا ويختلطا ، ويشتركا فى نظام واحد ، وحياة واحدة، فتطير بذلك وتشاءم ،

وزاده حزناً وألماً ما أصبح يسمعه من أفواه بعض المهاجرين الطارئين على الجزيرة من الروايات الغريبة التي تفترق ما تفترق ، ثم تتفق على أن ڤرچيني موشكة أن تتزوج ، فلم يحفل بذلك في مبدأ الامر ، ثم حفَل واهتم ، لان أخبار السوء لا يمكن أن تمرّ دون أن تترك أثرها في النفس ، وبدأ يصدق ما يسمعه ، لا لانه يعتقد صدق القائلين ، بل لأنه وقع في الخطأ الذي يقع فيه الناس دائماً ، وهو اعتقاد أن الدخان لا يمكن أن ينبعث عن غير نار ، وفاتهم أن تلك النار التي يتحدثون عنها قد تكون نار الحقد والبغض المشتعلة في الصدور ، فيكون الدخان الذي ينبعث عنها انما هو دخان المختلقات والمفتريات . وكان يقرأ فيما يقرأ من الروايات أحاديث الغدر والخيانة التي يرويها الراوون عن النساء فيقول في نفسه : ربما أفسد ذلك المجتمع الخبيث نفسها ، وحوّل حياتها الطيبة الطاهرة الى طريق غير طريقها ، فنسيت أقسامها وعهودها ، وأيمانها المحرجة التي أقسمتها بين يديّ ألا تستبدل بي أخاً سواي ، والنفس الانسانية كما يقول (روسو) مرآة تتراءى فيه

مختلفات الصور والالوان ، والمرء كما يقول (موبسان) ابن البيئة التى يعيش فيها

فكأن استنارة ذهنه، وسعة دائرة معارفه ، واضطلاعه بشئون العالم وأحواله ، كان شقاء عليه ، وويلا له ، ولعله لو بقى فدْما جاهلا كما كان، لايجول نظره فى أفق أوسع من الافق الذى يعيش فيه ، كان من أبعد الاشياء عن ذهنه أن يتصور أن ڤرچينى غادرة خائنة

وكان إذا حزبه الامر ، ولجت به الوساوس والهموم، فزع إلىّ وألقى بين يدىّ أثقاله وأعباءه ، فأحدثه أحاديث كثيرة عن الدهر وتقلباته ، والايام وصروفها ، ومايتداوله الناس فى دنياهم من نعيم وبؤس، وجدة وفقر، وراحة وتعب، وصحة ومرض، ورجاء يشرق فى ليل اليأس حتى يحيله نهاراً ساطعا ، ويأس يغشّى نهار الرجاء حتى يبدله ظلاما قاتما، وخير لا يزال يطارد الشر حتى يطرده ويأخذ مكانه ، وشر لا يزال يغالب الخير حتى يغلبه ويفلج عليه ، فيجد فى أحاديثى هذه ملهاة يهدأ بها حينا عن شواغله وهمومه .

١٩

الطبيعة

وهنا قلت للشيخ هل لك ياسيدى أن تحدثنى قليلا عن نفسك ، فانى أشعر مذ جلست اليك أنى أجلس الى رجل من عظماء الرجال ليست هذه الارض مما تُنبت مثله فى وفور عقله ، وسعة مداركه ، واكتمال أُهبته ، وكثرة تجاربه واختباراته ، ولا بد أن حادثا من حوادث الدهر العظام قد قذف به الى هذه الجزيرة النائية فعاش فيها كما أرادت المقادير أن يكون

فرفع رأسه إلى وقال نعم سأحدثك عن نفسى قليلا يا بُنى ، فلا أَحبّ للمرء من أن يجد الى جانبه جليساً يستطيع أن يسكب نفسه فى نفسه ، ويفضى اليه بسريرة قلبه ، ثم اعتدل فى جلسته وأنشأ يقول :

إنى أسكن يابنى على بعد فرسخ ونصف من هذا

المكان على ضفة جدول صغير ممتد بجانب ذلك الجبل الذى يسمونه «الجبل الطويل» وهنالك أقضى أيام حياتى وحيداً منفرداً ، لا زوج لى ولا ولد ، ولا أنيس ولا عشير ، وعندى أن سعادة المرء فى إحدى حالتين ، أن يوفق الى زوج صالحة تحبه ويحبها ، وتخلص اليه ويخلص إليها ، فان أعوزه ذلك فسعادته أن يهجر العالم كله الى معتزل ناء كهذا المعتزل يتمتع فيه بجوار نفسه وعشرتها ، وقد قضى اللهُ أن أُحرم الأولى ، فلم يبق لى بد من اختيار الثانية

والعزلة هى المرفأ الأمين الذى تلجأ اليه سفينة الحياة حين تتقاذفها الأمواج ، وتصطلح عليها هُوج الرياح، وهى الواحة الخصبة التى يفيء اليها السَّفْرُ بعد الأين والكلال، فيجدون فى ظلها الظليل راحتهم من سموم الصحراء ، ولوافح الرمضاء ، وهى المنزلة الاولى التى ينزلها المرء فى طريقه من الدنيا الى الآخرة، ليستجمّ ذهنه ، ويجمع أمره ، ويُعد عُدته للقاء الله تعالى ، لذلك كانت العزلة دائماً فى الشعوب

الشقية المضطهدة التى لا إرادة لها أمام ارادة حاكميها الظالمين ، وملوكها المستبدين ، كما كان شأن المصريين والرومان واليهود فيما مضى من التاريخ ، وكما هو شأن الهنود والصينيين والايطاليين والشعوب الشرقية اليوم

وقد يكون ذلك احيانا فى الأمم المتمدينة المتحضرة، فان للمدنيّة شقاءً كشقاء الهمجية، لا يختلف عنه الا فى لونه وصبغته ، فان وقوف الانسان فى وسط ذلك المزدحم الهائل بين الجواذب المختلفة ، والدوافع المتعددة ، وحيرةَ عقله بين مختلَف المذاهب والشيع ، والاراء والافكار ، يحاول كل منها أن يجذبه اليه ، ويسيطر عليه ، ويستأثر به ، وهو فيما بينها كالريشة الطائرة فى مهاب الرياح لا تستقر فى قرار ، ولا تهبط في مهبط ، مَتعَبَةٌ عقلية لا قبل له باحتمالها ، ولو أنه كان أسيراً فى قوم متوحشين ، وقد شدّه آسروه الى جذع من جذوع النخل ، وأخذ كل منهم بعضو من أعضائه يجذبه اليه جذباً شديداً ليمزقوه إرْبا إرْبا ، لكان

ذلك أهون عليه من هذه الحالة التى لا يستطيع أن يتمتع فيها بهدوئه النفسى ، وسكونه الفكرى ، كما تتمتع السائمة الهائمة على وجهها فى مسارحها ومرابعها ، فلا يجد له بداً من الفرار بنفسه الى حيث يجد نفسه ، ويظفر بكيانه، ولا سبيل له الى وجدان نفسه والعثور بها الا فى مثل هذه الصخرة النائية المنقطعة التى يستطيع أن يجمع فى ظلالها ما تفرق من أمره ، وتبعثر من قوته ، ويصغى فى وسط ذلك السكون والهدوء الى صوت قلبه حين يحدثه أصدق الاحاديث وأجملها عن الخالق والمخلوق ، والحياة والموت ، والبقاء والفناء ، وطبيعة الكون ، وأسرار الخليقة ، فيشعر بالراحة بعد ذلك العناء الكثير ، والكد الطويل ، كالسيل المنحدر من أعالى الجبال ، لا يزال يحمل فى طريقه الاتربة والاقذاء ، حتى اذا بلغ الحضيض استحال الى بركة هادئة ساكنة ، يتلألأ فى صفحتها الصقيلة اللامعة جمالُ السماء ، وبهجة الملإ الأعلى

ولقد كنتُ أحدَ أولئك الفارّين بأنفسهم من لجب المدنية وضوضائها، وضلالها وحيرتها، وقنعت منها بذلك الكوخ البسيط الذي بنيته بيدى على ضفة ذلك الجدول الصغير، وقد رزقنى الله أرضاً خصبة جيدة التربة، أقضى جميع أوقاتي فى حرثها وفلحها، وتصريف مياهها، وتشذيب أشجارها، لامعين لى غير قوتى، ولا أنيس لى غير وحدتى، فان شعرت بشىء من الملل رجعت إلى تلك الاسفار القليلة التى اخترتها لصحبتى حين نفضتُ يدى من جميع الأصدقاء والاصحاب من بين جميع الكتب والاسفار لاحادث على صفحاتها أولئك الرجال العظام أصحاب المبادئ القوية، والعقائد الثابتة، والآراء الناضجة، الذين لم يكتبوا ما كتبوا ليوافقوا رغبةَ الناس فى أهوائهم ومطامعهم، ولا ليعجّبوهم من ذكائهم وفطنتهم، ولا ليُدِلوا عليهم بفصاحتهم وبلاغتهم، ولا ليفاخروهم بقوة ابتكارهم، وغرابة ابتداعهم، بل ليكشفوا الغطاء برفق وهدوء عن وجه الحقيقة، فيراها

الناس كما هى، غير مشوّهة ولا مزخرفة، لا يبتغون على ذلك أجرا سوى أن يروا الانسانية الشقية المعذبة ناهضة من حضيض بؤسها وشقائها، الى ذروة سعادتها وهنائها

فاذا جلستُ لقراءتها رأيتُ فى مرآتها ذلك العالمَ الذى فارقتُه واجتويتُه، ورأيت شقاءه الذى يكابده، وآلامه التى يعالجها، دون أن يحس انه شقى أو متألم، فأشعر بما يشعر به ذلك الذى نجا من سفينة موشكة على الغرق الى صخرة عالية فى وسط البحر، فأشرف منها على بقايا تلك السفينة المحطمة مبعثرة على سطح الماء، فشعر ببرد الراحة وطيب الحياة

ولقد أصبحتُ بعد أن فارقت الناس وصرتُ بمنجاة منهم، أحنو عليهم، وأرثى لبؤسهم وشقائهم، وأُضمر لهم من العطف والحب ما لم أكن أضمره لهم من قبل، وأتمنى لهم النجاة من شقائهم الذى يعالجونه، وبؤسهم الذى يكابدونه، على كثرة ما قاسيت منهم فى مُقامى بينهم من الهموم

والآلام ، والمذالّ والمهانات ، ولم يكن بيني وبينهم سوى أنني كنت أدعوهم الى الحياة الطيبة السعيدة ، حياةِ الطبيعة والفطرة ، وأنعى عليهم ذلك التكلفَ والتعمّل في مطاعمهم ومشاربهم ، وملابسهم ، ومساكنهم ، وعقائدهم ومذاهبهم ، وآرائهم وأفكارهم ، وصلاتهم وعلائقهم ، وأقول لهم أيها الناس عودوا الى أحضان أمكم الطبيعة ، فهي أحنى عليكم ، وأرأف بكم ، من كل شيء في العالم ، واعلموا ان جميع ماتكابدون من الآلام والاسقام في حياتكم ، انما هو عقوبة لكم على عقوقكم لها ، وتمردكم عليها ، وكفركم بسننها وشرائعها ، فاشربوا قَراح الماء ان شربتم ، وكلوا بسيط المآكل ان أكلتم ، واقنعوا حين تلبسون بما يستر عورتكم ، وحين تسكنون بما يجمع شملكم ، ووحدوا نظركم الى الاشياء والشؤون بقدر ماتستطيعون تتحدوا فيما بينكم ، وتهدأْ عنكم نارُ تلك البغضاء التي تتقلبون فيها ليلكم ونهاركم ، واعلموا ان الحياة أبسط من أن تحتاج الى كل هذه الجلبة والضوضاء ، فخذوها من أقرب وجوهها ، وألين جوانبها ،

واقنعوا منها بالكفاف الذي يمسك الحوباء ويعين على المسير، فانما أنتم مارّون لا مقيمون، ومجتازون لا معمرون. ولا يوجد بؤس في العالم أعظم من بؤس رجل مسافر نزل على عين ماء ليطفئ ببردها غُلته، ويجد في ظلالها راحته، ساعةً من نهار ثم يمضي لسبيله، فصدف عنها وظل يشتغل بحفر عين أخرى بجانبها، فلم يكد يبلغ قاعها حتى كان قد نال منه الجهد، فهلك دون مرامه ظمأ وعيّا، ولا يقذفنّ في رُوعكم انى أريد أن أذهب بكم إلى زهد الحياة ومَقتها، ولا إلى تعذيب أنفسكم بالحرمان من أطايبها ولذائذها، فالزهد عندي سخافة كالجشع، كلاهما تكلف وتعمل لا حاجة اليه، وكلاهما خروج عن القصد، وضلال عن السبيل، وانما أريد أن تترفقوا في الطلب، ولا تمعنوا فيه إمعانا، فالامعان فيه والاستهتار به حرب شعواء يقيمها القوي على الضعيف، والجشع المتكالب على القَنوع المعتدل، يسلبه ما بيده، ويحرمه القليلَ التافه الذي يتبلّغ به، باسم جهاد الحياة،

وتنازع البقاء : فكان جزائى عندهم على هدايتهم وارشادهم ، ومحاولة استنقاذهم من يد الشقاء الذى يعالجونه ، أن سخروا بى ، واحتقرونى ، وسمونى مجنوناً ، ولم يقنعوا فى أمرى بتركى وشأنى كما يُترك المجانين وشأنهم ، بل اتخذونى عدواً لهم يحاربوننى كما يحاربون الله والطبيعة ، ولا ذنب لى عندهم إلا أنى أُسمى المال شقاء ، ويسمونه سعادة ، وأُسمى الجاه مؤونة ، ويسمونه متعة ، وأُسمى اللجاج فى الطلب ، والتهالك فيه ، جنوناً وخبلا ، ويسمونه حكمة وحزما ، ثم لا يلبثون الا قليلا حتى يروا بأعينهم كذب ظنونهم ، وخيبة آمالهم ، ويسقطوا فى الهوة التى كنت أقدر لهم السقوط فيها ، فلا يكون أثر ذلك فى نفوسهم أن يؤمنوا بسنة الله والطبيعة ، ويذعنوا لأحكامه وأحكامها ، ويعودوا باللائمة على أنفسهم فيما كان منهم ، كما يتوقع المتوقِّع أن يكون ، بل ينقمون على الأرض والسماء ، والخالق والمخلوق ، والدنيا والآخرة ؛ ويثيرون الثائرة على الشرائع

الأرضية والسماوية ، والنُّظم الطبيعية والوضعية ، وعليّ أنا أيضاً ، لأنني لم أهوِ معهم في الهوة التي هووا فيها ، كأنني أنا الذي أشقيتهم وابتليتهم ، وأوردتهم هذا المورد الوبيل ، وما أشقاهم إلا أنفسُهم لو كانوا يعلمون

أما الآن فقد نجوت من هذا كله والحمد لله وأرحت نفسي الى الأبد من رؤية تلك المناظر المؤلمة الممِضّة ، مناظر المتهافتين ليلهم ونهارهم في تلك الحفائر الجوفاء التي حفرتها في طريقهم أيدي المطامع والشهوات ، وانقطع عن أذني ذلك الدويّ الهائل الذي كان يزعجني ويقلقني ، وأصبحت في وحدتي هذه أتمتع بالهواء طلقاً غير مكدر ، والنور ساطعاً غير منقطع ، والجمال خالصاً غير مشوه ، أتبسّط في انحاء نفسي حيث أشاء ومتى أشاء ، وأناجي الله والطبيعة وجها لوجه ، لا يحول بيني وبينهما حائل ، وأفكر على الطريقة التي أريدها ، لا التي يريدها الناس ، وأنسج ثوبي على مقدار جسمي ، لا على مقدار جسوم الآخرين ، وأُشرف

من قمة وحدتى وعزلتى على ذلك العالم الذى فارقته واجتويته فأعجب لتلك الهموم والآلام التى يعالجها لغير علة ولا سبب، ولتلك المعركة الهائلة التى يشنها بعض أفراده على بعض على غير طائل سوى أن يهلك أحدهم فى سبيل الآخر، ثم يهلك الآخر فى سبيل آخر، وهكذا تمتد سلسلة الهلاك فيهم الى مالا نهاية لها، كقطع الامواج التى تتواثب على الصخور المعترضة فى مجراها فتتكسر عليها واحدة بعد أخرى، ثم تتلاشى كأن لم تكن، فأحمد الله على نجاتى منهم، وخلاصى من أيديهم، وعلى أننى استطعت أن أعيش على حساب نفسى، لا على حساب الضعفاء والمساكين، وأن أتناول لقمتى مغموسة بدمى لا بدماء الضحايا والهلكى، وأن أعود بما فضل عن حاجتى على البؤساء والمساكين، والساقطين فى هُوّى اليأس، والمنقطعين عن قافلة الحياة، ولو أن جميع لذائذ الدنيا مأكلا ومشربا، وملبسا ومسكنا، وضعت لى فى كفة، ثم وضعت لى فى الكفة الاخرى لذتى

فى هداية تائهٍ ضل به طريقه ، أو معونة يائس انقطع به أمله ، لرجحتْ عليها

وهكذا أقضى حياتى فى تلك الجنة الصغيرة ، على ضفة ذلك النهر الصغير ، وبين يدىْ ذلك الخِضَمّ العظيم ، متمتعاً بما شئت من جمال الدنيا وبهجتها ، ورغد العيش ونعيمه ، ومناظر الطبيعة ومشاهدها ، فالسماء فوقي تتلألأ بنجومها وكواكبها ، والبحر أمامى يعج بأمواجه واثباجه ، والارض بين يدىَّ تختال فى أثوابها وأبرادها ، والاصوات المنبعثة من البحر الزاخر ، والجدول المتسلسل ، والشلال المتدفق ، والريح العاصفة ، والاشجار المترنحة ، والطيور الصادحة ، فرقة موسيقية مختلفة الآلات النغمات ، تسمعنى مالم أسمعه يوماً من أيام حياتى فى أكبر معهد غنائي ، من أكبر فرقة موسيقية

فاذا جلستُ أمام كوخى على تلك الصخرة العالية التى أعتدت أن أجلس عليها رأيت النخل الباسق مصطفاً بعضه

وراء بعض كأنه السطور فى الكتاب ، ورأيت رؤوسه العالية المتشابكة كأنها غابة ممتدة بين السماء والأرض ، ورأيت الجدول المتسلسل وهو يجرى فى خلال الخمائل الملتفة ، جريان القمر السارى فى أعماق السحب المتكاثفة ، فلا يرى منه الرائى الا بوارق خاطفة تلمع من حين الى حين ، وألقى نظرى تارة على الروض الجميل الذى غرسته بيدى فأرى صنوف أشجاره ، وألوان أزهاره ، وأنواع كرومه وأعنابه ، فأراه فى سكون الريح وهدوئها ، معبداً قد لبس الجلالَ والوقار ، وانتثرت فى جنَباته أشخاص الراكعين والساجدين ، وفى هبوبها وانبعاثها ، مرقصاً تترنح فيه القدودُ ، وتعتنق القامات ، وتتوازن الحركات والسكنات ، ثم أنظر الى السيل المتدفق من اعالى الجبال فأرى تلك المعركة الهائلة التى تجرى بينه وبين الصخور النائة فى طريقه ، يهاجمها فتدفعه ، ويثب عليها فتمزقه فتتطاير أجزاؤه فى جو السماء كأنها شظايا الواح البلور ، فيشتد غيظه

وخنقه ، وإرغاؤه وإزباده ، ويحاول ان يثأر لنفسه منها ، فلا ينال آخراً ، أكثر مما نال أولا ، وهى جامدة فى مكانها ، لاتحرك ساكناً ، ولا تمد يداً ، فلا يجد له بداً من الفرار من وجهها ، شأنَ الطيش والنزق ، بين يدى الرزانة والحلم ، فينحدر عنها الى السهل متغلغلا فى أعماق الخمائل والادغال ، كانما يتوارى حياء وخجلا ، ثم لايلبث أن يستحيل بعد ذلك الى مرآة صافية تتراءى فيها صورُ النخيل والاشجار ، وظلالُ القِمم والهضاب ، كأنما قد خطها رسام ماهر ، بريشة رقيقة ، فى صحيفة ناصعة ، وأعظم ما أعجب له من تلك المناظر منظرُ الطيور الغريبة حين تفد فى أواخر فصل الصيف أسراباً أسراباً من أقاصى البلاد مجتازة ذلك الخضمّ العظيم إلى حيث تتلمّس رزقها الذى أعوزها فى أرضها ، فتقع على ذوائب الاشجار ، وضفاف الانهار ، وتحلق فوق الجداول والغُدُر ، شادية مترنمة ، مرفرفة

بأجنحتها الجميلة ذات الألوان اللامعة المتلألئة ، وكأنما قد خلعت من نفسها على الجزيرة بُردًا مفوّفًا ترفّ حواشيه وأهدابه ، وترجُف متونه وأثناؤه ، وتموج خيوطه بعضها فى بعض ، فأجد من الأنس بها ، والغبطة بعشرتها ، ما يملأ قلبى بهجة وحبوراً ، إلا أنها لا تمكث أكثر من شهر أو شهرين ثم تعود أدراجها ، فأجد من الوحشة لفراقها ما يجد العشير لفراق عشيره

وقد أجلس أحيانا على شاطئ البحيرة لأتفكه بمنظر القرود السوداء وهى تثب من شجرة إلى شجرة ، ومن غصن إلى غصن ، وقد احتضنت أولادها إلى صدرها ، أو تركتها معلقة بأذنابها ، وقد يكون بين الشجرة والشجرة ، والنخلة والنخلة ، جدول واسع ، أو نهر متدفق ، فيكون لها فى غدوها ورواحها ، ووثبها وقفزها ، وضحكها مرة ، وغضبها أخرى ، وترفّقها الغريب فى طلب عيشها ، وتحصيل رزقها ، منظر بديع رائق ، لا تكدره حبائل

منصوبة ، ولا تزعجه قذائف منطلقة ، وأستطيع أن أقول لك يابنىّ إننى وقد عاشرتُ الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة ، والنمور الكاسرة ، والقرود الشرسة ، وخبرت أخلاقها وطباعها ، ومنازعها ومشاربها ، ورأيت أنها لاتفترس إلا إذا جاعت ، ولا تَشرَس إلا إذا هِيجت ، ولا تطمع فى أكثر من كفاف عيشها ، وعُلالة حياتها ، أصبحت أعتقد أن الانسان أضرى منها وأشرس ، وأنه مخدوع أو خادع فى تفضيل نفسه عليها

ولم يزل هذا شأنى حتى نزلتْ بالجزيرة تلك الاسرةُ الصالحة الكريمة ، فكانت أيامى معها غُرّةَ أيام حياتى ، وكوكبَ سمائها الساطع ، فواأسفا عليها ، وواجيعتي بالحياة من بعدها

٢٠
الحديث

وحسبك الآن يا بنيّ ما عرفتَ من شأني، فلأعُدْ بك إلى شأن ذلك الولد المسكين، فقد حدثتك عنه أنه كان يختلف إليّ كثيراً بعد سفر ڤرچيني ليطلب عندي عزاءه وسلواه، وراحة نفسه من بلابلها ووساوسها

فوفد إليّ ذات يوم، وكنت جالساً تحت شجرة قصيرة كانت قد غرستْها ڤرچيني فيما غرست من الاشجار الكثيرة التي كانت تحمل معها بذورَها حيثما ذهبت، وأينما حلت، قائلة لعل الله يمنحها النماء والنَّضرة فيهتدي بها ضال، أو يفيئ اليها حائر، أو يتعلل بها ظامئ، فجلس بجانبي وأطرق إطراقة طويلة ثم رفع رأسه وقال :

أنا حزين جداً ياوالدى ، ويخيل إلىّ أن ڤرچينى قد نسيتنى ، وأن يدي قد أصبحت صفراً منها الى الابد ، فلقد مرّ على سفرها ثلاثة أعوام لم ترسل إلىّ فيها إلا كتاباً واحداً منذ ثمانية شهور ، ثم انقطعت رسائلها بعد ذلك ، ولا أعلم ماذا دهاها ، أو ماذا دهانى عندها ، ولقد حدثتنى نفسى اليوم أن أسافر إلى فرنسا وأسعى إلى مقابلة ملكها لأتولى خدمته وأتوصل من طريقه إلى جمع ثروة طائلة أستطيع أن أتقدم بها إلى جدة ڤرچينى فلا ترى مانعاً وقد جمعتُ فى يدى بين حاشيتى المجد والشرف أن تزوجنى من حفيدتها

قلت ألم تحدثنى ياولدى قبل اليوم أنك لاتتصل بنسب شريف ؟ أو أنك لاتعرف لك أبا ؟

قال وأية علاقة للابوة والبنوة بما نحن فيه ، إنى لا أريد أن أتقدم إلى الملك بحسبي ونسبى ، بل بكفايتى وجدارتى ، وخدمتى التى أقدمها لوطنى ، وهل يوجد

فى الناس من يأخذنى بذنب لستُ صاحبه ولا صاحبَ الرأى فيه ، بل لم أكن حاضره ولا شاهده ، لانه وقع قبل وجودى فى هذا العالم ، على أنى لا أَعدُّ ما كان ذنباً ، لان والدتى أطهر وأشرف من أن تقترف الجرائم والذنوب

قلت إنك تحدثني بلسان الحقيقة ، أما لسان الاصطلاح فهو أنّ من كان مثلك مغمور النسب أو مقطوعه فلا سبيل له إلى أن يلمس بأطراف قدمه أول درجة من درجات المجد ، بل لا سبيل له إلى ان يأخذ لنفسه مكاناً مطمئناً بين الطبقات العالية الرفيعة التى يسمونها طبقات الاشراف والنبلاء

قال إنك قد قلت لى قبل اليوم كما قرأتُ فى كثير من الكتب أن عظمة فرنسا إنما حُملت على عواتق أولئك الرجال المغمورين الذين لا يَمُتُّون إلى الناس بحسب ولا نسب ، ولا شأن لهم فى حياتهم سوى أنهم قد أدوا لوطنهم خدما جليلة كانت هى وسيلتهم الوحيدة إلى بلوغ ذروة

المجد التي بلغوها ، فهل كنت تخدعني فيما قلت لي وكان يخدعني أولئك الكاتبون ؟

قلت لم أخدعك يابني ولا خدعوك ، وإنما كنت أحدثك عن الماضي ، أما اليوم فالملوك متكبرون متغطرسون ، لا يؤْثِرُون مزية من المزايا على مزية الحسب والنسب ، ولا يعرفون مفخرة يفخرون بها سوى أنهم من سلالة أولئك الملوك الماجدين ، فهم لا يُقرّبون ولا يُدنون إلا من أمسك بطرف سلسلة يمسك بطرفها الآخر أمير من الأمراء ، أو قائد من القواد ، أو نبيل من النبلاء ، هؤلاء هم أعوانهم وأنصارهم ، ووزراؤهم وقوادهم ، وولاتهم وعمالهم ، وجلساؤهم وسمارهم ، ومواضع ثقتهم ، وأمناء أسرارهم ، قد أحاطوا بهم إحاطة السحب الكثيفة بالكواكب النيرة ، فلا يأذنون لشعاع من أشعتهم أن يتصل بأحد من الناس سواهم ، فكانت نتيجة ذلك أن ماتت المواهب والمزايا ، وقُبرت العزائم والهمم ،

وأصبح كتاب الأمة وشعراؤها ، وحكماؤها وعلماؤها ، ورجال الفنون فيها ، أضعف الناس شأناً ، وأهونهم خطراً ، وأدناهم منزلة فى ترتيب درجات الانسانية ، لأنهم قد حُرموا الاتصالَ بتلك الشمس المشرقة التى تمدهم بالقوة والحياة ، وتبعث فيهم روح النشاط والعمل

قال وماذا علىَّ إن اتصلت بنبيل من أولئك النبلاء وعشت تحت كنفه لأصل من طريقه إلى الغاية التى أريدها ؟

قلت إنك لا تستطيع أن تنال الحظوة عنده الا اذا نزلت على حكم أهوائه وشهواته ، أي أن تجعل نفسك جسراً يمشى عليه إليها ، وذلك ما تأباه عليك عزة نفسك وأنفتها

قال يخيل إلى أنى ان قمت بواجبى لأمتى ووطنى ، وأديت للانسانية العامة خدمة عظمى يرنُّ صداها فى جميع الآفاق ، لا أعدم أن أجد بين الأشراف المحسنين من يتولانى بحمايته ورعايته ، ويأخذ بضَبْعيَّ إلى المنزلة التى أستحقها

قلت استمعْ منى كلمة أقولها لك يابنى ، لقد كان اليونان
والرومان والمصريون حتى فى أدوار سقوطهم وانحطاطهم
يبجلون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ويقدسون المواهب
والمزايا أعظم تقديس ، ويعرفون لأصحابها أقدارهم
ومنازلهم ، ويبسطون عليهم جناح مودتهم ورحمتهم ،
ولعلك قرأت من ذلك شيئاً في كتب التاريخ ، أما اليوم
فقد انقضى ذلك كله ، وأصبح الشرف محصوراً بين الجاه
والمال ، فلا يظفر به الا ذو منصب عال ، أو مال كثير ،
وقد يعطف بعض أولئك الذين يسمونهم النبلاء على
بعض أصحاب المواهب والمزايا ، كالشعراء والكتاب ،
والموسيقيين والمصورين ، لا لأنهم يحترمونهم ويجلونهم ،
أو يمجدون ذكاءهم ونبوغهم ، بل ليزينوا بهم مجالسهم كما
يزينونها بالتحف والذخائر ، وليمتعوا أنفسهم بمنظر ذلتهم
وخضوعهم بين أيديهم ، كما يمتعونها بمنظر مضحكيهم
ومُجّانهم ، وما أحسب أنك ترضى لنفسك بهذه المنزلة ،

أوأن يكون منتهي آمالك في حياتك أن تصبح خليعاً ماجنا

قال ان فاتنى أن أعيش فى كنف رجل شريف ، فلن يفوتنى أن أعيش فى كنف حزب من الأحزاب أو جماعة من الجماعات أخدمها وأخلص لها فأنال الحظوة عنـدها ،

قلت إنك تسـتطيع أن تفعل ذلك ، ولكن على أن تضرب بينك وبين ضميرك سداً إلى الأبد ، فالهيئات كالأفراد،لا يعنيها إلا مصلحتها وفائدتها ، وكثيراً ما تكون مصلحتها فى جانب ، والحق فى جانب آخر ، بل ذلك هو الاعم الأغلب فى أمرها ، فإمّا جاريتَها فهلكت ، أونابذتَها فاستهدفت لغضبها ومقتها

قال الموت أهون على من أن أخطوَ خطوة واحـدة لا يرضى بها ضميرى

قلت إذن ودع جميع آمالك وأمانيك وداعا دائماً لا لقاء بينكما من بعده

قال واشقاءه : لقد أُخذت علىّ جميع السبل ، وسدت

جميع المسالك ، ويخيل إلى أنى سأقضى بقية أيام حياتى فى ظلمة داجية لا ينفذ اليها شعاع من أشعة الرحمة ، ولا يلمع فيها بارق من بوارق الاحسان ، وأنْ قد حيل بينى وبين ڤِرچينى إلى الأبد

قلت إنك واهم يابنى ، فما أنت بشقى كما تظن ، وما الشقاء الا تلك العظمة التى تتطلبها وتسعى إليها ، إنك تعيش من حريتك واستقلالك ، وهدوئك وسكونك ، وطهارة ضميرك ، وصفاء سريرتك ، فى سعادة لا يتمتع بها متمتعٌ على ظهر الأرض ، فما حاجتك إلى تلك العظمة التى لا سبيل لك الى بلوغها الا اذا مشيت إليها على جسر من الكذب والرياء ، والملق والدهان ، والمواربة والمداجاة ، والظلم والاثم ، ونصبت نفسك ليلك ونهارك لمحاربة الدسائس بالدسائس ، والدنايا بالدنايا ، والاكاذيب بالاكاذيب ، وملأت فراغ قلبك حقداً وموجدة على الذين يسيئون إليك ، أو يجترئون عليك ، وكنت فى آن واحد أذل الناس لمن هم فوقك ، وأقساهم

على من هم دونك ، ثم لاتحصل بعد ذلك كله على طائل سوى أن تطعم لقمة يطعمها جميع الناس ، وتستر سوأة لايوجد فى الناس من لا يسترها ، وما أحسب أن ڤرجيني ترضى لك ولا لنفسها أن تكون وسيلتك اليها هذه الوسيلة الدنيئة الحقيرة ، وهى الفتاة الشريفة الفاضلة التى لها طهارة الملك فى سمائه ، وصفاء الكوكب فى أفقه ، واعلم يابنى أن الفقير يعيش من دنياه فى أرض شائكة قد ألفها واعتادها ، فهو لا يتألم لوخزاتها ولذعاتها ، ولكنه اذا وجد يوماً من الايام بين هذه الاشواك وردة ناضرة طار بها فرحاً وسروراً ، وأن الغنىّ يعيش فى روضة مملوءة بالورود والأزهار قد سئمها وبرم بها ، فهو لا يشعر بجمالها ، ولا يتلذذ بطيب رائحتها ، ولكنه اذا عثر فى طريقه بشوكة تألم لها ألماً شديداً لا يشعر بمثله سواه ، وخير للمرء أن يعيش فقيراً مؤملا كل شىء ، من أن يعيش غنياً خائفاً من كل شىء

قال إنما أريد المجد الأدبىّ ، لا المجد المالىّ

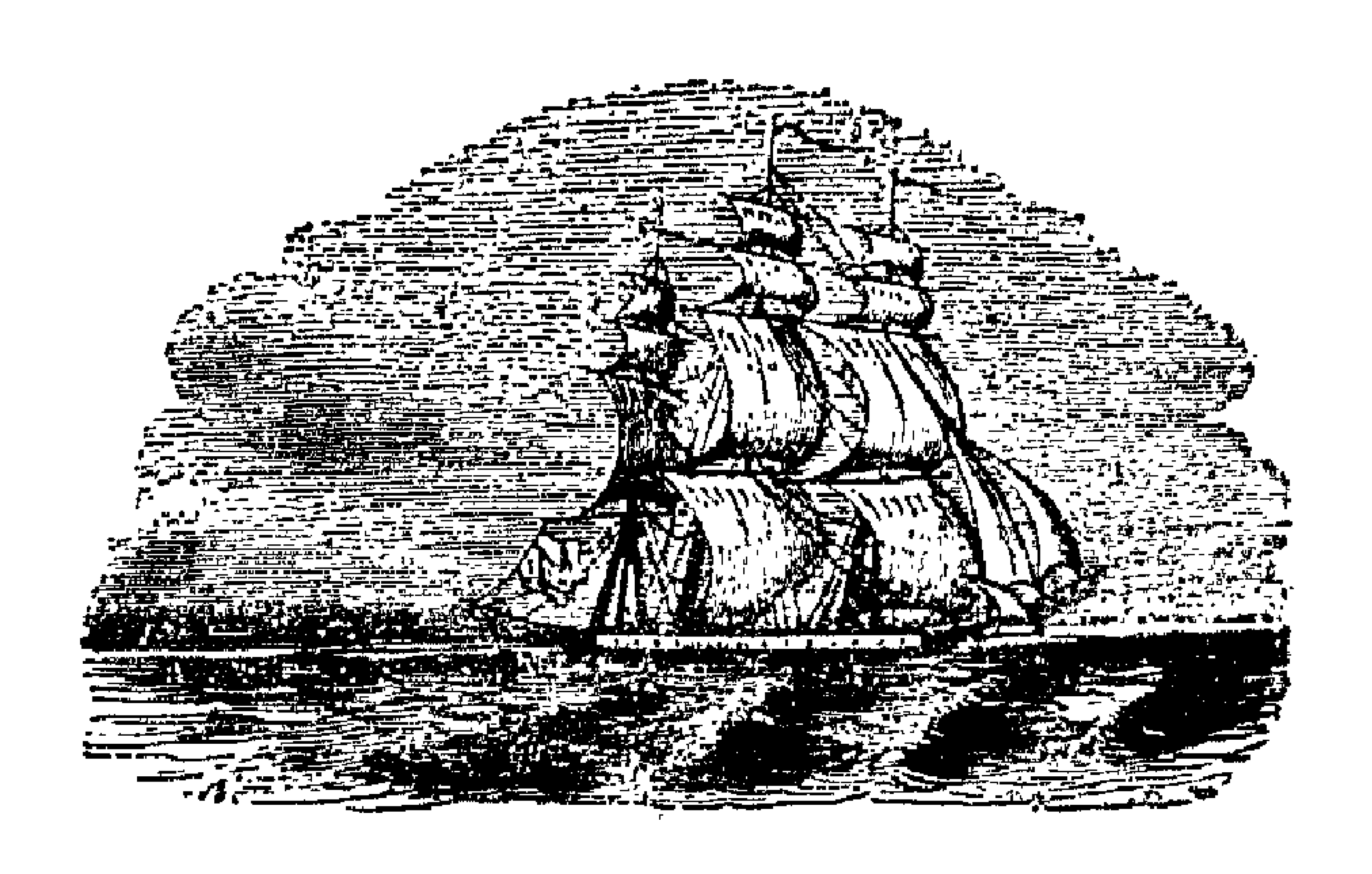
قلت نَعم إن المجد الأدبي مجد عظيم وشريف ، ولكنه لا يصل بك الى الغاية التي تريدها ، إن الادباء والحكماء ، والمصلحين والمفكرين ، هم عظماء هذا العالم وساداته ، وهم الكواكب النيرة التي تطلع في سمائه الداجية المدلهمّة فتنير أرجاءها ، وتبدد ظلماتها ، وهم الاشعة الباهرة التي تنفذ إلى أعماق القلوب المظلمة القاتمة فتذيب جهالاتها وضلالاتها ، وتطير بأوهامها وأحلامها ، وهم المنائر العالية التي يهتدى بها الحائر ، ويستنير بها الضال ، ويعرف بها المدلج الساري أي شِعب من الشعاب يسلك ، وأية غاية من الغايات يريد ، وهم الأطباء الماهرون الذين يتولون القلوب الكسيرة اليائسة فيعالجون همومها وآلامها ، ويملأون فضاءها رجاء وأملا ، إلا أن سبيلهم إلى ذلك من أوعر السبل وأخشنها ، لانهم أنصار الخير ، وللشر أنصار أقوى منهم وأكثر عُدة وعدداً ، وهم دائماً هدف لغضب الملوك ، لانهم يثيرون ثائرة الشعوب عليهم ، وغضبِ

النبلاء ، لأنهم يحتقرون نُبلهم ويزدرون مجدهم وعظمتهم ، وغضبِ الكهنة ، لأنهم ينعَون عليهم رياءهم وكذبهم ، وغضبِ العامة لأنهم يصادرون أهواءهم وشهواتهم ، أى أن العالم كله حرب عليهم من أقصاه إلى أدناه ، وقلما تنتهى حياتهم إلا بما انتهت به حياة سقراط الحكيم ، وهومير الشاعر ، وأفلاطون الفيلسوف ، وفيثاغورس الرحيم ، من قتل ، أو صلب ، أو إلقاء فى السجن ، أو تشريد فى الارض ، ولا ذنب لهم الا أنهم أحبوا البشر وعطفوا عليه ، وتألموا لالمه ، وبكوا لبكائه ، فنقم البشر منهم هذه العاطفةَ الطيبة الكريمة ، وانتقم لنفسه منهم بازهاق أرواحهم ، أو تعذيب أجسامهم ، أو تقطيع أوصالهم ، ولم يقنع فى أمرهم بذلك حتى شوه وجه تاريخهم ، وسود صفحاته بما شاء من الوصمات والعيوب ، ولم تستطع شمس الحقيقة أن تبدد تلك الظلمات المحيطة بهم وبتاريخ حياتهم إلا بعد عدة قرون وأجيال

قال لولا ڤرچينى ما أسفت على شىء فى الحياة ، ولا بكيت على فائت منها

قلت إن ڤرچيني باقية على عهدها لم تتغير ، فاحذر أن تخسرها من حيث تريد أن تكسبها ، واعلم أنها ماقطعت رسائلها عنك إلا لأنها عازمة على الرجوع فى عهد قريب ، فانتظر رجوعها بعد قليل من الايام ، وأعدّ نفسك لحياة مستقبلة سعيدة يستغفر لك الدهر فيها عن جميع سيئاته اليك ، فأضاءت حول ثغرة ابتسامة لم تضئه من عهد بعيد ، وقال أأنت على ثقة مما تقول ؟ قلت نعم ، فكأنما قد نزل عليه بهذه الكلمة وحى من السماء ، فما أصبح الصباح حتى رأيته مشمراً عن ساعديه يجول فى أكناف «استراحة ڤرچيني» يشذّب أشجارها ، ويشق أنهارها ، ويحول مياهها ، ويسقى ماذبل من أغراسها ، وقد لبس بُردًا قشيبًا من الجد والنشاط لاعهد له بمثله منذ أعوام ثلاث

٢١
السفينة



السفينة « سان جيران »

وفى عصر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٤٤ رأى پول العلَمَ الابيض يخفق على قِمة جبل الاستكشاف ، فعلم أن سفينةً قادمةٌ إلى الجزيرة ، فطمع أن تكون السفينةَ التى تحمل ڤِرچينى ، فانحدر إلى شاطئ البحر فيمن انحدر اليه من سكان الجزيرة ليتعرف شأنها ، فعرف أن دليل المرفأ قد ركب زورقه إليها منذ ساعات ، وأنه لم يعد حتى الساعة ، فجلس فى انتظاره

حتى عاد وحده ، فأخبر أن السفينة اسمها « سان چيران »
وربانها اسمه المسيو « اوبن » وأن الريح لاتساعدها على
دخول المرفأ الليلة ، ولا يمكنها الوصول اليه إلا غداً ،
وكان يحمل فى يده عدة رسائل لبعض سكان الجزيرة ،
بعضها آت من فرنسا ، وبعضها مرسل من ركاب
السفينة أنفسهم ، فسمع پول فيما سمع من الاسماء اسم
مدام دى لاتور « هيلين » فاختطف الرسالة من يد الرجل
اختطافاً ، وقرأ عنوانها فاذا هو بخط ڤرجينى ، فطار
بها فرحاً وسروراً ، وأخذ يعدو إلى المزرعة عدم الظليم ،
فرأى على البعد أفراد الاسرة واقفين على رأس هضبة عالية
ينتظرونه ، فرفع يده بالرسالة وصار يلوح بها فى الجو كأنه
يحمل راية بيضاء ، حتى بلغ مكانهم ، فقدم الرسالة الى
هيلين ففضت غلافها وأَمرَّتْ عليها نظرَها إمراراً فعلمت
ان ابنتها قادمة على هذه السفينة نفسها ، وأن السبب

فى عودتها من فرنسا أن عمتها حاولت كثيراً أن تغير من طباعها وأخلاقها ، وتذهب بها فى حياتها مذهباً غير مذهبها الاول ، فعجزت عن ذلك ، وأنها عرضت عليها أن تزوجها من عظيم من عظماء البلاط فرفضت ، فنقمت عليها نقمة عظمى ، وأصبحت تحتقرها وتزدريها ، وتنظر اليها بالعين التى تنظر بها إلى فتاة مخبولة العقل ، فاسدة الذهن ، أسيرة الاوهام والاحلام ، ثم ما لبثت أن حرمتها من ميراثها ، وسلبتها كل ما كانت تُسبغه عليها من النعم ، ولم يبق إلا أن تطردها من منزلها طرداً ، فلم تجد بدًّا من الرجوع ، فركبت أول سفينة عامت أنها ذاهبة إلى أفريقيا ، وختمت رسالتها بقولها : إننى أكتب لك هذه الرسالة وأنا على ظهر السفينة «سان جيران» وبيننا وبين الشاطئ أربعة فراسخ ، ولا نستطيع الدخول الى المرفأ إلا فى الغد كما أخبرنا بذلك الدليل ، وفى الغد نلتقى إن شاء الله تعالى

وما انتهوا من قراءة الرسالة حتى استطيروا فرحاً

وسروراً ، وأخذ الزنجيان يرقصان ويقفزان ، ويهتفان بصوت عال : قدعادت ڤِرجيني ! قدعادت ڤِرجيني ! وكان أول مامر بخاطر پول فى هذه الساعة أن يذهب إلىّ فى كوخى ، ويبشرنى برجوع ڤرجينى ، ويشكرلى نبوءتى



بول يحمل رسالة فرجينى ويلوح بها فى الهواء

التى تنبأت له بها فى أمرها ، وكانت قد مضت هَدْأة من الليل ، فاستأذن أمه فى ذلك فأذنته ، فمشى ومشى أمامه دومينج يحمل مشعلا كبيراً حتى وصل الىّ بعد ساعتين ،

وكنت قد أويت الى مضجعي ، فأيقظني من نومي وألقى الىّ بشراه ؛ فلم يكن سروري بها بأقل من سروره ، وقال هيا بنا نذهب الى الشاطئ لننتظر ڤرجيني فان السفينة ستصل في الصباح

فقمت الى ثيابي فلبستها وذهبت معه ، وكانت الليلة حالكة مدلهمّة قد احتجبت كواكبها وراء قطع الغمام الكثيفة الآخذ بعضها بأعناق بعض كأنها القافلة السائرة في الصحراء ، فمشينا لانهتدي بشئ سوى غريزتنا التي تقود خطواتنا دائماً في مفاوز الارض ومجاهلها ، وكنا نسمع من حين إلى حين فرقعة هائلة آتية من ناحية البحر تشبه دمدمة الرعد وليست بها فلا نفهم منها شيئاً

فانا لسائرون إذ لمحنا زنجياً ضخم الجثة يمر بجانبنا فاستوقفته وسألته من أين أقبل ، فقال انى مرسل من شاطئ جزيرة الذهب الى الحاكم لابلغه أن سفينةً قد ألقى بها التيار الى ماوراء جزيرة العنبر تطلق مدافعها من حين إلى حين ، أى أنها في خطر ، وأنها في حاجة الى

المعونة ، فسألته هل يعرف اسمها ، فأجاب أن لا وانطلق لسبيله ، فالتفتُ إلى پول وقلت له أخاف أن تكون سفينةَ « سان چيران » وخير لنا أن ننحدر الى الشاطىء المقابل لجزيرة الذهب لنقف على الحقيقة ، فمشى معي صامتاً لا يقول شيئاً ، حتى أشرفنا بعد قطع ثلاث مراحل على ذلك الشاطىء ، وكانت الطلقات قد انقطعت ، فراعني سكوتها أكثر مما راعني دويها ، ثم ظهر القمر فى كبد السماء محاطا بثلاث دوائر سوداء ، كأنه متمنطق بنطاق الحداد ، فرأينا على نوره الضعيف الباهت منظر البحر وهو ثائر مهتاج تموج ظاماته بعضها فى بعض ، وترتطم أمواجه بصخور الشاطىء وهضابه ، فينبعث لها صوت أجش كأنه أنين الثكلى ، أو حشرجة المحتضر ، وقد يتطاير منها أحيانا شرر لامع كذلك الشرر الذى يتطاير من أجنحة الحباحب ، ورأينا الصيادين مُكبِّين على زوارقهم ينقلونها من الماء الى اليبس ويطرحونها فوق الرمال خوفاً عليها من الهلاك ، ولمحنا على مقربة منا

جماعة من الناس مجتمعين حول نار عظيمة يستدفئون بها ، فقصدنا اليهم ، وجلسنا على مقربة منهم ، وسمعناهم يتحدثون أن السفينة قد جار بها التيار عن طريقها ، ودفعها الى شاطئ جزيرة العنبر حيث الخطر عظيم لاحيلة فيه ، وأنها ان لم تبادر بدخول المضيق الذى بين جزيرة العنبر وجزيرة «سان لوى» فمصيرها الهلاك مامن ذلك بد ، وكان بول يسمع هذا كله وهو صامت مطرق كأنه لايفهم منه شيئاً

ولم يزل هذا شأننا حتى بدأت حاشية الظلام ترق عن بياض الفجر فتلمع بعض أشعته من خلالها كما يلمع الماء من خلال الطُّحلب[1] ، فحاولنا أن نرى سطح البحر فلم نستطع ، لأن الضباب كان كثيفا جدا ، كأنما قد بنا دُوَين السماء سماء أخرى لايرى الرائي من خلالها غير بعض القمم العالية تطفو وترسب كما يطفو ويرسب الغريق فى عُباب

---

(١) الطحلب خضرة تعلو الماء المزمن

الماء ، ثم استطعنا بعد حين ان نرى على سطح البحر شيئاً أشبه بغمامة كثيفة. فتأملناه: فاذا هو جزيرة العنبر التي زعموا أن السفينة محتبسة بشاطئها ، إلا اننا لم نر السفينة بحال من الأحوال

وهنا حضر المسيو لابوردونيه حاكم الجزيرة راكباً جواده ووراءه فصيلة من الجند تحمل بنادقها على عواتقها ، فأمرها أن تصطف صفاً واحداً ففعلت ، فأمرها أن تطلق بنادقها فأطلقتها ، فلم نلبث أن رأينا نوراً لمع على سطح البحر ، وأعقبه دويُّ مدفع . فعلمنا أن السفينة غير بعيدة عنا ، فتقدمنا جميعاً نحو الشاطئ لنتحقق من رؤيتها ، فاستطعنا بعد لأيٍ أن نرى شبحها الغارق في عباب الضباب ، وأن نرى سواريها الذاهبة في كبد السماء ، وأن نسمع رغم جرجرة الآذيّ(١) وزمجرته صوتَ ربانها وهو يصرخ صرخاته العظمى التي يستنهض بها همم رجاله ، فأمر الحاكم باعداد

---

(١) الجرجرة فى الاصل ترديد البعير صوته فى حنجرته . والاذى الموج

سفينة لنجدتها وباشعال النار على طول الشاطئ لترى على ضوئها السفينةَ المعدة لانقاذها ، فما رأت النار حتى أخذت تطلق مدافعها تباعا ، واستمر التخاطب بهذه اللغة النارية بينها وبين الشاطئ ساعة طويلة

وإنا لكذلك اذ تقدم نحو الحاكم شيخ زنجيٌّ هرم يدب على عصاه وقال له اننا نسمع ياسيدى منذ الليلة زمجرة هائلة تنحدر الينا من قمة الجبل ، ونرى أوراق الاشجار تهتز وتضطرب دون أن تهب عليها ريح ، ونرى طيور البحر هاربة إلى البر أسراباً أسراباً دون أن يزعجها مزعج ، أو يطاردها مطارد ، فهى العاصفة مافى ذلك ريب ولا شك،فأنقذوا السفينة قبل هبوبها ، فان لم تفعلوا فانفضوا أيديكم منها الى الابد

فاصفر وجه الحاكم وشعر برعدة شديدة فى جسمه إلا انه تجلد واستمسك ، وصاح : سأنقذها ولو كان فى ذلك حياتى

ولقد صدق الزنجى فيما قال، فقد لبس الجو حلة غريبة لا عهد له بمثلها من قبل ، وكانما انبعثت فى جميع أجزائه رعشة شديدة كتلك الرعشة التى تنبعث فى جسم المحموم، وأقبلت طيور البحر من كل صوب هاربة إلى البر كأن مطارداً يطاردها من ورائها ، وتراءت قطع السحاب سوداء قاتمةً تلمع فى خلالها نقط نارية حمراء كما يلمع بصيص النار من خلال الرماد ، وامتلأ الجو بفحيح الافاعى وطنين البعوض وزمجرة الوحوش

٣٢
العاصفة

وفى نحو الساعة السابعة سمعنا فرقعة عظمى قد انبعثت من جميع جهات البحر فى آن واحد، فاهتزت الارض والسماء ، ودارت الارض الفضاء ، وانقلب عالى كل شئ سافله ، وصاح الجميع « العاصفة »

هنا رأينا منظراً هائلا مخيفاً جمدت له دماؤنا فى عروقنا، ومشت له قلوبنا فى صدورنا، وما أحسب إلا أنه ستمر بنا الايام والليالى ولا نستطيع أن ننساه حتى تبرد أعظمنا فى ثراها

رأينا الضباب الذي كان يحول بيننا وبين رؤية السفينة قد انحسر دفعة واحدة فاذا السفينة ذرة هائمة فى ذلك الفضاء الواسع ، تُقبل بها الريح وتدبر ، وتعلو بها الامواج وتسفل ، إن حاولت الدنوّ من الشاطئ وقفت فى وجهها الصخور الناتئة المحددة الاطراف كأنها رماح مصوبة إلى صدرها ، أو أرادت النكوص على عقبها وارتيادَ طريق أخرى غير هذه الطريق عجزت عن مقاومة التيار، لانها أصبحت مجردة من جميع قواها وأسلحتها، فقلوعها ممزقة، وألواحها متناثرة، وحبالها متطايرة، وسواريها منكسة، وأعلامها ساقطة ، ورجالها متهافتون على سطحها لما نالهم من الاين والاعياء ، وقد بدأ مؤخرها يهبط ، ومقدمها

يرتفع ، أى أن الهلاك قاب قوسين منها أو أدنى

وكانت العاصفة فى تلك اللحظة قد بلغت أشدها فرأينا الموج يرتفع ارتفاع الجبال حتى يصك بمنكبه منكب السماء ، ثم يندفع إلى الشاطئ هُوِىّ العُقاب إلى وكره



السفينة موشكة على الغرق

فينسف رماله وحصاه ، ويطير بشظياته فى جو السماء ، ثم لا يلبث أن يتراجع مجرجراً فى تراجعه ، جرجرتُهُ فى تدفُّعه ، كالسهم الأليم فى حالتى وقعه ونزعه ، ويترك وراءه بقعة واسعة من الرمل كصفحة المرآة فى لمعانها واستوائها ،

ورأينا المضيق الواقع بين شاطئ الجزيرتين يرغي ويزبد كأنما يشتعل من تحته أتونٌ [1] متقد ، ويرمى بالزبد من حفافيه [2] كما يتناثر العهن المنفوش عن المندف ، أما السماء فقد أصبحت ميداناً تتسابق فيه قطع الغيوم الطائرة إلى غاياتها ، فلا تفرغ حلبة حتى تنشأ حلبة أخرى ، فأصبح البر والبحر ، والسماء والارض ، والماء واليبس ، والسهل والجبل ، قيامة كبرى يضطرب فيها كل شئ ، ويسير فيها كل شيء ، فلم نعد نعلم أنحن وقوف فى أماكننا ، أم طائرون فى جو السماء ، وهل طغى الماء على اليبس فأحاله ماء ، أم لايزال الماء ماء ،واليبس يبسا

---

(١) الاتون موقد نار الحمام(٢) تثنيه حفاف وهو الجانب

٢٣
الكارثة

وبينما نحن ذاهلون عن أنفسنا ، وعن كل مايدور حولنا ،إذ طرق آذاننا صوت عظيم فاستفقنا ، فاذا السفينة قد اصطدمت باحدى الصخور العظيمة ، وإذا آخر جرير[1] من أجرتها قد انقطع ، فانبعثت في تلك اللحظة صيحة ألم من جميع القلوب ، واذا پول يهجم على البحر ليلقى بنفسه فيه ، فاعترضتُ طريقه أنا ودومينج وحاولنا أن نمنعه فلم نستطع ، وظل يصيح دعونى أُنجى فرجينى ، فلم يكن لنا بدٌّ من أن نتركه وشأنه ، غير أننا عقدنا فى وسطه حبلا طويلا وأبقينا طرفه فى أيدينا خوفاً عليه من الهلاك ، فاقتحم الماء وكان منظره فى تلك اللحظة منظراً مخيفاً مرعباً كأنما هو منتفض من كفن ، وكأنما صورته قد استحالت الى صورة وحش ضار

---

(١) الجرير الحبل

لا يقوم له شئ إلا أتى عليه ، فظل يعوم مرة ، ويتسلق الصخور أخرى ، ويعانى فى سبيل ذلك مالا يستطيع أن يحتمله بشر ، حتى دنا من السفينة أو أوشك أن يدنوَ منها ، فلطمه تيار قوى لطمة شديدة أعادته إلى الشاطئ كما كان ، مجروح الساق ، مهشم الاعضاء ، فلم يضعف ولم يهِن ،



بول يسبح فى البحر لينجى فرجينى

ولم يبق إلا بمقدار ما تنفس نفس الراحة ثم عاد إلى شأنه الأول

وكان الموج يهدأ أحيانا عن السفينة فيخيل الينا أنها واقفة على اليبس فنرى أشرعتها الممزقة ، وألواحها المتناثرة ،

ورجالها المتهافتين على سطحها من الاعياء والتعب ، وربانها الواقف في مقدمتها وقفة الليث المصور يصرخ صرخاته العظمى التى تدوى بها أجواز الفضاء ، ثم يطغي عليها أحياناً فيضرب فوقها قبة جوفاء تغمرها فى جوفها كما يغمر القبر دفينه

وما هي الا لحظات حتى بدأت السفينة تتشقق ، وبدأ الماء يتسرب الى أحشائها ، وعلم ركابها أنهم هالكون أن بقوا فيها ، فأخذوا يلقون ما على سطحها من ألواح ومجاذيف وصناديق وأقفاص ثم يلقون بأنفسهم وراءها

وهنا ظهر منظر هائل عظيم خشعت له القلوب ، وأغضت له الابصار ، وفاضت له الشؤون من آماقها لهفة وجزعا

ظهر فى مؤخرة السفينة منظر فتاة رائعة الجمال ، غضة الشباب ، نبيلة المنظر ، قد وقفت على قدميها ، وضمت باحدى يديها قميصها إلى صدرها ، ومدت يدها الاخرى إلى ذلك

الذي يخاطر بحياته ويكابد أعظم الشدائد والاهوال في سبيل الوصول اليها ، فلم نعلم أهي تستغيث به لينقذها ، أم تشير اليه أن يعود إلى مكانه رحمة به واشفاقاً عليه فكان منظرها في تلك الساعة منظر صورة بديعة مرسومة في صفحة السماء



فرجيني ساعة غرقها

إنها فرجيني ! انها الفتاة الطاهرة الشريفة التي تجثو الفضيلة خاشعة تحت قدميها ، إنها الفتاة الكريمة المحبوبة التي نبتت من كل قلب ، فهي حبيبة الى كل قلب ، إنها الرحمة

الآلهية التى طالما أحسنت إلى البائسين ، وفرجت كربة المكروبين ، وبكت رحمة بالمنكوبين والمرزوئين ، إنها النور السموى الذى طالما أشرق فى القلوب اليائسة الحزينة فأنار حلكتها ، وبدد ظلمتها ، وملأها رجاء وأملا .

لذلك لم تبق عين من العيون إلا فاضت بمدامعها ، ولا نفس من النفوس الا سالت من بين أضالعها ، ولا يد من الايدى الا ارتفعت الى السماء ضارعة الى الله تعالى أن ينقذها من بلائها

علم الملاحون أن السفينة قد بدأت تهوى الى مستقرها ، وأن ظلمة الموت قد أخذت تخيم فوقها ، فنفضوا أيديهم منها نفض المودع يده من تراب الميت ، وأخذوا يقذفون بأنفسهم الى الماء ، لا يعلمون أذاهبون هم الى الحياة أم الى الموت ، وسفينة النجاة واقفة في مكانها من الشاطىء لا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة خوفا على نفسها من الهلاك ، وأخذت همة پول تضعف وتفتر لأنه كان

قد استنفد جميع قواه ، فلم يبق له منها ما يمسك به رمقه

وما هى إلا لحظات حتى خلا سطح السفينة من كل شىء الا من ڤرچينى واقفـةً فى مؤخرتها تنتظر قضاء الله فيها ، ورجـلٍ بحار واقفاً فى مقدمتها قد خلع ملابسه وهم بالقاء نفسه ، ثم لمح فرجينى واقفة موقفها هذا فابى له كرمه ووفاؤه الا أن يمد اليها يد المعونة لينقذها ، فمشى اليها وجثا بين يديها وطلب منها ان تخلع ثوبها ليحملها على ظهره ويسبح بها

أتدرى ماذا كان بعد ذلك ؟

كان أن غلب الحياء على الفتاة حينما رأت رجلا عاريا بين يديها يريد أن يضمها عاريةً الى جسمه ، فأشاحت بوجهها عنه ، وأشارت برأسها أن لا ، فصاح الناس من كل جانب أنقذها ، أنقذها ، فوثب الرجل قائماً على قدميه ومد يده الى ثوبها ليخلعه بنفسه

وهنا وا أسفاه أقبلت موجة عظيمة كالجبـل الاشم تندفع نحو السفينة اندفاع القضاء النازل ، وتزمجر فى اندفاعها

زمجرة الليث الهصور ، فذُعر البحار اذ رآها وطاش عقله وما لبث أن اُمّلسَ من مكانه وألقى بنفسه فى الماء

أما فِرجينى فلم تخف ولم تَطِشْ بل لبثت فى مكانها كما هى وقد علمت أن الساعة آتية لا ريب فيها فضمت قميصها الى جسمها بيد ، ووضعت يدها الاخرى على قلبها ، وسبحت بنظرها فى الفضاء،فأصبح منظرها منظر ملك كريم يطير بجناحيه فى جو السماء

وما هو إلا أن أغمض الواقفون عيونهم جزعا من هذا المنظر الهائل المخيف ثم فتحوها فاذا البحرُ قد ابتلع كل شىء ، واذا كل شىء قد انقضى

*
* *

وهنا صمت الشيخ وأسلم رأسه الى ركبتيه وأخذ يضطرب اضطرابا شديداً كأنما يعالج غصة تعتلج فى صدره ، ثم لم يلبث أن انفجر باكياً يَنْشِج نشيج الأطفال ، فهاجنى بكاؤه فبكيت ، بل بكيت كثيراً ، ولم أستطع الرجوع الى نفسى الا بعد حين ، فرأيته لا يزال فى ذهوله واستغراقه ،

فنبهته فانتبه ، وعاد الى حديثه يقول :

ياله من يوم عظيم هائل ! يالها من ذكرى مؤلمة مريرة ! يالها من حسرة لا انقضاء لها حتى الموت : لقد مر على تلك الحادثة عشرون عاما ولا تزال ماثلة أمامى كأنى لا أزال أراها ، إن ڤرجينى كانت عزيزة علي جداً ، بل كانت أعز مخلوق عندى ، ولو كانت لى ابنة لما نزلت من نفسى تلك المنزلة التي نزلتها ، وكان كل أملى فى حياتى أن أعيش فى ظل عطفها ورحمتها ، وحنانها وشفقتها ، حتى تتولى إغماض عينى بيدها فى ساعتى الاخيرة ، فلم يقدّر لى ما أريد ، لقد هجرتُ العالم كله ولجأت الى هذا المعتزل البعيد النائى هرباً من الشقاء فتبعني الشقاء حيث ذهبت ، وما أحسبه تاركى بعد ذلك حتى ينزل معى الى قبرى

ثم تنفس الصعداء وقال : ولكنّ الذى يهون وجدى عليها أنها الآن سعيدة فى سمائها ، مغتبطة بعيشها ، متمتعة برحمة ربها ورضوانه ، وأن تلك المرارة التى ذاقتها ساعة موتها قد زالت من فمها الى الأبد

نعم إن كان يومها كان يوما هائلا جداً فلقد بكاها كل من رآها حتى الزنوج الذين ألفوا البؤس والشقاء ، فلم يبق فى عيونهم موضع للبكاء ، وكان أكثرهم بكاءً عليها ذلك البحار المسكين الذى حاول انقاذها فحال القضاء بينه وبينها ، فقد كان يخيل اليه انه أجرم إجراماً عظيما بالفرار منها وتركها وشأنها ، فجلس على الرمل بعد خروجه يلطم وجهه وينتف شعره ويقول اللهم اغفر لى ذنبي، فقد كنت أرجو أن أنال السعادة بافتدائها بحياتى ، ولكن الله أراد شقائى

أما بول المسكين فقد كنا جذبناه قبل ذلك الى الشاطىء فجثا على ركبتيه يشاهد ذلك المنظر المؤلم وهو يُرعَد ويضطرب اضطراب الغصن فى مهاب الرياح حتى انقضى فسقط مغشياً عليه يتدفق الدم من فمه وأذنيه وأنفه ، فظللنا نعالجه ساعة طويلة حتى استفاق بعد لأْيٍ ، ودار بنظره حوله كالذاهل المخبول ثم انتفض انتفاضة شديدة وعاد الى ذهوله واستغراقه ، فأمر الحاكم أن يُنقل

الى خيمته الخاصة ، وأمر طبيبه بالقيام عليه والعناية به ، وظل هو ملازما له لايفارقه



الشيخ ودومينج يجذبان بول الى الشاطئ

فتركته حيث هو ، وذهبت أنا ودومينج الى الساحل

لنفتش عن جثة فرجيني ، وكانت الزوبعة قد هدأت قليلا ، فقضينا فى البحث زمناً طويلا فلم نعثر بها ، فاشتد حزننا وألمنا ، واستولى اليأس على نفوسنا ، وبدأ الريب يدب فى قلوب الكثير منا ، فصاح بعض الناس ألا يوجد لهذا الكون إله يدبّره ويسوسه ! الا يوجد بين هؤلاء الناس جميعاً من



بول ينظر الى السفينة ساعة غرقها

يستحق هذه الميتة التى ماتتها هذه الفتاة سواها ! والنفس الضعيفة تعجز دائماً عن احتمال صدمات القضاء فلا تجد لها بداً حين تصدمها من أن تروّح عن نفسها بالسخط والغضب ، وقد تخرج في سخطها أحياناً عن صوابها

وهداها ، فليرحمها الله فانها ما أُتِيَتْ الا من ناحية الثقة به ، والسكون الى عدله ورحمته

وهنا مر بنا بعض الناس وأخبرنا ان التيار قد ألقى ببقايا



جثة فرجيني غارقة فى الرمل

السفينة على شاطىء الخليج المسمى خليج « تمبو » أى خليج القبر ، فذهبنا اليه نرجو أن نعثر بالجثة هنالك فوجدناها غارقة فى الرمل الا جزءها الاعلى فنبشنا عنها فاذا هي على الصورة التى رأيناها عليها فى ساعتها الأخيرة وكأنها حية باقية لم تمت ، وكأن ماء الحياة لايزال يجول فى وجهها لولا اصفرار قليل في خديها ، واذا هي لا تزال جامعة ثوبها الي جسمها ،

وواضعة يدها الأخرى على قلبها ، وكأنّ أناملها تقبض على شيء ففتحتها فرأيتها قابضة على صورة پول الرسول التى كان پول قد أهداها اليها قبـل سفرها فوعدته أن



جثة فرجينى محمولة إلى الكوخ

تحتفظ بها الى آخر رمق فى حياتها ، فكأنها تودع صديقها الحميم الوداع الآخر فى صورة ذلك القديس العظيم ، فأكبرتُ هذا الاخلاص العظيم كل الاكبار ، وأيقنت أن النفس الطاهرة كالذهب الخالص، لا يغيرها شأن من شؤون الحياة أو الموت

ثم حملناها الى كوخ قريب لبعض الصيادين وعهدتُ الى بعض النساء أن يتولين شأنها حتى نعود ، وصعدت الى الوادى لأبلغ تينك المرأتين المسكينتين ذلك الخبر الهائل ، وما أحسبنى وقفت فى حياتى موقفاً أصعب من هذا الموقف ، فدخلت عليهما فى الكوخ فرأيتهما جاثيتين تصليان وتدعوان اللهَ تعالى بسلامة ابنتهما من شر هذه العاصفة ، وكان الليل قد بدأ يرخى سدوله على الكائنات ، ويضرب عليها سُرادقاً من وحشته وكآبته ، فما وقع نظرهما علىّ حتى ذُعرتا وارتاعتا ، وصاحتا أين ڤرجينى ؟

فلم أستطع أن أنطق بشيء سوى أنى أطرقت برأسى ، فدنت منى هيلين وقد استحالت الى شبح كأشباح الموتى وقالت لى بصوت خافت متهافت : هل ماتت ؟ فاستمررت فى إطراقى ، ففهمتْ كل شىء ، وما هى الا صيحة واحدة صاحتها من أعماق قلبها ثم سقطت فى مكانها لا يختلج فى جسمها عرق واحد ، ودارت مرغريت بنظرها فلم تر

ولدها أمامها فسألتنى وأين بول؟ فتلطفت فى قص قصته عليها، وحلفت لها بالله أنى أرجو له حسن العاقبة، فلم تعبأ بما أقول، ولم يكن جزعها على ولدها، بأقل من جزع صاحبتها على ابنتها

ولا أستطيع أن أصف لك يابنى هول تلك الليلة فى ذلك الكوخ، فلم تكن ليلة بكاء وعويل، وولولة وصياح، كما تكون ليالى الثُّكلِ فى بيوت الثاكلين، بل ليلةَ حزن صامت عميق يحبس الدموع عن الانطلاق، والزفرات عن التصعيد، وما أنس لا أنسى منظر تلك المرأة المسكينة وهى ساقطة تحت أعباء ذلك الحزن الثقيل تئن أنين الدفين تحت أنقاض البيت الساقط، وتقلب وجهها فى السماء تسألها دمعة تروّح بها عن نفسها فلا تعطاها، وقد تغمغم أحياناً بكلمات مبهمة لا يفهم منها السامع غير قولها: ابنتى! حبيبتى! مسكينة أنت! الرحمة يارب! المغفرة يا إلهى! ومرغريت تجلس بجانبها تارة لتعزيها وتهون عليها مصابها، وتخرج خارج الكوخ تارة أخرى لتبكى ولدها ما شاء الله أن

تفعل ، فكان منظر إخلاصها فى تلك الساعة أعجب منظر رأيته فى حياتي ، أما دومينج ومارى فقد ظلا يدوران ليلهما حول الكوخ يلطمان خدودهما ، ويخمشان وجوههما ، وينتفان شعورهما ، ويرسلان صرخاتهما المحزنة الأليمة فى جو السماء حتى تلفا أو كادا

ولم يزل هذا شأننا جميعاً حتى انبثق نور الفجر ، فانسللت فى صمت وسكون من حيث لا يشعر بى أحد ، وانحدرت إلى الشاطىء ، فرأيت أن الحاكم قد أعد كل شيء لتشييع جنازة ڤرچينى فكسوا نعشها بصنوف الزهر وأنواع الريحان ، وحمله ثمانية من عذارى « سان لويس » لابسات حللا بيضاء مشرقة ، وتبعه نحو مائتي طفلة من أطفال الدير يمشين صفوفاً متتالية ، ويحملن فى أيديهن سعف النخل وطاقات الزهر ويرتلن الأناشيد الدينية بنغمة شجية محزنة ، ومشى في المقدمة حاكم الجزيرة ووراءه ضباطه وجنوده ناكسى أسلحتهم ، مطرقى رءوسهم ، والناس فيما وراء ذلك كله بحر زاخر يعج بالبكاء والعويل ، والأنات والزفرات ،

وكانت مدافع الحصون ترسل طلقاتها من حين إلى حين ، فتردد صداها مدافع السفن الراسية على الشاطىء

ولم نزل سائرين حتى وصلنا إلى كنيسة «پامپاموس» وهنالك حى الزنوج المساكين الذى كانت تزوره ڤرچينى فى أيام الآحاد بعد أداء الصلاة فى الكنيسة ، لتعول فقراءه ، وتطعم جائعيه ، وتعود مرضاه ، وتعطف على أيتامه وأرامله ، فخرج رجاله ونساؤه ، وفتيانه وفتياته ، باكين صارخين ، فبكينا جميعاً لبكائهم ، وكانت مناحة عامة جاد فيها بالدمع من لم يجُد ، وبكى فيها من لا عهد له بالبكاء ، ولقد رأيت بعينى أولئك الابطال الأنجاد الذين يأنفون أن يذرفوا دمعة واحدة من مدامعهم والرماح تنوشهم والسيوف تأخذهم من كل جانب يتهافتون على الجذوع والأحجار باكين منتحبين انتحاب الأطفال الصغار ، ورأيت جماعة من نساء مدغشقر وموزنبيق آتيات يحملن على عواتقهن أقفاص الفاكهة حتى وضعنها حول القبر وعلقن على أغصان الاشجار المحيطة به خرقا بيضاء

ناصعة ، كعادتهن التى اعتدنها فى موتاهن الاعزاء ، ورأيت جماعة أخرى من نساء الهند والبنغال يحملن أقفاص الطير ليسرحنها فوق القبر ساعة الدفن ، ولعلهن يردن بذلك تمثيل صعود الروح الى سمائها ، فما أجلّ الفضيلة وما أعظم شأنها ، إنها الدين العام الذى يدين به الناس جميعاً عالمهم وجاهلهم ، مؤمنهم وملحدهم ، حاضرهم وباديهم ، والمعبد المشترك الذى يقف فيه الجميع صفاً واحداً ، أمام هيكل واحد ، يرتلون آية واحدة ، بنغمة واحدة

وكانوا قد حفروا للميتة قبراً تحت شجرة خيزران مورقة فى الجانب الغربى من كنيسة « پامپلموس » كانت تجلس تحتها دائماً هى وپول حينما كانا يأتيان لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، فلما حلت ساعة الدفن اشتد البكاء والنحيب ، وهرع الفتيات إلى النعش يلمسنه بأيديهن ، ويشرن إليه بمناديلهن وخرقهن ، ثم يمسحن وجوههن تبركا كما يفعلن أمام تمثال العذراء ، وجأَرَ الأمهاتُ بالدعاء الى الله تعالى أن يمنح بناتهن الفضيلة التى منحها هذه

القديسةَ المباركةَ ليحيين حياتها، ويمتن موتها ، وما هي الا لحظات حتى انحدر إلى مغربه ذلك الكوكب الدريُّ الذى خفق فى سماء العالم لحظة ثم اختفى

٢٤
أحزان بول

نقلنا بول فى محفة إلى كوخه بعدما أبلَّ قليلا ، وكنت خائفاً عليه وعلى أميه أشد الخوف من تلك الساعة التى يتلاقون فيها ، ولكنَّ الله تعالى أراد خيراً ما كنت أحسبه شراً ، فلم يقع نظرهما عليه حتى نهضتا اليه وضمتاه الى صدرهما وانفجرتا بالبكاء ، فنفَّس الدمعُ عن هيلين تلك الحرقة الكامنة التى ظلت تعتلج فى صدرها يومين كاملين ، وكأنَّ شعاع عينيه اللامعتين قد انبعث إلى قلبيهما فأضاءهما بنور العزاء والسلوى، فطفقتا تقبلانه وتلثمانه ، وتمزجان دموعهما بدموعه ، وقد أنزل الله عليهم جميعاً السكينة والصبر ، فاستحالت تلك

العاصفة التي كانت تعصف بقلوبهم ليلها ونهارها الى سكون يشبه سكون الموت ، فلا نواح ولا عويل ، ولا تذمر ولا شكوى ، إلا ما كان من تلك العبرات التي تتحدّر من آماقهم في صمت وسكون

وبعد هنيهة حضر الحاكم ليعزى هيلين عن نكبتها فعزّاها وحدثها طويلا عن عمتها وعن ذلك المسلك الوحشيّ الذي سلكته مع ابنتها، فكان جوابها على ذلك كله أن سألت الله لها العفو والمغفرة ، ثم اقترب من فراش بول وتناول يده وقال له يجب أن تسافر يابني إلى فرنسا وسأعطيك كتاب وَصاة تستعين به على عمل ينفعك وينفع أهلك ، وسأتولى عنك رعاية أميك وكفالتهما في غيبتك ، فألقى عليه بول نظرة طويلة لا يعلم الا الله ماذا يريد منها ، ثم جذب يده منه وأدار وجهه للحائط ، فَتَقَبَّض الرجل قليلا ثم نهض وقال له سألقاك مرة أخرى يابني وانصرف

ولم يكن لى بد في هذه الأيام من أن ألزمهم لأقوم بخدمتهم ، وقضاء حاجاتهم ، ولأتولى بنفسي تمريض هذا

الولد المسكين ، فلزمت فراشه ليلى ونهارى ما أكاد أفارقه
حتى استطاع بعد ثلاثة أسابيع أن يُبِلّ من علته ، إلا
أنه استحال إلى شخص آخر غير ذلك الشخص الأول ،
وكأنما انطفأ في قلبه ذلك المصباح المنير الذى كان يمد حواسه
ومشاعره بالنور والاشراق ، فأصبح ذاهلا مذهوبا
به ، تحدثه فلا يكاد يفهم الحديث ، ولا يكاد يرد عليه إن فهمه ،
وكانت تدنو منه هيلين أحيانا فتقول له إننى كلما رأيتك
ياولدى يخيل إلى أن ابنتى لاتزال حية باقية أراها وأحادثها ،
تريد بذلك تهدئته وإزالة وحشة نفسه ، فلا يكاد يسمع
اسم ڤرچينى حتى ينتفض انتفاضاً شديداً ، ويخرج من الكوخ
هائماً على وجهه ، فلا يعود إليه حتى يعود به من يراه ، وكثيراً
ما كان يذهب وحده الى « استراحة ڤرچينى » فيجلس
هناك تحت النخلتين المسماتين باسمه واسمها شاخصاً
ببصره إلى البركة التى كانا يستحمان فيها أيام طفولتهما ،
ويظل على ذلك عدة ساعات حتى أذهب إليه وأعود به إلى

الكوخ ، وخرج ذات يوم فتبعته أنا ودومينج ، وكنت أتبعه دائماً حيثما سار ، فصعد جبل « المورن » ثم انحدر الى سفحه الآخر ومشى فى الطريق الموصل إلى كنيسة پامپلموس ، فاستطير قلبي خوفا وهلعا ، وخفت أن ينتهى به المسير إلى قبر ڤرچينى ، وكنت لا أستطيع منعه أو الوقوف فى وجهه ، لأن الطبيب أمرنى ألا أحاوله فى أمر يريده ، وأن أترك له الحرية فى جميع ما يأخذ وما يدع ، وقال لى إن هذا هو علاجه الوحيد الذى لا علاج له سواه من وحشة نفسه وكآبتها ، فظل سائراً لا يلتفت يَمنة ولا يَسرة حتى بلغ مكان القبر لا يُخطئه ، فجثا فوق تربته تحت ظلال شجرة الخيزُران يصلى ويبتهل ، فعجبت لذلك أشد العجب ، لانى كنت على ثقة من أنه لا يعلم حتى الساعة هل أُخرجت جثة ڤرچينى من البحر ، أم ذهبت طعاماً للاسماك ، فلم أجد بداً أنا ودومينج من أن نجثوَ جِثيَّةُ وندعوَ دعاءَهُ ، فالتفت فرآنا ، فسألته لم يصلى فى هذا المكان ،

فقال إنه المكان الذى كنا نجلس فيه معاً حينما نأتى الى هنا أيام الآحاد لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ويخيل الى أن هذه البقعة أحب بقعة الى على وجه الأرض وأدناها الى نفسى ، فعلمت أنه قد أُلهم، وأن طيب تراب القبر دل على القبر



الشيخ ودومينج يصليان خلف پول

ثم نهض قائماً على قدميه وذهب ببصره فى السماء ، وظل على ذلك ساعة ، فخيل إلى أنه قد طار بنفسه إلى ذلك العالم الآخر ليفتش عن تلك النفس الحبيبة اليه التى فارقته فراق الابد ، فأصبح لا يهنأ له العيش من بعدها ، ثم مالبث

أن انتفض انتفاضة شـديدة وانحدر الى شاطىء البحر ، فذُعرتُ وارتعت ، ولم أجد بداً من أن أقف فى وجهه ، وقلت له عد بنا إلى الكوخ ياپول وكن عنـد ظنى بك ، فلم يعبأ بما أقول ، واستمر سائراً فى طريقه حتى أشرف على البحر ، وشخص ببصره إلى النقطة التى غرقت فيها السفينة ، نخفت أن يكون قد حدثته نفسـه بأمر عظيم ، فدنوت منـه وقلت له : إن المنتحر ياپول لا يصعد إلى ملكوت السماء ، فلم يزد على أن صاح : آه ياڤرچينى ! آه ياڤرچينى ! وسقط مغشياً عليه ، فحملناه الى الغابة ولم نزل به حتى استفاق ، فحاول ان يتقدم نحو الشاطىء مرة أخرى ، فضرعت اليه الا يفعل ، فأمسك على مضض ، وبعد لأى ٍ ما استطعنا ان نعود به الى الكوخ

وأصبح بعد ذلك لا شأن له الا طروق الأماكن التى عاش فيها مع ڤرچينى ، أو اتفق لهما فيها شأن من الشؤون ، فزار الملعب الذى كانا يلعبان فيـه معا وهما طفلان صغيران

ويحفران فى رمله الحفر العميقة الواسعة ويملآنها بالماء وصغار السمك ويجلسان على ضفافها يصطادان ، واجتاز الطريق التى مشيا فيها تحت وابل المطر وقد أسبلت إزارها على رأسه لتقيه مما تقى منه نفسها ، فكان منظرهما منظر الدمية فى المحراب ، ومشى فى الطريق التى مشيا فيها يوم ذهبا الى ضفة النهر الاسود ليشفعا للزنجية الآبقة عند سيدها ، ومر بالمكان الذى قطعا فيه نخلة الجوز وأحرقاها ليأكلا طلعها الأبيض حين أزمت بهما أزمة الجوع ، ودخل الغابة التي أضلا فيها الطريقَ حتى أظلهما الليل وهما تائهان مشردان ، وجثا عند الشجرة التى جثيا عندها يصليان ويدعوان الله تعالى أن يبعث اليهما من يهديهما السبيل ، وجلس بجانب الهضبة التى كانت تنتظره عندها حتى يعود من المزرعة تعباً مكدوداً فتمسح عرق جبينه بمنديلها ، وتبتسم له تلك الابتسامة العذبة الجميلة التى تنسيه آلامه ومتاعبه ، ومر بالشاطىء الرملىّ الذي كانا يرقصان فيه

الرقصة الزنجية الساذَجة ، ويمثلان على مسرحه بعض قصص الكتاب المقـدس ، وجلس طويلا على الصخرة التي جلسا عليها ليـلة الوداع يتعاتبان ويتشاكيان ، وكان هـذا آخر عهده بها حتى قضى الله قضاءه فيها

ولم يدع هضبة ولا صخرة ، ولا شجرة ولا نخلة ، ولا ظُلة ولا كرمة ، كانا يجلسان اليها ، أو يفيئان الى ظلها ، إلا زارها وبكى عندها طويلا ، كأنما كان يشعر في نفسه أنه مفارقها ، وألاّ بدله من وداعها ، فهو يودعها وداع الآسف الحزين

وكذلك قضى أيامه الأخيرة وحيداً شريداً ، هائماً مستوحشاً ، يأكل حيث يجد طعاماً ، ويشرب حيث يجد شراباً ، ويأوى الى كل ظل ، وينام تحت كل كوكب ، حتى تخوّنه السقم ، وأضواه الهم ، فغارت عيناه ، وانكفأ لونه ، وذوت نضرته ، وأصبح مثل الخلال رقة وذبولا ، فأزعجني أمره ، ورثيت له ولأميه البائستين المسكينتين اللتين

تبكيانه ليلهما ونهارهما على ضعفهما وسقمهما وإدبار أمرهما ، ولم أكن فاتحته حتى اليوم بكلمة واحدة فى شأن نكبته التى نُكب بها رحمة به وإبقاءً على حُشاشته القريحة المكلومة أن يؤلمها المس ، ويَهيجها العبث ، فلما استحالت حاله الى ما أرى رأيت أن أذهب فى معالجته مذهباً غير المذهب الأول ، فجلست اليه ذات يوم وقلت له أتعلم يابول أن ڤرچينى قد أخلصت اليك الى آخر رمق فى حياتها إخلاصاً لم ير مثله راءٍ ، ولم يتحدث بمثله متحدث ، فانتفض قليلا ورفع رأسه الىّ وَرَنّق ينتظر ماأقول

فاخرجت له صورة الرسول پول وأريته إياها ، فاختطفها من يدى بيديه الضعيفتين المرتعشتين وقال وأين وجدتها ، قلت على صدر ڤرچينى حينما وجدنا جثتها على شاطىء البحر وقد وَضعتْ يدها عليها كأنها تضمك فيها الى نفسها وتودعك الوداع الأخير ، قال وهل وجدتم جثتها ؟ قلت نعم وجدناها على ضفة الخليج عشية اليوم الذى غرقت فيه تحت طبقة من

الرمل قد سترت منها الجزءَ الذى تحب أن تستره من جسمها ، قال وأين دفنتموها ؟ قلت فى الجانب الغربىّ من كنيسة « پامپلموس » تحت شجرة الخيزران الكبرى حيث ذهبتَ وجثوتَ وصليتَ من حيث لاتدرى ، فتنفس تنفُّسةً طويلة كادت تنقطع لها حيازيمه ، وأكبَّ على الصورة يَغمرها بدموعه وقبلاته ، فافترصت هذه الفرصة وأنشأت أقول له

الموت

٢٥

ماهذه الدموع التى تَذرفها يابنى ليلك ونهارك ماتهدأ ولا تَفتُر ، وما هذا الحزن الذى تحمله بين أحناء ضلوعك لا يَتفرَّج عنك بوجه من الوجوه ، ولا حيلة من الحيل ، ومتى كان الموت نكبة من النكبات العظام التى يهلِكُ المرء فى سبيلها جزعا ، وتتساقط نفسه من دونها حسرات ،

وهل هو الا الانتقال من مكان الى مكان ، والتحول من موطن الى موطن ، وربما كان الذى ننتقل اليه خيراً من الذى ننتقل منه ، ومن أين لك أن الله لم يرد بصاحبتك خيراً حين استأثر بها واختار لها ماعنده ، وأنه مانقلها من هذه الدار الى تلك الا لينقذها من شقاء عَلِمَ أنها ستكابده فيها وستلاقى منه آلاماً جساماً ، وهل يمكن أن يكون لها مصير إن قُدّر لها البقاء غير هذا المصير ، بعدما تجهّم لها وجه الدهر ، وتقطعت بها السبل ، وانتهى أمرها مع عمتها بما انتهى اليه من سوء الحال ، وخيبة الأمل ، وبعد ما قُضى عليها أن تقضى بقية أيام حياتها فى هذه القفرة المجدبة المحرقة التى لا ماء فيها ولا ثمر ، وهل كنت تؤثر أن تراها شقية معذبة بين يديك تفلح الأرض ، وتكسر الصخر ، وتخوض الوحل ، وتتسلق الاشجار ، وتعبر الأنهار ، لتعينك وتعين أطفالها على العيش ، بعدما ألفتِ النعمة والرغد والعيش الهنيء فى قصر عمتها عدة أعوام لا ترى فيها صخراً

ولا حجراً ، ولا رملا ولا مدراً ، ولم لا يهنئك ويفرحك ، ويملأ قلبك غبطة وسروراً ، أن تعلم أنها الآن سعيدة في عيشها ، هانئة بمصيرها ، مغتبطة بما وفقت اليه من قدومها على ربها طاهرة نقية لم تلوث صحيفتها برشاشة واحدة من ذلك الرشاش الكثير الذي تلوث به صحائف الفتيات ، مجزية أحسن الجزاء على موقفها الشريف العظيم ، موقف العزة والانفة ، والصبر والاحتمال ، الذي وقفته في ساعتها الأخيرة ، ومن هو أولى منك ، وأنت صديقها وحبيبها وألصق الناس بها ، بالسرور لسرورها ، والغبطة لغبطتها ، والابتهاج بمصيرها السعيد الذي صارت اليه ، وأنا أجلك كل الاجلال عن أن يكون حبك اياها حباً مادياً يزعجه افتراق الاجسام ، ويكدر صفوه اختلاف الموطن والمقام ، ولو أنك عدت إلى نفسك قليلا لعلمت أنها لم تفارقك ، ولم تبعد عنك ، وانها جالسة اليك تحدثك وتسمع حديثك ، ولا شك عندي في أنها عاتبة عليك أشد التعب

فى هذه الغبرة السوداء من الحزن التى تثيرها على أثرها كأنها ذاهبة الى دار الجحيم تستقبل أنواع العذاب، وألوان الآلام، أوكأن كل الذى كان يعنيك منها شهواتك ولذائذك، فاما فاتتك بكيتها كما يبكى الطفل لعبته النافقة، وكأنى أسمعها تهتف بك قائلة «لاتبك على يابول فانى سعيدة ناعمة متمتعة برحمة ربى ورضوانه، متقلبة فى أعطاف نعمته التى آثرنى بها مكافأة لى على صبرى وجلدى، وما استقبلتُ به هموم حياتى وآلامها من سكينة واحتمال، فاصبر كما صبرت، واحتمل من آلام الحياة ما احتملت، يحسن الله جزاءك، ويجزل أجرك، ويرفعك الى المنزلة التى رفعنى اليها، فنعيش معاً فى سعادة دائمة ليست سعادة الدنيا بالاضافة اليها الا وهما من الاوهام، أو حلماً من الاحلام»

فلم يزد على أن رفع رأسه الى وقال مادامت الحياة شقاء وعذاباً، وما دام الموت سعادة وهناء، وما دامت

فرچيني تنتظرني في علياء سمائها لا عيش بجانبها العيش الذي أرجوه وآمله ، ولا أوثر عليه في الدنيا شيئاً سواه ، فلا خير في الحياة من بعدها ، وما أشوقني الى الموت الذي يدنيني منها

وهنا علمت ألا حيلة لي فيما قضى الله وقدره ، وأن الفتى قد نفض يده من هذه الحياة الى الأبد ، وألاّ يدَ في العالم تستطيع أن تديره الى وجهة غير الوجهة التي يسير فيها غير يد الله ، فقمت وقام ، ولا أسف في الدنيا أعظم من أسفي عليه ، ولا فجيعة فيها أكبر من فجيعتي فيه

الايمان

٢٦

جزى الله الايمان عنا خيراً ، فلولاه لثقلت على عواتقنا هذه الهموم التي نعالجها ، ولولاه لعجزنا عن أن نتنفس نفس الراحة الذي يعيننا على المسير في صحراء هذه الحياة ، فهو النجم الخافق الذي يلمع من حين الى حين في سماء الليلة المظلمة

المدلهمّة فينير أرجاءها ، وهو الدوحة الفَيْنانة التى يلجأ إليها المسافر من حَرور الصحراء وسَمومها فيجد فى ظلالها راحته وسكونه ، وهو الجرعة الباردة التى يظفر بها الظامئ الهيْمان فينقع بها غلته ، ويَفثأ لوعته ، وهو المطرة الشاملة التى تنزل بالأرض القاحلة فتهز تربتها ، وتحيي مواتها ، وتبث فى صميمها القوة والحياة ، وهل كنا نستطيع أن نبقى لحظة واحدة فى هذه الدار التى لا نفلت فيها من هم الا إلى هم ، ولا نفزع من رزء الا إلى رزء ، لولا ذلك اليقين الذى يملأ قلوبنا أنّ هذه الطريق الشائكة التى نسير فيها انما هى سبيلنا الوحيد الذى يفضى بنا الى ذلك النعيم المقيم الذى أعده الله فى جواره للصابرين من عباده ، وهل كان فى استطاعة مريضنا الذى يئس من الشفاء ، وفقيرنا الذى عجز عن القوت ، وثاكلنا التى فقدت واحدَها من حيث لا ترجو سواه ، ان يحتفظوا بعقولهم سليمة ، ومداركهم صحيحة ، وعزائمهم متماسكة ، لولا أنهم يعلمون أن حياتهم لا تنقضى

بانقضاء أنفاسهم على ظهر الارض ، وأن هناك حياة أخرى في عالم غير هذا العالم ، لاسقم فيها ولا مرض ، ولا بؤس ولا شقاء

لذلك استطاعت هيلين ومرغريت في أواخر أيامهما أن تحتفظا بسكونهما وهدوئهما أمام هذه الحوادث المؤلمة التي تفُضّ أصلاد الصفا ، وتذيب لفائف القلوب ، فكنتُ اذا دخلت عليهما رأيتهما في فراش مرضهما صابرتين محتملتين كأنهما لاتعالجان في أعماق قلبهما أشد الآلام النفسية والجسمية وأهوَلها ، فاذا نظرتا نظرتا الى السماء ، واذا نطقتا نطقتا باسم الله ، وسألتاه العفو عنهما ، والرحمة بهما ، ثم لاتلبث أعينهما أن تتلألأ بنور الأمل والرجاء ، كأنما قد وقع في نفسهما أن الله استجاب دعاءهما ، وتقبل قربانهما ، ووعدهما الجزاء العظيم في دار نعمته وجزائه

ولقد دخلتُ صباح يوم على مرغريت لِلَّحظةِ التي استيقظت فيها من نومها فقصت على أنها رأت ڤرچيني

فى منامها تسبح فى غمرة من النور ، وقد لبست قميصاً أبيض فضفاضا كأنما قد نُسج من خيوط الشمس ، ولم تزل تهبط من أوجها رُويداً رويداً حتى أصبحت فى حرم الارض ، فمدت يدها الى ولدى پول فأخذت به من منكبيه وطارت فى جو السماء ، فتشبثت به وطرت وراءه ؛ ولا أعلم كيف طرت ، ثم نظرت تحتى فاذا هيلين طائرة ورائى ، واذا مارى ودومينج طائران وراءها ، ثم دخلت على هيلين فى كوخها فى الساعة نفسها فوجدت أنها قد رأت هذه الرؤيا بعينها ، فعجبت لذلك أشد العجب ، وأيقنت أن الله قد اصطفى هؤلاء القوم لنفسه ، وأنزلهم منازل الأبرار الصالحين ، وأنهم وان كانوا لايزالون على قيد الحياة فقد لحقوا بالعالم الآخر ، وأصبحوا ملائكة بين ملائكته

ولقد صَدَقتْ هذه الرؤيا كما هى ، أما پول فقد مات بعد ذلك بثمانية أيام ، وكان قد خرج فى بعض خرجاته التى اعتادها دون أن أراه ، فافتقدُته عدة ساعات فلم أجده ،

فانحدرت الى حى پامپاموس فوجدته جاثياً على قبر ڤرچينى وقد ضم الى صدره صورةَ پول الرسول التى خلفَتها له ، فحركتُه فاذا هو ميت ، فحفرنا له ودفناه معها في قبرها ، وأما مرغريت فقد لحقت بولدها بعد ثلاثة أيام من وفاته قضتها صابرة متجلدة لاتذرف لها دمعة ، ولا تصعد لها أنة ، وكان وداعها لصديقتها وداعا هادئا ساكنا لم تزد فيه على أن قالت لها « سنلتقى هناك » كأنما يفترقان على ميعاد ، ثم أسلمت روحها ، وأما هيلين فقد ماتت بعد شهر من ذلك التاريخ على ذلك الفراش الحقير ، فى ذلك الكوخ البسيط ، فى تلك الجزيرة المقفرة ، لايحيط بها غيرى وغير مارى ودومينج ، بعد ذلك الملك الكبير ، والجنة والحرير ، والنعمة السابغة ، والمتعة الواسعة ، أما أنا . . . وهنا سكت سكتة طويلة كانت أوصاله ترتعد فيها ارتعاداً شديداً ثم قال بصوت خافت متهدّج « فقد بقيتُ وحدى » وانفجر باكيا بكاء الثاكل

الذى فُجع فى جميع أفلاذ كبده في يوم واحد ، فلا صبر له
ولا عزاء ، وبعد لأىٍّ مّا استطاع ان يعود الى حديثه فقال
وهنا لم أجد بدا من أن أنقل مارى ودومينج الى



موت هيلين أم فرچينى

كوخى، فلم يعيشا بعد أسيادهم الا بضعة شهور ثم لحقا بهم،
فخلت الارض منهم جميعا حتى من كلبهم وماشيتهم ،
وطيورهم وعصافيرهم، وأصبحوا تحت التراب أجساداً هامدة ،

وعظاماً نخرة ، تَسفى عليهم السوافى ، وتدور عليهم الدوائر ، ويتحدث عنهم المتحدثون كما يتحدثون عن الشعوب الغابرة ، والامم الخالية ، ولم يبق من آثارهم غير تلك الجدران المتهدمة التى تراها ، وقد خلد أهل الجزيرة ذكراهم في كثير من المواضع ، فسموا الرأس الذى عجزت السفينة عن اجتيازه فكان فى ذلك هلاكها « الرأسَ البائس » والخليجَ الذى وُجدت جثة فرجينى على شاطئه دفينةً فى الرمل « خليجَ القبر » والمضيقَ الذى غرقت فيه السفينة مضيقَ « سان چيران » وسموا استراحة فرجينى التى كانت تنفرد فيها بنفسها « كهفَ الفتاة » وشجرةَ الخيزران التى تظلل قبرهم جميعاً « الشجرةَ المقدسة » والوادىَ الذي كانوا يعيشون فيه « الوادىَ السعيد » ثم لم تلبث الايام أن ذهبت بهذه الذكرى كما ذهبت بأصحابها ، لأن الناس أصبحوا ينطقون بهذه الأسماء ولا يفهمون معناها ، فوارحمتاه لهم لقد ضن الدهر عليهم بكل شيء حتى بالذكرى

وقد علمتُ بعد مرور بضع سنوات على هذه الحادثة أن تلك العمة القاسية التي ضنت بما لها على ابنة أخيها وتركتها تموت بؤساً وجوعاً في هذه الجزيرة المنقطعة ، ثم حرمتْ منه حفيدتها وتركتها تهلك يأساً وهما في أعماق المحيط ، لقيتْ جزاء غلظتها وقسوتها ، فلم تسمع بخبر غرق ڤرچيني وموت أمها حتى أصابها مثل الجنون ، وملأت رأسها الوساوس والهواجس ، فكانت تندبهما تارة وتبكي مصيرهما حتى تُشرف على التلف ، وتهوّن على نفسها أمرَهما تارة أخرى قائلة إنها لم تفعل شيئاً سوى أنها أبعدت العار عنها وعن أسرتها فكان ماقدر الله أن يكون ، وكانت تنقم أشد النقمة على الفقراء والمساكين كلما رأتهم في طريقها فتصيح أما كان خيراً لهؤلاء الاشقياء أن يذهبوا الى المستعمرات الافريقية فيموتوا فيها ويريحونا من شرورهم وويلاتهم ، ثم لاتلبث أن تشعر بالعطف عليهم والرثاء لهم فتذهب الى الكنيسة بمال كثير تضعه في صندوقها باسمهم ، كأنما تظن أن الله تعالى

يغفر لها جرائمها وآثامها بهذه الرشوة التي تقدمها اليه ، وكانت لا تزال ترى في يقظتها ومنامها ، وقَوْمتها وقعدتها ، وذهوبها وجيئتها ، أشباحاً مخيفة تلوّح لها في وجهها ، وتهددها أقبح تهديد وأهوَله ، فتركض هاربة منها ، فتراها أمامها حيثما ذهبت ، وأينما حلت ، فتفزع الى الكاهن تسأله أن يَشفيها من دائها ، وما داؤها الا ذنوبها وآثامها التي أسلفتها ، فما حيلة الكاهن فيها ، وكانت كلما مر بخاطرها أن أقرباءها البعيدين الذين لا تحبهم ولا يحبونها سيرثونها من بعدها اشتدّ ذلك عليها كثيراً ، فخرجت الى الطريق حاملةً بِدرَ الذهب في يدها فتنثرها على الناس نثراً ، فرفع أولئك القوم أمرها الى القضاء واتهموها بالجنون ، ولم يزالوا بها حتى أرسلوها الى المارستان ، وسكنوا قصرها ، ووضعوا أيديهم على مالها ، وكأن الله أراد أن يسقيها الكأس حتى ثُمالتها فأبقى لها من العقل ما يمكنها من أَن تعلم أن مالها الذي تعبت كثيراً في جمعه وتدبيره ، واقترفت كثيراً من الذنوب والآثام

فى سبيل الاحتفاظ به ، والحرص عليه ، يتمتع به فى حياتها خصومها وأعداؤها ، فنال ذلك منها منالا عظيما ، ولم تلبث أن ماتت حاملة معها حسرتها الى قبرها

وكذلك ينتقم الله من الأشحّاء الذين يضنون بمالهم على أصحاب الحق فيه بنقله الى الأيدى التي لاتستحقه ، سنة الله التى لاتتبدل ولا تتغير

وصمت هنيهة ثم ألقى نظرة عامة على كل ما يدور حوله وأنشأ يقول

سلام عليكم أيها القوم الابرار ، والملائكة الاطهار ، لقد عشتم ماعشتم فى هذه الدار وأنتم غرباء عنها ، لاتعرفكم ولا تعرفونها ، ولا تأنس بكم ولا تأنسون بها ، لانكم من عنصر غير عنصرها ، وجوهر غير جوهرها ، ثم رحلتم عنها كما جئتم اليها ، لم يشعر بكم شاعر ، ولم يحفِل بأمركم حافل ، فكنتم كحلم لذيذ ألمّ بالعيون الهاجعة ساعةً ثم مضى لسبيله

هذه آثاركم عافية ، ودياركم خالية ، ومسا كنكم

لايأوى اليها غير الضب واليربوع ، ولا يُسمع فيها غير الزئير والعواء ، فلا نور ولا نار ، ولا روض ولا ماء ، ولا ملعب ولا مرتع ، ولا حديث ولا سمر ، ولا عين ولا أثر ، كأن وجودكم الدنيا بجمالها ولألائها ، وكأن ذهابكم القيامةُ التى تزلزل كل شيء ، وتأتى على كل شيء

سلام عليكم يا بَنِىّ لقد كنتم أنسى وحياتى ، وسلوتى وعزائى ، ومتعة نفسى ، وراحة ضميرى ، والروضةَ الأُنُف التى أقطف ماشئت من أزهارها ورياحينها ، وألجأ الى ما أحببت من ظلالها وأفيائها ، أما اليوم فقد سمُج وجه الدنيا فى نظرى ، وأصبح عِبء الحياة ثقيلا على عاتقى ، لا أستطيع احتماله ، ولا الاستقلال به

سلام عليك أيها الولد الطيب الكريم الذى نشأ فى تربة ساذَجة بسيطة ، فنشأ ساذَجاً بسيطا ، لا ينال الناس بشر ، ولا يعتقد في الناس شراً ، ولا يضمر فى نفسه الا الوفاء والاخلاص حتي لكلبه وشاته ، والكوخ الذي يؤويه ، والظل الذى يفيء عليه

سلام عليكِ أيتها الفتاة الشريفة الطاهرة التي صيغ قلبها من الرحمة والشفقة ، فبكت البائسَ والفقير ، واليتيم الذى لاعائل له ، والارملَ التى لا معين لها ، بكاء صادقاً لاتسمعه إلا أذن الليل ، ولا ترعاه إلاعيون الكواكب ، ولم يكن صدقها في أدبها وحيائها بأقل من صدقها فى رحمتها وإحسانها ، ففرّت من قارة الى أخرى حياء من نفسها ، ثم فرت من العالم بأجمعه ضناً بجسمها أن تامسه يد منقذها

سلام عليكما أيتها المرأتان الصابرتان اللتان علمتا ولديهما الفضيلة ، وغذتاهما بلبانها ، فكانتا خير الامهات لخير الابناء ، واللتان لم تسخطا فى حياتهما يوماً واحداً ولم تنقما ، ولم تشكوا لأحد غير خالقهما ، على كثرة ما ألم بهما من المصايب ، ونالهما من الارزاء ، ثقة برحمة ربهما وإحسانه ، وسكونا لقضائه وقدره ، حتى خرجتا من دنياهما خروج السبيكة من البُودقة طهارة وصفاء

سلام عليكما أيها الزنجيان المخلصان اللذان حفظا

الصنيعة من حيث لا يحفظها أحد ، وشكراها من حيث لا يشكرها شاكر ، ولم يحل سواد جلدهما ، وخشونة منبتهما ، ووحشة نفسهما ، من أن يحملا بين جوانحهما عواطف الود والاخاء التي لا يزال البيض في أوربا يَنشدونها في كل مكان على ألسنة كتابهم وشعرائهم ، وخطبائهم ووعاظهم ، رجاء الوصول اليها ، فلا يجدون اليها سبيلا

سلام عليكم يا بَنِيّ من والدكم الحزين الباكي الذي بَليت عظامُكم في قبرها ولم يَبْلَ ذكركم في قلبه ، والذي ظل يختلف الى واديكم عشرين عاماً يندبكم ويبكيكم ، ويسأل الله أن يلحقه بكم ، فلا يستتب له ما يريد

*
* *

ثم تناول عصاه واعتمد عليها ونهض قائما كأنما يقتلع نفسه من الارض اقتلاعا ، وكأنما قد خطا نحو القبر عشر سنوات كاملة في تلك الساعات القليلة التي قضاها معي ، فاصبح هامةَ اليوم أو غد ، وكانت الشمس قد آذنت

بالمغيب ، ولم يبق منها فى دائرة الافق الا كما يبقى فى جنبات الـكاس من فضل الشراب ، فألقى عليها نظرة هادئة مطمئنة ، ثم مشى فى طريقه بخطوات بطيئة ، وأوصال مرتعدة ، ودموعه تنحدر على خديه انحدار المزنة الهاطلة



الوادى السعيد

فلبثت فى مكانى أنظر إليه وقلبي يذوب رحمة به واشفاقاً عليه حتي انحدر فى بعض البطون وغاب عن نظرى

٢٧
النهاية

عدتُ الى منزلى الذى أنزله وحاولت أن آوىَ الى مضجعى فنبا بى ، وأن أَستزير الغمض فامتنع على ، وأن أهدأ فى مكانى ساعة واحدة فلم أستطع ، وكان أكبر مايشغلنى وينفر النوم عن عينى حالة ذلك الشيخ المسكين ، فقد هاجت تلك القصة التى قصها علىّ أمامدفيننا فى نفسه وشجنا كامنا ، فاستحال فى بضع ساعات الى هيكل من العظم تتردد أنفاسه فى صدره تردد الريح فى جوانب الهيكل الخرب ، وانصرف عنى يمشى مشية الطائر المذبوح يجر بِشلوه جرا ، وتمثل لى أنه الآن طريح فراشه، فى زاوية من زوايا كوخه، يكابد آلام المرض، أو آلام النزع ، من حيث لا يعينه معين ، ولا يرحمه راحم ، فاشتدّ ذلك علىّ كثيرا، وشعرت بشُعبة من شُعَب قلبى قد سقطت

وما أصبح الصباح حتى عقدت العزم على زيارته في واديه على بعد الشُقة بيني وبينه، لأتفقد شأنه، وأقضيَ حق صحبته، فسلكت الطريق التي وصفها لي مرارا في حديثه، ولم أزل أصعد النجاد، وأهبط الوهاد، وأضل مرة، وأهتدي أخرى، حتى أشرفت مُنْزَلَقَ الشمس عن كبد السماء على كوخه المنفرد في ذلك الوادي الموحش، فانحدرت اليه وكنت أرجو أن أراه واقفاً على بابه، أو جالساً على مقربة منه، فلم يقع نظري على شيء، وكان السكون سائدا عميقاً لا يَسمع فيه السامع نأمة ولا حركة، كأنه سكون المقابر، اللهم الا طائراً صغيرا كان يغرد من حين الى آخر تغريدةً شجية مؤثرة، كأنما هو يوقع لحناً من الألحان المحزنة على نغم واحد، وميزان مطرد، فرفعت نظري اليه فاذاهو واقع على شجرة قصيرة منفردة أمام باب الكوخ ذكرتُ عند رؤيتها أنها الشجرةُ التي حدثني الشيخ عنها أن فرجيني غرستها أمام كوخه منذ عهد بعيد، وأنه يحبها كثيراً ويأنس بها

من أجلها ، فدنوتُ منها فراعني أن رأيتُ تحتها شبحاً معفَّراً بالتراب ، فتبينته فاذا هو الشيخ ، فحركته فاذا هو ميت ، فهالني الأمر وتعاظمني ، وشعرت بقلبي يتمزق لوعة وأسى ، وبنفسي تسيل رحمة واشفاقاً ، وقلت ياله من رجل مسكين ! لقد مات ولا صديق يوسد رأسه ويغمض عينيه ، ولا عين تبكي عليه غير عين ذلك الطائر الصغير الذي ينوح فوق رأسه

*
* *

ولم ينقض اليوم حتى دفناه تحت تلك الشجرة التي مات تحتها ، والتي كان يحبها ويأنس بها ، ثم انصرفنا

ولا عينَ الا وهي عينٌ من البكا
ولا خدٌّ الا للدموع به خدٌّ

انتهت الرواية

بول وفرجينى

يا بنى القفر سلامٌ عاطر ... من بنى الدُنيا عليكم وثناءْ
وسقى العارضُ من أكواخكم ... معهدَ الصدق ومهدَ الأَتقياءْ
كنتمُ خيرَ بنى الدنيا ومَن ... سَعِدوا فيها وماتوا سُعَداءْ
عِشتُمُ من فقركم فى غِبطةٍ ... ومن القِلةِ فى عيش رخاءْ
لا خصامٌ ، لا مراءٌ بينكم ... لا خداعٌ ، لا نِفاقٌ ، لا رياءْ
خُلُقٌ برٌّ وقلبٌ طاهرٌ ... مثلُ كأسِ الخمرِ معنًى وصفاءْ
ووفاءٌ ثبت الحبُّ به ... وثباتُ الحبِّ فى الناسِ الوفاءْ
أصبحت قصَّتُكم مُعتَبرًا ... فى البرايا وعزاءَ البؤَساءْ
يجتلى الناظرُ فيها حكمةً ... لم يُسطِّرها يَراعُ الحكماءْ
حِكَمٌ لم تقرأُوا فى كُتْبها ... غيرَ أنْ طالعتُم صُحْفَ الفضاءْ
وكتابُ الكون فيه صُحُفٌ ... يقرأُ الحكمةَ فيها العقلاءْ

***

إنَّ عيش المرءِ فى وَحدته ... خيرُ عيش كافلٍ خيرَ هناءْ
فالورى شرٌّ وهمٌّ دائمٌ ... وشقاءٌ ليس يحكيه شقاءْ
وفقيرٌ لغنيٍّ حاسدٌ ... وغنيٌّ يَستذلُّ الفقراءْ

وقويٌّ لضعيفٍ ظالمٌ　　وضعيفٌ من قويٍّ في عناءْ
في فضاءِ الارض منأًى عنهمُ　　ونجاءٌ منهمُ أيُّ نجاءْ
إنَّ عيشَ المرءِ فيهم ذِلَّةٌ　　وحياةُ الذُّلِّ والموتُ سواءْ

***

ليتَ (فرجيني) أطاعت (بولساً)　　وأنالتهُ مُناهُ في البقاءْ
وَرَثت للأدمُعِ اللاَّتي جرت　　من عيونٍ مادرت كيف البكاءْ
لم يكن من رأيها فُرقَتَهُ　　ساعةً لكنه رأى القضاءْ
فارقتــه لم تكن عالمةً　　أنّ يوم الملتقى يومُ اللّقــاءْ

***

ما (لفرجيني) و (باريس) أما　　كان في القفر عن الدنيا غَنَاءْ
إن هذا المــال كأسٌ مُزجت　　قطرةُ الصهباءِ فيه بدماءْ
لا ينال المرءُ منه جرعةً　　لم يكن في طيّها داءٌ عَياءْ
عَرَضوا المجد عليها باهراً　　يُدهش الألباب حُسناً ورُوَاءْ
وأرَوْها زُخرفَ الدنيا وما　　راق فيها من نعيمٍ وثَراءْ
فأبته وأبى الحبُّ لهــا　　نقضَ ما أبرمه عهدُ الإِخاءْ
ودعاها الشوقُ للقفر وما　　ضَمَّ من خيرٍ إليه وهناءْ

فغـدت أهواؤها طائرة بجَناح الشوق يُزجيها الرجاءْ
يَأمُلُ الإنســانُ ما يأمُلهُ وقضاءُ الله فى الكون وَراءْ

* * *

ما لهذا الجوّ أمسى قاتماً يُنـذر الناسَ بويلٍ وبلاءْ
ما لهـذا البحر أضحى مائجاً كبناءٍ شامخٍ فوق بناءْ
وكأن الفُلك فى أمواجه ريشةٌ تحمِلُها كفُّ الهواءْ
و « لفرجينى » يدٌ مبسوطةٌ بدعاءٍ حين لا يُجدى دُعاءْ

* * *

لَهَفى والماءُ يَطفُو فوقَه هيكلُ الحسن وتمثالُ الضياءْ
زهرةٌ فى الروض كانت غضّةً تملأُ الدنيا جمالاً وبهاءْ
من يراها لا يراها خُلقت مثل خلق الناس من طين وماءْ
ظنّتْ البحرَ سماءً فهوت لتبارى فيه أملاكَ السَّماءْ
هكذا الدنيا وهـذا منتهى كلّ حيٍّ، ما لحيٍّ من بقاءْ

مصطفى لطفى
المنفلوطى

﴿ فهرس رواية الفضيلة ﴾

﴿ تم الفهرس ﴾

الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
١٧	١٢	الا كام	الآكام
١٧	١٢	طبيعى	طبعى
١٨	١٠	الاكتشاف	الاستكشاف
٣٢	١٠	الهناء	الهناءة
٣٥	٦	آوت	أوت
٣٨	١٢	عن	عند
٤١	١٣	صاحبتا	صاحبتها
٤٤	٩	عنح	عنح
٥٤	١٤	كلمتى	كلمتا
٥٧	٤	ظَلة	ظُلة
٥٩	١١	كان	كانا
٦٣	٢	نطقها	نطقها
٩١	٣	الهادئ	البحر الهادئ
٩٤	١١	فتجشمتهما	فتجشمتا
٩٧	٣	يحملها	يحملها
١٠٠	٨	تتلألؤ	تتلألأ
١٠٦	١٢	الفيروزج	الزمرد
١٣٠	١٤	عائب	عاب
١٣٧	٦	خليا	خلوا

الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
١٣٨	٥	حيمًا	حيثما
١٤٠	١٢	لا نطلبين	لا تطلبين
١٦٥	١	هدبى	هدئى
١٧٥	١١	بجهظاً	بحظها
١٧٥	١٥	شئو نك	شؤو نك
١٧٨	١	الاسره	الاسرة
٢٠٥	١١	وترثى	ونرثى
٢٠٦	١١	ومظاّنها	ومظانها
٢٣٩	٦	ينجومها	بنجومها
٢٣٩	١٥	أعتدت	اعتدت
٢٦٩	٩	تتركه	نتركه
٢٩٦	٦	الفرضة	الفرصة

الرجاء الى القارئ إصلاح هذه الأغلاط بقلمه فى النسخة التي بيده

(مؤلفات المنفلوطي)

النظرات

٣ أجزاء ثمن الجزء ٢٠ قرشاً

الشاعر

أو

سيرانو دي برجراك

ثمنها ٢٠ قرشاً

العبرات

ثمنه ١٥ قرشاً

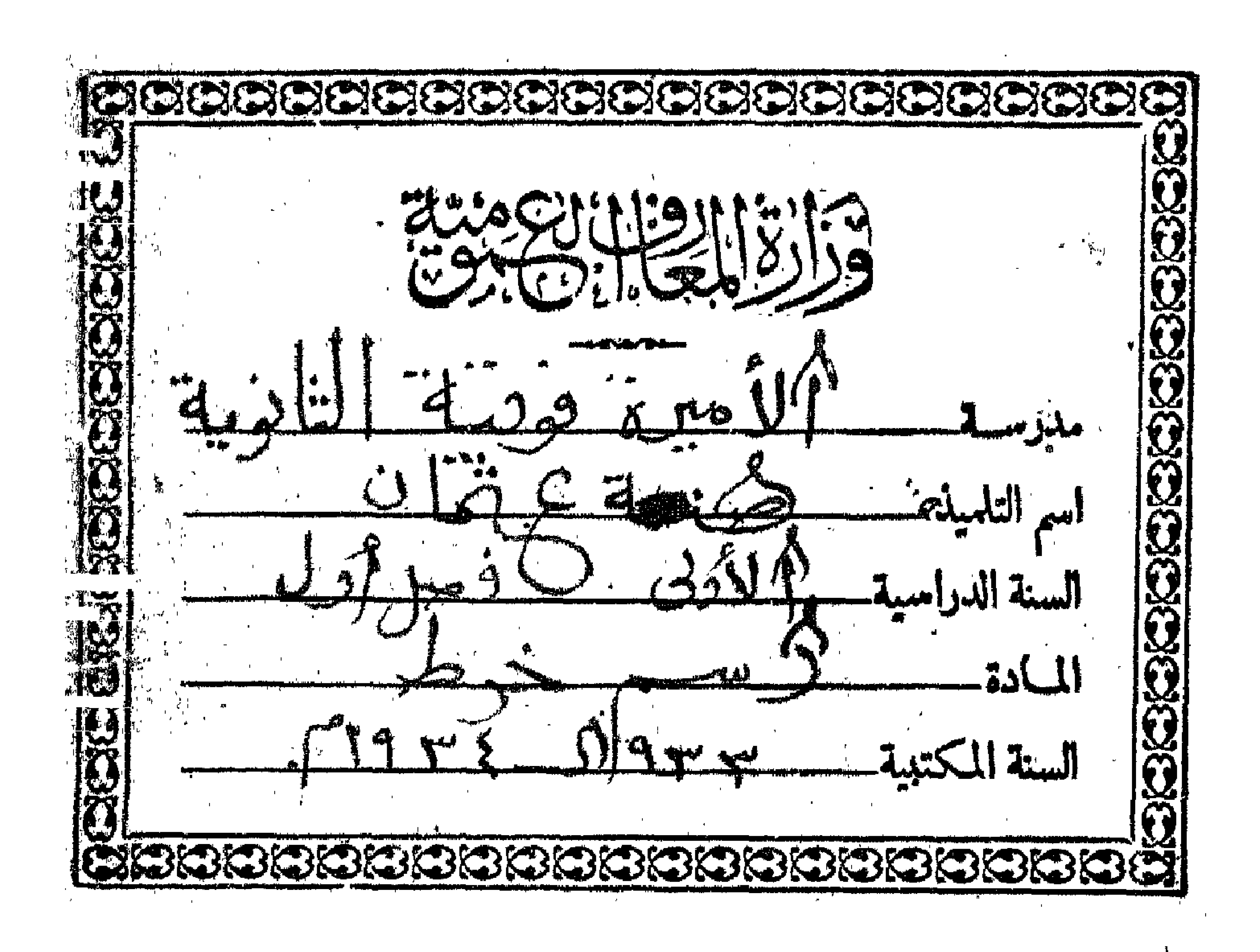
ماجدولين

ثمنها ٢٠ قرشاً

في سبيل التاج

ثمنها ١٠ قروش

تطلب هذه الكتب من المكتبة التجارية بشارع محمد علي بمصر
ومكتبة الهلال بالفجالة بمصر وبقية المكاتب المصرية



وزارة المعارف العمومية

مدرسة الأميرة فوزية الثانوية

اسم التلميذة [illegible] عثمان

السنة الدراسية الأولى فصل أول

المادة رسم خط

السنة المكتبية ١٩٣٣ – ١٩٣٤ م


Bibliotheca Alexandrina
04332462